المؤرخ العربي

المؤرخ العربي

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكّمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

العدد «٥١»

١٤١٤/١٤١٥هـ - ١٩٩٤/١٩٩٥م.

شروط نشر البحوث في المجلة

١- أن يعتمد البحث الأسس العلمية في إعداد وكتابة البحث.

١- أن يكون منسجماً مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب.

٣- أن لا يزيد عدد صفحاته عن (٥٠). صفحة

٤- أن لا يكون قد سبق نشره أو قبل للنشر في مجلة أخرى، على أن يقدم كاتب البحث تعهداً يؤكد ذلك مرفقاً برسالة مع البحث موجهة إلى مدير التحرير.

٥- تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والإنجليزية.

٦- يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل أن يكون مختصراً، ويثبت إسم الباحث أو أسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.

٧- يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم نسختين.

٨- بالنسبة للبحوث المقدمة إلى المؤتمرات أو الندوات أو ما كان مستقلاً من رسالة أشرف عليها مقدم البحث فيشار إلى ذلك في حاشية البحث.

٩- لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب أن توحّد الهوامش بالبحث من أول هامش في البحث إلى آخر هامش فيه، وتعطى تسلسلاً واحداً.

١٠- يحال البحث المقدم للنشر إلى خبير مختص ويُعاد إلى كاتبه لإجراء التعديلات المقترحة إن وجدت على أن يُعاد إلى مدير التحرير في غضون خمسة أيام.

١١- رتُبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبّر عن آراء أصحابها مع التأكيد على أن مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى.

١٢- والبحوث التي ترد للمجلة لا تعاد إلى أصحابها في حالة عدم نشرها.

١٣- يرجى تدوين إسم الباحث وعنوانه، وعنوان بحثه باللغة الإنجليزية.

ترسل البحوث إلى مكتب مديرة التحرير

د. رشاد الخطيب عياد

ص.ب (٩٢٢٠٩٤/١١١٩٢) عمّان - الأردن

بطاقة الاشتراكات

مجلة المؤرخ العربي
الدكتورة رناد الخطيب عياد
مديرة التحرير
ص.ب ٩٢٢٠٩٤ / ١١١٩٢
عمّان - الأردن

قيمة الاشتراك للاقطار العربية
٥٠ دولار للمؤسسات الرسمية
٢٥ دولار للمؤرخين وطلبة معاهد التاريخ

للأقطار الأخرى
١٥٠دولاراً
٥٠ دولاراً

هاتف: ٩٦٢٦/٦٦٢٨٢٨
فاكس: ٩٦٢٦/٦٧٧٦٦٥

ارجو قبول اشتراكي في مجلتكم لمدة سنة واحدة

الاسم : ....

العنوان : ....

المدينة : ....

القطر : ....

التاريخ : ....

يرجى ارسال قائمة بالحساب وتجدون طياً صكاً بقيمة ....

Subscription card

please enter my subscription for

Address:

Dr. Rinad Ayyad
Arab Historians Union Culture Attache

Tel.9626/ 662828. Fax.9626/ 677665. P.O.Box 922094/11192. Amman - Jordan

One year $ 150 for institution

$ 50 for Historians & Students of History

Please Bill me

Check enclosed for ....

Name ....

Address .... **Country** ....

City ....

Date ....

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

المحتويات

الافتتاحية

يعد اتحاد المؤرخين العرب من بين المنظمات العربية الفكرية غير الحكومية وفي نشاطها القومي والإنساني، وذلك من خلال الأهداف النبيلة التي يضطلع بها على الساحتين العربية والدولية، حيث أنها تهدف الى جمع شمل كافة المؤرخين العرب، وتقريب مناهجهم بالإتجاه الذي يؤدي الى توحيد الفكر القومي من خلال ما يختزنه العقل العربي من إمكانيات فكرية نابعة من عمق التاريخ القومي للأمة العربية، وكان أول بداية لهذا التوحد هو انضواء جميع الجمعيات التاريخية والآثارية والتراثية والوثائقية العربية، تحت خيمة الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب التي تمكنت خلال فترة قياسية من تصعيد نشاطاتها المتميزة وفعالياتها العلمية من مؤتمرات وندوات وحلقات نقاشية، وما قدمته من بحوث ودراسات تاريخية من خلال مجلة المؤرخ العربي التي تعد بحق صوت التاريخ العربي، وأن مقر الأمانة العامة للاتحاد ظل ولا يزال كخلية نحل تعمل بشكل دؤوب ومتواصل، من أجل تحقيق رسالة الاتحاد.

ومن أجل إلقاء ضوء على عمل الاتحاد وقد ودع عام ١٩٩٤ واستقبل عاماً جديداً هو عام ١٩٩٥ فإن اسرة تحرير مجلة المؤرخ العربي يسرها أن تسلط الضوء على نشاطات الاتحاد من خلال إحدى نوافذه العلمية ألا وهي الدوائر العلمية العاملة في الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، لكي يطلع القارئ على جانب من نشاط الاتحاد في هذا الاتجاه وهي:

١- دائرة أقسام التاريخ في الجامعات العربية.
٢- الدائرة الدولية والعلاقات الخارجية.
٣- دائرة مراكز الدراسات والبحوث العربية والإسلامية التاريخية.
٤- دائرة مجلة المؤرخ العربي والمنشورات التاريخية.
٥- دائرة مؤسسات الآثار والمتاحف وأقسام الآثار في الوطن العربي.
٦- دائرة المناهج التاريخية.
٧- دائرة الرسائل الجامعية التاريخية والآثارية والتراثية العربية.
٨- دائرة المجلات التاريخية.
٩- دائرة الهيئة العربية لإعادة كتابة تاريخ الأمة.
١٠- دائرة الندوات والمؤتمرات العلمية التاريخية.
١١- دائرة مؤرخو افريقيا العربية.
١٢- دائرة مؤرخو آسيا العربية.
١٣- دائرة الوثائق التاريخية.
١٤- دائرة الاتفاقيات العلمية.
١٥- دائرة التراث العلمي.
١٦- دائرة التراث العلمي.
١٧- دائرة وسام المؤرخ العربي.
١٨- دائرة الجمعيات التاريخية.
١٩- الدائرة الإعلامية.

وتهدف هذه الدوائر العلمية الى تحقيق الأهداف العديدة التي يسعى الاتحاد لبلوغها، فدائرة أقسام التاريخ في الجامعات العربية، تعمل جادة من أجل تعزيز العلاقات العلمية والثقافية بين أقسام التاريخ العربية، بما في ذلك إعداد دليل لأقسام التاريخ، يضم معلومات عن المؤرخين العرب العاملين في تلك الأقسام بما في ذلك ألقابهم العلمية، ونشاطاتهم العلمية وكذلك التأكيد على ضرورة تبادل الزيارات والخبرات العلمية بين تلك الأقسام حيث يهيئ الاتحاد جهداً متميزاً لتعزيز تلك العلاقات.

أما الدائرة الدولية والعلاقات الخارجية في الأمانة العامة للاتحاد فتعمل باتجاه تطوير وتنمية العلاقات العلمية مع المعاهد والمراكز التاريخية والتي تهتم بالشؤون الثقافية والسياسية والحضارية للوطن العربي والشرق الأوسط وتضم هذه الدائرة ارشيفاً متطوراً يحتوي على مئات الملفات الخاصة بالمعاهد والمراكز العلمية في خارج الوطن العربي كالولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأمريكا اللاتينية وأوروبا وآسيا واستراليا وافريقيا وتحتوي الملفات على معلومات مفصلة عن نشاطات هذه المراكز والمعاهد العلمية واصداراتها وعلاقاتها مع الاتحاد، وهي معلومات محدثة تبدأ من تاريخ بدء العلاقات مع هذا المعهد التاريخي أو ذاك المركز الثقافي حتى الوقت الراهن، كما يحتوي كل ملف على معلومات تفصيلية عن تأسيس المركز أو المعهد، وادارته ونموذج من اصداراته من نشرة أو مجلة ثم معلومات عما أقامه من ندوات أو مؤتمرات علمية تتعلق بشؤون الشرق الأوسط التاريخية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية.

وتضم هذه الدائرة ارشيفاً لأقسام التاريخ في دول العالم المختلفة تتضمن معلومات عن نشاط كل قسم علمي ومدى

اهتمامه بتاريخ الوطن العربي والحضارة العربية، ومعلومات عن الكوادر العلمية الموجودة فيه وطبيعة علاقة هذا القسم أو ذاك وتهتم هذه الدائرة بمسألة عضوية الاتحاد في المحافل الدولية ونشاطات الاتحاد مع تلك الدول من خلال المعاهد والمراكز التاريخية فيها.

أما دائرة الدراسات والبحوث العربية والإسلامية التاريخية فهي احدى الدوائر التي تعمل على توطيد الصلة والتعاون بينها وبين كافة مراكز الدراسات والبحوث التاريخية في الوطن العربي والعالم الاسلامي، وتبادل المعلومات والدراسات واستضافة الاساتذة والباحثين في مقر الاتحاد، واشتراكهم في إلقاء المحاضرات على طلبة الدراسات العليا في معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا التابع لاتحاد المؤرخين العرب.

أما دائرة مجلة المؤرخ العربي والمنشورات التاريخية فإنها تهتم بإنجاز خطط الاتحاد السنوية والخمسية المتعلقة بمجلة المؤرخ العربي والدراسات التاريخية واصدارها بشكل منتظم بما يعزز ويخدم البحث التاريخي العربي.

وتهتم دائرة مؤسسات الآثار والمتاحف وأقسام الآثار في الوطن العربي بالعمل على تسليط الضوء على الآثار العربية، والدعوة الى اعادة المسروق منها وتطوير الاشراف على المتاحف والآثار، واعداد دليل عن المتاحف العربية، بما يعزز خدمة الآثاريين العرب في هذا الميدان.

أما دائرة المناهج التاريخية العربية، فإنها تهتم بضرورة التقريب بين المناهج التاريخية العربية بالإتجاه القومي والشمولي، وليس بصيغة التجزئة والقطرية، مع التأكيد على خصوصية التاريخ القطري ضمن التاريخ القومي العربي بصورة عامة.

وتختص دائرة الرسائل الجامعية التاريخية والآثارية والتراثية العربية بموضوع وضع فهرس علمي موحد، لتلك الرسائل العلمية لأنها تقدم خدمة للآخرين، وكذلك تقدم صورة عن النشاط العلمي العربي في ميدان التاريخ والآثار والتراث، ولتجنب تكرار الرسائل المتشابهة بما يخدم الفكر التاريخي والآثاري العربي.

أما دائرة المجلات التاريخية، فإنها تهتم بوضع فهارس للمجلات التاريخية العربية والإسلامية والدولية، وغيرها والمختصة في التاريخ، وجعلها في متناول المؤرخ العربي، مع التأكيد على طبيعة الدراسات الموجودة في تلك المجلات ومستواها العلمي ويتم من ذلك تقديم خدمة كبيرة للمؤرخ العربي في الاطلاع على ما يصدر من مجلات وتتم مراسلتها من خلال عناوينها التي يقدمها الاتحاد عن طريق الفهرس الخاص بتلك المجلات.

أما دائرة الهيئة العربية لإعادة كتابة تاريخ الأمة العربية، فإنها تقوم بدور مهم في تنمية الوعي العربي في الوطن العربي، وكون تاريخ الأمة هو الدعامة الاساسية في وحدتها المنشودة، وأخذت الهيئة على عاتقها مشروع إعادة كتابة المحرف والمشوه من تاريخ الأمة، وهي أعلى هيئة قومية تاريخية يتم تشكيلها في الوطن العربي وعملها ينسجم ويتوافق مع حركة الانبعاث والتطور التي تشهدها الأمة العربية، وتضم الهيئة مجموعة من الأساتذة الأفاضل في الوطن العربي المشهورين لمكانتهم وأمانتهم العلمية في حقل الدراسات التاريخية.

أما دائرة الندوات والمؤتمرات العلمية التاريخية فإنها تهتم بعقد الندوات والمؤتمرات العلمية التاريخية في الأقطار العربية، وبلدان العالم وبالمشاركة مع المؤسسات العلمية أو المنظمات العالمية وذلك لخدمة التاريخ العربي وأهدافه.

وتهتم دائرة مؤرخو أفريقيا العربية، بالتنسيق فيما بين المؤرخين العرب في مصر وليبيا والسودان والجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا والصومال وجيبوتي، كما تهتم بإعداد دليل خاص بالمؤرخين العرب في أفريقيا العربية، بما في ذلك ألقابهم العلمية، ومؤلفاتهم، وأبحاثهم وكذلك تهتم دائرة مؤرخو آسيا العربية بنفس الاتجاهات، وبما يعزز تحقيق وحدة المؤرخين العرب، وتوثيق العلاقات فيما بينهم وعلى مختلف الأصعدة ليكون لهم دورهم الفاعل في تحقيق وحدة المصير والكلمة والهدف.

أما دائرة الوثائق التاريخية فإنها تختص بعمل دليل لكافة الوثائق التاريخية العربية، بما في ذلك أرقامها وتسلسلاتها، وأماكن تواجدها، مع فهرسة لكل دار وثائقية تاريخية عربية وما تحتويه من الوثائق مع تأكيدها على ضرور ة دراسة الوثائق التاريخية العربية لدورها في المساهمة في كتابة تاريخ الأمة، باعتبار الوثيقة مصدراً مهماً من مصادر التاريخ القومي العربي.

وتهتم دائرة الاتفاقيات العلمية، بموضوع عقد الاتفاقيات العلمية بين الاتحاد وبين المؤسسات العلمية الأخرى بما يؤدي الى خدمة الاتحاد والمؤرخين العرب، بما في ذلك الاتفاقيات المتعلقة بعقد المؤتمرات والندوات، وكذلك المتعلقة بالقيام بالدراسات والأبحاث.

أما دائرة المخطوطات العربية، فإنها تهتم بعمل دليل

للمخطوطات العربية، وأماكن تواجدها وأرقامها، وبيان المحقق منها، وبهذا تقدم هذه الدائرة خدمة كبيرة للمؤرخ العربي الذي يكون عادة بحاجة ماسة لمثل هذه المخطوطات في الدراسات والبحوث التاريخية.

وتهتم دائرة التراث العلمي، بالتراث العلمي العربي، والدعوة لاحيائه والكتابة فيه لأن هذا التراث كان احدى ركائز التطور الذي شهدته الأمة العربية في تاريخها، وهو تراث يفتخر به العربي على مر تاريخه كما أنه تراث مشرق ومشرف وتعمل الدائرة من أجل التشجيع على الكتابة والبحث في موضوعاته. وتختص دائرة وسام المؤرخ العربي، بجرد اسماء واساتذة التاريخ والآثار العرب، من الذين كان لهم دور متميز في خدمة الفكر والتراث والتاريخ العربي، وعلى مختلف العصور، حيث يكرم هؤلاء بمنحهم وسام المؤرخ العربي تقديراً لجهودهم المتميزة في خدمة تراث وتاريخ الأمة، وتعد هذه الدائرة دليلاً لمن منح وسام المؤرخ العربي يتضمن سيرته العلمية ومبررات منحه الوسام.

أما دائرة الجمعيات التاريخية العربية فإنها تعمل على دعم الجمعيات التاريخية في الوطن العربي والعمل الجاد من أجل تأسيس جمعيات تاريخية في الأقطار العربية التي لا توجد فيها جمعيات، وتعزز هذه الجمعيات العلاقات بين المؤرخين العرب بما يخدم أهداف الاتحاد ويحققها.

أما الدائرة الاعلامية في اتحاد المؤرخين العرب، فإنها توثق بملفات خاصة بنشاطات الامانة العامة لاتحاد المؤرخين، وكذلك نشاطات المؤرخين العرب التي يُبلّغون بها الأمانة العامة كما تعلن هذه الدائرة عن نشاطات الاتحاد، وبكل ما يتعلق بأموره، وهي دائرة مهمة من دوائر الاتحاد.

وأخيراً تبين هذه النبذة جانب من المهمات التي يضطلع بها الاتحاد من أجل خدمة المؤرخين العرب، وخدمة الدراسات والبحوث التاريخية.

سائلين الله تعالى أن يوفقنا لخدمة تاريخنا.

وتراثنا والله من وراء القصد

رئيس التحرير

أ. د. مصطفى عبد القادر النجار

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

بحـــوث التـــاريـــخ الـحـديـــث والمـعـــاصـــر

* مستقبل الثقافة العربية في ظل المتغيرات العالمية

الدكتورة رناد الخطيب عياد
المستشارة الثقافية لاتحاد المؤرخين العرب
عمان – الأردن

* قدم هذا البحث للمؤتمر العربي الدولي، مستقبل الثقافة العربية في عالم متغير، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢-٥ أغسطس آب ١٩٩٢.

مدخل:

لست بحاجة لأن أذكر بأهمية العامل الثقافي في ضوء التحولات السياسية الهائلة التي اجتاحت المنطقة العربية لا بل والعالم بأسره، مما أرغم الثقافة العربية على مواجهة هذه المتغيرات والتحولات الهائلة وجعل القائمين عليها يفكرون في مستقبلها، فللثقافة كما نعرف مفهوم واسع يشمل الأنشطة والمظاهر والعادات البشرية، وهي بذلك غير محدودة الزمان ولا المكان، والشيء الوحيد الذي يحددها هو مدى ارتباطها بهوية حضارية معينة، إلاّ أن عوامل كثيرة أثرت بل هزت الهويات الثقافية، منها على سبيل المثال لا الحصر الثورة التقنية والانفجار المعرفي مما أوجد مفهوماً جديداً هو «الثقافة العالمية» الذي جعلنا نشعر بخطر يواجه الثقافة العربية أو ما نطلق عليه «التبعية الثقافية»، وهو ما يجعل الثقافة المحلية تعتمد اعتماداً كلياً على نتاج الثقافات الأخرى وبخاصة ما يخص القيم والمعاني والأفكار والمعارف التي تحتاج اليها هذه الثقافة. وهي بذلك تمارس سيطرة من نوع «ما» أو سطوة تفرغ الثقافة المحلية من قيمتها الذاتية، فتجعل رد الفعل المباشر هو القلق والخوف على الذات، لذلك بدأت تبرز مصطلحات تعكس هذا الخوف مثل، التبعية الثقافية، والتهميش والإقصاء، والتغريب، والاستلاب، والامبريالية الثقافية، والغزو الثقافي والتفكك الثقافي، والخضوع، والضعف، والدونية الثقافية وخطر الثقافة الكونية، وعدم التكافؤ الثقافي، وكل هذه التعابير تنم عن شعور بالخطر، وقد ازداد هذا الشعور حدة مع التحولات الأخيرة وأخذت هذه التعابير تطفو علي السطح ولا يكاد يخلو أي خطاب ثقافي منها.

وبالمقابل بدأت تبرز تعابير تنمية ثقافة عربية، نحو ثقافة عربية جديدة، ومستقبل الثقافة العربية، والثقافة العربية واشكالية التبعية، وقطع الحبل العربي للثقافة العربية، والنهضة الثقافية العربية والمثقف النهضوي العربي، والمشروع الثقافي العربي الجديد.

وانطلاقاً من الفعل وردة الفعل تظهر الأزمة التي تواجه الثقافة العربية فالتحديات المستقبلية تستوجب علينا تحديد النظام الثقافي العربي الجديد، وهذا التحديد ليس بالأمر الهين واليسير، فالمخططات للمجتمعات الرأسمالية المتطورة وتدفق المعلومات منها وبطء تشكيل وتكوين وتظهير المعلومات في العالم العربي والاختراق للمراكز الثقافية فيها والنظم المتسلطة على الثقافة والاتجاهات القطرية وعدم تشجيع الإبداعيات الثقافية وتهميش الشعوب والاعتماد على النخبة المستفيدة من هذه الأنظمة، كل هذه الأمور وغيرها يجعل الساحة العربية مستباحة وعرضة للكثير من الصراعات الثقافية، والخاسر الوحيد هو الثقافة العربية، لكن علي الرغم من ذلك فالحلم والتفاؤل مشروع للمثقفين العرب للخروج من دوائر اليأس والاحباط والحصار العنيف الذي بدأوا يشعرون به. فالثقافة قد تنقلب بين ليلة وضحاها لأنها حرب وصراع البشر مع أنفسهم وتناقضاتهم وأحلامهم لا بل هي الحركة الحيوية للحياة، ولكن هذه الحرب ليست بالحرب البسيطة بل هي حرب شاملة وذات مستويات متعددة علينا أن نراعي بها الرفض والتبني لثقافات الغير.

إن التحولات التي عصفت بالعالم والناجمة عن الإنجاز

المعرفي المستمر والثورة في الاتصالات حتم تفكيك الكثير من البنية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لأركان المجتمعات وحتم على الثقافات بشكل خاص أن تخضع للسيطرة الاستعمارية أو الامبريالية أو الثقافية العربية من جديد ولكن بزعامة أمريكية في هذه المرحلة التي نعيش، مما حدا بالكثير من المثقفين العرب الى الشعور أن عروبة النظام الثقافي نوع من الخيال وبخاصة في ظل نتائج حرب الخليج المدمرة وأصبح النظام الثقافي العربي معقداً لا بل أنه بحاجة الى ثورة في ١عالم سريع التغير، يحتم على القائمين والمهتمين والدارسين للثقافة العربية إنجاز مهمات صعبة ومعقدة. فالتغيرات أدت الى انفتاح العالم الذي كان في يوم ما اشتراكياً على العالم الرأسمالي، كما أن آثار حرب الخليج جعلت الأمة العربية في دوامة بات معها المثقف العربي والمفكر العربي حائرين في كيفية الخروج منها بهوية موحدة لنظام ثقافي عربي جديد، يواكب تسارع الأحداث ويماشي الحدة والقسوة والتشنج في تعامل بعض الاتجاهات الثقافية المتواجدة داخل الدول العربية، وداخل الدولة القطرية العربية في ظل غموض الهوية السياسية والثقافية العربية، من جانب آخر فقد برز في العالم العربي تشرذم، واكبه تعمق أكثر مما كان عليه سابقاً ولم يقتصر ذلك على أنظمة الحكم، بل عصف بالشعب العربي كذلك، وهذه ظاهرة نادرة في التاريخ المعاصر لم تحدث مسبقاً، فقد جعلت العرب في حالة من الحيرة بعد أن كانوا في السابق يتجاوزون خلافات الأنظمة.

كل ذلك أثبت أن العالم قد دخل في حقبة جديدة من تاريخه ذات أثر كبير على الثقافات بعامة والثقافة العربية بخاصة، هذه الحقبة لها سمات وديناميكيات خاصة شكلت في مجملها مدخلاً لنظام عالمي جديد علينا أن نعي أنه لا يتشكل من فراغ ولا في فراغ، بل هي نتيجة انتهت اليها سلسلة طويلة من التطورات المعقدة سواء ما كان اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً مما أثر على ثقافتنا، وعلي منظومة العلاقات داخل مجتمعنا العربي وكل هذه المعطيات الحضارية والاقتصادية والعلمية جعلت من دول الشمال الصناعية مركز الثقل والقوة الأساس في هذا النظام، وجعل من دول الجنوب بما فيها العالم العربي دولاً استهلاكية فقيرة تعيش على تدفق السلع والمعلومات من دول الشمال الصناعية.

والدول العربية لا تملك الوقوف متفرجة كما لا تملك ثقافتها المناعة اللازمة في أدائها هنا وهناك، لأنها جزء من هذا النظام ومتفاعلة، ولا تستطيع الثقافة العربية حتى لو أرادت أن تنعزل عن عالم تشابكت فيه المصالح بطريقة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، أن تنكفئ على ذاتها وتغلق أبوابها، فهي في الواقع تختار التخلف والضعف والتآكل التدريجي. لذلك فالواجب علينا كمثقفين تجاه ثقافتنا وامتنا العربية وأجيالها اللاحقة أن نستوعب المتغيرات العالمية وأن نتعرف على الخطاب الثقافي المصاحب للنظام العالمي الجديد، ونحن نجتهد في استعماله، وأن نواجه الواقع بثقافتنا والحقائق التي هي علينا، ونعمل بكل ما أوتينا من قوة للتأثر في مجريات هذه التحولات وتطويرها، بما يتناسب مع واقعنا وثقافتنا وامتلاك الوسائل الكفيلة التي تزيد من قدرتنا الذاتية، على تشكيل ثقافة عربية وفق مصلحتنا القومية.

إن الحديث عن مستقبل الثقافة العربية في ظل المتغيرات العالمية، يفرض على الباحث بداية أن يتعرف على ملامح الثقافة العربية في الثمانينات وبداية التسعينات، آخذاً بعين الاعتبار المثقف والخطاب الثقافي والفكر السياسي المعاش والمتداول، وهذا يقودنا الى تتبع هذا الفكر من بداية هذا القرن أي منذ فرض النظام الدولي على عالمنا العربي في بداية هذا القرن وبالتحديد بعد ظهور النظام الدولي الجديد... أي بعد الحرب العالمية الأولى، حيث استطاع العالم العربي أن يتجاوز هذه المرحلة عن طريق ولادة نظام ثقافي عربي على الرغم من التحولات العالمية في تلك الفترة، إلاّ أن ولادة نظام ثقافي عربي جديد تحتاج بالضرورة في هذه الفترة الى إعادة احياء المجتمع العربي مع الأخذ بعين الاعتبار طبيعة الأنظمة التسلطية القائمة في معظم الأقطار العربية، وهنا يبرز عامل آخر لا بد للباحث من أخذه بعين الاعتبار أيضاً ألا وهو دور المثقف العربي في تصحيح الخلل القائم وقدرته على الانتاج والإبداع، على أن لا يكون دوره مقتصراً على النقل، فنقل ثقافة الغير يقود الى التبعية كما أن الخوض الكثير في ثقافة الماضي، يقود الى الأصولية والتقليد، وهذا لا يمت بصلة الى التطورات التي

حصلت داخل المجتمع العربي. فالمطلوب بين هذا وذاك الدخول في مواجهة ومجابهة مكشوفة مع النماذج الثقافية المعروضة والمتداولة علي أن يكون ذلك ضمن مخطط علمي مدروس للوصول الى شكل ثقافي يمتاز بالأصالة والتمايز ويبرز الهوية العربية.

أما العامل الثالث فهو رموز الخطاب الثقافي العربي، انطلاقاً من التشكيلات الجديدة والتحولات التي بدأ يخضع لها المثقف العربي والمواطن على حد سواء، ويحتم ذلك إيجاد اشكال لمقولات كانت في الماضي ضيقة ومحدودة وأثبتت فشلها على أرض الواقع، وساهمت في افراغ العامل الثقافي من دوره الإبداعي، فالبحث عن رموز جديدة وحتمية تقودنا الى استعمال رموز الحريات الأساسية للإنسان العربي، يقابلها رفض اخضاع الثقافة للسياسة، وتوحيد الجبهات الثقافية القادرة على جلب المثقفين العرب أينما كانوا للمساهمة في إيجاد نظام ثقافي عربي في ظل هذه التحولات.

إن لأزمة الخليج أثرها المتفجر على منظومة العلاقات العربية – العربية وبالتالي لها أثرها على الثقافة العربية، فمسألة اجتياح العراق للكويت لم تأت من فراغ وليست نتاج حسابات عربية خالصة، بل هي نتاج حالة من التردي كانت قائمة في العالم العربي ولها أبعاد أعمق حيث تعلقت إما بلعبة الكبار الفاعلين في النظام الدولي، وهي احدى نتاجات هذا النظام وفي ذلك لا بدّ لنا من أن نشير الى ثماني سنوات من الحرب خاضها العراق مدفوعاً أو مرغماً أو أداة بقصد أو بغير قصد. إلاّ أن هذه الحرب قد أثرت على الثقافة العربية والخطاب الثقافي العربي، ثم أن للقضية الفلسطينية مكانتها لدى كل عربي. وما يجري الآن من حديث عن هذه القضية وتسارع الأحداث فيها وسخونتها على الشارع العربي وتفاعلاتها المتصاعدة، سواء على المستوى الانتفاضة أو المقاومة أو الحلّ السلمي كل ذلك أثر ويؤثر في الخطاب الثقافي العربي.

إن مستقبل الثقافة العربية والأزمة يفرض علينا نظاماً ثقافياً ذا صفة جديدة في عالم يتغير سريعاً إلاّ أن ملامح هذا النظام المنشود ما تزال احلاماً تراود المثقفين العرب والحريصين على بنائه، وأنني أطمح من خلال هذا الملتقى إلى أن نتعاون سوية لإبراز هذا النظام الثقافي المأمول.

أولاً: ملامح الثقافة العربية:

لقد كانت تجربة التحرر الثقافي والاجتماعي والسياسي التي بدأت ملامحها تبرز وبخاصة في المشرق العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وليدة حركة طويلة على اعتبار أن الأحداث السياسية والاقتصادية والفكرية لهذا القرن مثلت مرحلة التفتح الثقافي العربي ومرحلة النهضة أو اليقظة في المجالات المختلفة. وبرز في تلك الفترة الاصرار على الدور العربي والقيادي والدعوة الى تقدير العنصر العربي على اعتبار أن من أحب العرب فقد أحب الاسلام وأن الانسان العربي عريق ويحتل مكاناً متميزاً في الوجود التاريخي، فالإنسان العربي وريث حضارة عريقة ذات خصائص روحية وانسانية سامية وكريمة فلم يكن يوما مشوهاً ثقافياً أو ممسوخ الثقافة كما حدث لمجموعات بشرية في أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية واستراليا والتي تعرضت لعملية استلاب ثقافي نتيجة الغزو والقهر من قبل مجموعات جعلت هدفها تدمير ثقافة هذه الشعوب واحلال ثقافتها مكانها ففقدت بذلك هويتها الثقافية وأصبحت ضائعة بلا جذور أو أصول أو هوية.

ليس هنالك من شك أن العلاقة بين الهوية الانسانية لمجموعة ما والثقافة التي تتميز بها هذه الجماعة هي علاقة عضوية بالغة المتانة والقوة، فالثقافة تتحكم في تشكيل الهوية الانسانية لتلك الجماعة وعلينا أن لا ننكر أن المعتقدات والقيم والدين لشخص ما تتشكل تحت وطأة الثقافة السائدة حيث أشار الى ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام عندما قال «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» فالعقائد الموروثة والأفكار والمذاهب وطريقة الحياة والعادات والتقاليد والبيئة وانفعالاتها وظروفها وطرق المعيشة، كلها تراكمات ثقافية تحدد وتبرز خصوصية الثقافة وما يهمنا هو أن المجتمعات الانسانية علي اختلاف أشكالها تتميز بثقافاتها الخاصة، فالكلمة الأولى في سلوك الفرد الفكري ما تزال هي للثقافة القومية وقد بدأت ملامح لبواكير التنظيمات والتجمعات التي تدعو الى بروز فكر عربي متميز ذي شخصية مستقلة وإن كان يستند في البدايات الى الدين الاسلامي ومنها:

حركة اليقظة العربية:

كان للوضع السائد والذي كان العربي يعاني منه أبان الحكم العثماني أثره المباشر على بروز حركة اليقظة العربية، فكانت المنطقة العربية تموج بالأفكار والتيارات التي تعكس مدى المعاناة التي كانت سائدة، لذلك أخذت هذه الأفكار والتيارات تترجم عملياً وتظهر مدى تحدي السيطرة العثمانية وتسعى الى الاستقلال عن الباب العالي مع أن بعضها فضل الإبقاء على خيط رفيع من التبعية الشكلية الى أمير المؤمنين، والأخرى بالغت في الدعوة الى الاستقلال، ومن أمثلة ذلك حركة محمد علي واصلاحاته في مصر ثم حروبه مع سوريا وهي أبرز مثال على تيار التحدي للسلطة العثمانية. أما التيار الذي نادى بالإصلاح فقد برز في لبنان، والتيار المتشدد الذي أنكر حق السلطان بالخلافة وإمارة المؤمنين فقد قام باليمن واتخذ لنفسه أئمة، كما أنكر الزيديون على آل عثمان التلقب بأمير المؤمنين ايماناً منهم بأن الخلافة الاسلامية يجب أن تكون عربية قريشية. مما عزز حالة عدم الانسجام مع السلطان لدى الشعوب العربية، رياح الحركات التي اجتاحت أوروبا والتي أخذت تتجه نحو الشرق، وبدأت تحرك الشعور القومي، فبدأ التململ القومي العربي، وقد ساهمت هذه الحركات في نقل الأفكار التحررية والثورية التي سادت أوروبا الى المنطقة العربية فولدت تيارات سياسية جديدة لمفكرين سياسيين وثوار ومصلحين في جميع أرجاء الوطن العربي.

ونظراً لتفاعل هذه الحركات مع عوامل أخرى محلية وتجسدها مع بعضها البعض بدأ الوعي ينتشر وبدأ الوعي العام يتعزز بصورة عامة، والوعي السياسي بصورة خاصة، مما ترتب على ذلك التمهيد لنشوء الجمعيات والأحزاب السياسية.

وهناك قائمة من الرواد المفكرين الذين ظهروا في مختلف ربوع الوطن العربي خلال القرن التاسع عشر وساهموا اسهاماً عظيماً في عملية التطور الفكري وهي قائمة طويلة مثل عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٢ - ١٩٠٢)، فمضمون الفكر عند الكواكبي وباختصار شديد ينطلق من التأكيد على القيم الدينية مع تركيز على القومية العربية فيتفاعل الأساس الديني والقومي ليقدم بذلك سمات فكره فقد دعى الى ثلاث دوائر هي:

١- الدائرة الدينية «الأمة»
٢- الدائرة القومية «القوم»
٣- الدائرة الرعوية «الشعب»

وقدم الكواكبي نتاجه الثقافي للأمة العربية من خلال نداءاته القومية وأدبيات «الجمعيات العربية الفتاة»

ومفكر ثان هو الشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) الذي أسس في مصر مجلة «المنار» وقد أصبحت من أعظم المجلات العربية وأكثرها جرأة في تحدي الاستبداد الحميدي.

وعالجت مقالات «المنار» مشكلة الدين والدولة والدعوة الى القومية العربية من خلال المطالبة باستعادة مجد العرب، وكانت تقارن بين العرب والترك. وقد طالب في مقالاته كذلك بتأسيس جمعية اسلامية على أن تكون مكة مقرها «الجامعة الاسلامية» وأيد هذا الاقتراح جمال الدين الأفغاني ومصطفى الغلاييني والكثير من المفكرين العرب منطلقين من تفاعل الدين مع المنطق ولأن الدين الاسلامي يعطي العرب مكانة خاصة بين المسلمين وسبب آخر أن الفكر الاصلاحي والثوري كان يجد جذوره دوماً في الاسلام.

وقد تبلورت هذه العوامل في نشوء جماعات فأحزاب سياسية علنية وسرية أما سبب تسمية الجمعيات الى أحزاب فيعود الى التأثير الأوربي حيث كانت قد ظهرت الأحزاب في أوروبا وأصبحت عنصراً أساسياً من عناصر القوة.

وبعد أن تمكن أحد الأحزاب السرية التي تشكلت في الامبراطورية العثمانية وهو حزب الاتحاد والترقي، من أن يقود انقلاباً في الأمبراطورية العثمانية ويتسلم السلطة على أثرها عام ١٩٠٨ أصبح هناك عهد جديد في الحياة العامة من ناحية تشكيل الأحزاب والجمعيات السرية ولعل الجمعية العربية الفتاة من أكبر الجمعيات العربية التي ظهرت بعد عام ١٩٠٨ والتي اقتصرت عضويتها على العرب من أبناء الامبراطورية العثمانية وهي مفتوحة أمام كل عربي مهما كانت الولاية التي ينتسب اليها، وقد ارتكزت ارتكازاً صريحاً على مبدأ القومية وأشار دستورها صراحة الى ذلك، وهو النهوض بالأمة العربية وجعلها في مصاف الأمم الحية.

لا أهدف هنا الى تقديم تفصيلات بصدد هذا الموضوع بقدر ما أهدف الى تقديم إضاءة لبدايات تشكل الفكر الذي كان يسود معظم الوطن العربي، والثقافة التي كانت تنتمي له مع بدايات القرن العشرين. إن بروز الخطوط بين القومية والدين شكلت فيما بعد كما هائلاً من الكتابات وأثرت تأثيراً كبيراً على شكل وطبيعة ومضامين الخطاب الثقافي العربي، حيث كانت الفجوة تبعد أحياناً وتكبر ثم تتقارب وتندمج حيناً آخر، فالتباعد والاندماج وانقسام المثقفين على أنفسهم، وبخاصة بعد أن بدأت تتشكل ملامح عالم جديد بعد الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من سقوط «الخلافة الاسلامية» التي كانت تمثل محور الفكر السائد الى جانب بدايات نمو «الفكر القومي» والدعوة الى القومية العربية وانقسام القوميين بين من يمزج ما بين القومية والدين وبين من يدعو الى العلمانية، ونمو تيار توفيقي محاولاً اتخاذ موقف الوسط بينهم وفي تلك الحالة بدأت تندفع الى الساحة العربية أفكار عالمية، وقف المثقفون العرب إزاءها موقف المندهش والمذهول والمرتبك والرافض لها والنصير.

ومن هذه الأفكار الفكر الشيوعي، الرأسمالي «الليبرالي» وبدأت الخطوط العامة تنحصر، وأخذ الضمور يسود اتجاهاً عاماً يتفق عليه المثقفون العرب، وساد الوطن العربي حالة من الفوضى الثقافية أو التعددية كما يحلو للبعض أن يسميها، وبدأت مرحلة تكاثر الأفكار المهجنة والمولدة، وأخذت دعوات الأصالة والمعاصرة والتحديث تأخذ الوقت الكثير وتستنزف طاقة الثقافة العربية، ولا يفوتني في هذه الإضاءة لملامح الثقافة العربية من أن أشير الى الثورة العربية الكبرى وإن كانت مقتصرة على المشرق العربي إلاّ أنها شكلت كما من الأدبيات التي رافقتها وأعقبتها في سوق الثقافة العربية الذي بدأ يموج بالأفكار، بحيث أخذت الضبابية تشوب الثقافة العربية لعدم وجود اجتماع موحد نحو مفهوم الثقافة العربية، مما جعل الخوف يدب في قلوب الحريصين والغيورين على الثقافة العربية، ومما زاد في خوف هؤلاء الصوت العالي الذي يتمتع به اليساريون والليبراليون العرب، وأيضاً انسحاب التيار الديني تحت وطأة سقوط الخلافة التي كان يدعو لها ويحرص على التمسك بها، وكذلك فشل مفهوم «الجامعة الاسلامية» واحلال مفهوم «الجامعة العربية» مكانه، مما أفلت زمام المبادرة من الاسلاميين وأدى الى انتقاله إلى أيدي دعاة القومية العربية، التي عملت على إبراز الشخصية العربية والدعوة الى هوية ثقافية عربية تنطلق من اللغة والتاريخ المشترك. وعمل هؤلاء على تعزيز هذا المفهوم لدى الكثيرين.

ولما كانت مصر تمثل المصنع والمصدر لهذه الأفكار، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وضمور دور المشرق العربي بسبب حالة التجزئة التي أصابته وانغماس أهله في البحث عن هوية تستوعب اتفاقية سايكس بيكو المفروضة عليه، والتي بدأت تظهر كقيد على النخبة المثقفة من أهله وقد أخذوا يتأرجحون بين القومية العربية وبين الوحدة السورية وبين التقسيمات التي أدت الى بروز عنصر غريب عن جسمه، ألا وهي اسرائيل المدعومة فكرياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً من الغريب، الذي خرج منتصراً في أول حرب كونية خاضها، فاعتبر الرجل الأبيض نفسه سيد العالم المطاع بانتصاره هذا وبدأت ارهاصات القضية الفلسطينية تضغط على المثقف العربي وشكلت القضية الفلسطينية محور اهتمام مختلف التيارات السياسية، عدا الفكر الشيوعي الذي تقبل فكرة الهجرة اليهودية ودعا الى التعامل معها على مبدأ عالمية الفكر، مما ساهم في رفع صوت الاسلاميين مرة أخرى لما تتمتع به فلسطين من مكانة لدى المسلمين كافة فكانت الدولة اليهودية مادة الاسلاميين في أدبياتهم وكتاباتهم وتوحدت نظرتهم مع القوميين في ذلك فشكلت مادة هائلة فيما بعد زخرت بها الثقافة العربية وإن تعددت الاجتهادات وتنوعت التحليلات التي أثقلت كاهل الوطن العربي.

ويدخل صلب ذلك حركات الاستقلال مع تنوعها وتعددها وتشابك أهدافها، من استقلال وطني الى استقلال قومي، وانقسام القوميين الى قومية اقليمية تعمل على استقلال كل اقليم الوحدة (سورية الطبيعية أو الهلال الخصيب، ووادي النيل، المغرب العربي، الجزيرة العربية)، وانصبت الجهود في تلك الفترة على مقاومة الاستعمار والدعوة نحو الاستقلال وفي ظل هذه الضغوط على المثقف ودوره في محيطه وجدت

ثقافة «التنوير للعامة» أو «ثقافة الشارع» والتي تلازمت مع الثقافة الأكاديمية والتي كانت منتشرة في المؤسسات العلمية، كالمدارس والمعاهد والجامعات. ومع هذه وتلك كانت الثقافة الحزبية التي كانت تواجه الخنق والوأد أحياناً من قبل المستعمرين والسلطات الحاكمة التي تدور في فلكها، ولا يفوتني أن أشير الى الثقافة الرسمية التي كانت تمارسها السلطات الرسمية والتي كانت تنعت بالاستهلاكية من قبل النخب الأخرى، إلاّ أن تأثيرها كان يتسع مع تدفق التكنولوجيا من الغرب، الذي كان يسعى لتعزيزها. كتطور الإذاعة والصحافة ووسائل الإعلام المختلفة مما أسهم في إيجاد مفهوم «تسييس الثقافة» وأصبح للثقافة مؤسسات رسمية بعد أن كانت نشاطات شعبية يحددها مكنون الناس وعفويتهم، فأخذت طابعاً رسمياً وأصبح لها فرسانها الذين يعطون ما يأمرون به، وأخذت بوادر القرار الرسمي الثقافي تتشكل وأخذ الخطاب الثقافي صفة القوالب المحدودة حسب طبيعة النظام الحاكم ومشاربه، وأخذت القوالب الثقافية تتسرب وترشح داخل الحركات الفكرية في المجتمع العربي والذي عمل بدوره على تقديم الثقافة العربية نظراً لتعدد وجهات النظر داخل الخطاب العربي الواحد، كل هذا وأشياء أخرى لم تسعفني الذاكرة باسترجاعها ساهمت بتسوية الثقافة العربية وتراجع المخلصين لها، فالملامح للثقافة العربية تعددت داخلها الصور، وتنوعت الاشكال، مما يدفعنا الى القول أن ملامح الثقافة العربية كان يشوبها نقص المناعة، فلا تكاثر المرتجفين عليها ساهم في تطويرها، ولا تكابت الأعداء عليها كان قادراً على انقراضها، حتى كانت العالمية الثانية وافرازاتها الجديدة.

التحولات العالمية بعد الحرب العالمية الثانية وأثرها على الثقافة في العالم العربي:-

إن الناتج الثقافي عشية الحرب العالمية الثانية، لم يكن بأحسن حال من الناتج الثقافي عشية الحرب العالمية الأولى، كما لم يكن المثقف العربي، والخطاب الثقافي العربي كذلك، لا بل أن الأسهم المسمومة كانت مفروشة في الجسم العربي لعدم وجود الأيدي القادرة على انتراعها. فبدأ الفكر السياسي العربي يواجه، محاور الاحتواء والانتكاس وبدأت الثقافة العربية تواجه مرحلة التسلط أو سلطة الثقافة حتى أصبح الوجدان العربي يعج بالقهر، آخذاً منحى الجدية، بعد أن شرب المثقفون العرب من كأس الاستقلال الوطني الهش الذي رسخ ملامح الوطنية والقطرية، ثم أخذت النفوس تهدأ وهي تغير منابعها ومشاربها بعد أن تغيرت الطموحات العربية. وأخذ الخطاب الثقافي العربي يزاوج بين القطرية والقومية، وأحياناً بينهما وبين الدين، وأخذ التيار الاسلامي يتراجع لا بل يفقد مكانته كأساس ومرجع للفكر القومي العربي والأفكار التي كانت تسود، وبدأت الأفكار العلمانية كالديمقراطية بدل الشورى والتعددية السياسية والاشتراكية تسود، بما تضمنه من فكر جديد، مما حدى بالإسلاميين الى القبول والمهاونة، ومما أسهم بالتالي بمطاطية الثقافة العربية، والتوهم بأن الثقافة العربية قادرة على استيعاب الثقافات الأخرى. وهنا لا بد أن أشير الى نشاطات المجامع العربية في تعريب الكلمات والألفاظ التي أخذت بالتدفق على العالم العربي، وطفا على السطح فيما بعد شيوع الثقافة الاستهلاكية وأخذت الثقافة العربية تعيش مرحلة التمحور مع الدين ومع العلمانية ومع الفكر العربي، وأخذت تبدو كبقع بعضها يبشر بالخير وبعضها الآخر ينذر بالخطر ويتمترس خلف كل بقعة عدد من المفكرين والمثقفين القادرين على إقناع أنفسهم، بصحة مقولتهم وقدرتها على المجابهة والمواجهة، والناظر الى الفكر العربي السائد عليه أن لا ينسى تعدد الثقافات داخل الثقافة العربية ودرجة تفاوت نموها وتطورها من منطقة الى أخرى.

الفكر السياسي العربي السائد:

إذا ما نظرنا الى الفكر الذي ساد بعد الحرب العالمية الثانية، لوجدنا أن أفكار التحرر والديمقراطية والوحدة، هي شعارات يكاد لا يخلو أي فكر منها، كما أنها كلمات لا يخلو أي خطاب سياسي منها، بغض النظر عن مدى جدية الجهة التي تطرحه، ففي خلال الفترة مدار البحث أي بعد الحرب العالمية الثانية وتشكيل الأنظمة العربية، أخذ الفكر القومي يطغى على أي فكر آخر في الساحة العربية، وكان لهذا الاندفاع القومي والأفكار القومية والخطاب القومي رد فعل متأخر عن أوانه، إلاّ أنه ساهم بشيوع الفكر القومي الذي بدا على شكل انقلابات

وثورات محلية ذات أفكار عربية، وإزاء هذا الاندفاع القومي الذي بلغ القوة بالوصول الى السلطة، كما حدث في مصر الناصرية، والعراق وسوريا وفيما بعد في ليبيا بدأت انتكاسات هذا الفكر تظهر في عدد آخر من الدول العربية وبخاصة جامعة الدول العربية التي كانت قاصرة عن استيعابه لا بل محاربته.

وفي ظل التزاحم الديني والقومي والوطني تعرضت المنطقة لسلسلة من الأحداث والمجابهات، التي أثقلت كاهل المواطن العربي قبل أن تثقل المثقف العربي، فالغليان السياسي والعسكري الذي فرض نفسه على مادة الثقافة العربية وعلى مراحل الانتاجية العربية للثقافة، جعل الثقافة تنحى منحى جديداً وبدأت الخطوط المتشابكة لدى الخطاب العربي تنفك شيئاً فشيئاً، وأخذت المنابر الثقافية تتضح، وبدأ الفكر يمثل أفكاراً وأخذت صفة التيارات تغلب على صناعة المثقفين، ودخل الوطن العربي جدياً في المحاور والأقطاب العالمية، وبدأت حرب التقدميين والرجعيين تأخذ شكل التحالفات والاستقطاب، مما أثر على المثقف والخطاب الثقافي وبدأت هجرة العقول، وأخذ سيف الأنظمة يشتد على الرقاب وسطوة الأنظمة أعادت للأذهان مرحلة الانحطاط السياسي والاجتماعي والاقتصادي التي أغلقت البلاد العربية مئات السنين، وبدأت الرمزية تطل برأسها على الخطاب الثقافي العربي خوفاً من المواجهة وأصبحت الرمزية صناعة رائجة للكتاب والمثقفين في مرحلة كان عنوانها «التحرر» وسادت مرحلة التشكيك والمحسوبيات، وأصبحت الشعارات تمثل عنواناً كبيراً لمرحلة خطيرة، فتسخين الشارع بالشعارات شتت الثقافة العربية وفجر ينابيع جديدة للثقافة لم تكن في ربوعها بل هي دخيلة عليها وأخذت الترجمة وسرقة الأفكار العالمية تملأ جيوب المثقفين، والكتاب والفكر السائد الواحد لم يعد موجوداً بل لكل مجموعة فكرها، وتحول الكتاب الى رؤساء عشائر، وتحولت كتاباتهم الى مخاطبات بينهم ومقارعات، وهي أشبه بالمناظرات حتى كان مسلسل الهزائم الذي بدأ في عشية الهدنة للحرب العالمية الثانية وإعلان دولة اسرائيل على جزء من العالم العربي، فوقف المثقف العربي مذبوحاً.

وكما ذكرت سابقاً فقد مثلت «فلسطين» الرمز الذي التقت عليه الأفكار وتوحدت نحوه التوجهات السياسية، واشرأبت نحوها العيون العربية من المحيط الى الخليج اضافة الى التعاطف الكبير من قبل العالم الاسلامي. فبدأ التحشيد عاطفياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً نحو قضية «مركزية» لجميع نواحي الحياة، وبخاصة لدول المواجهة وأصبح المثقف محكوماً بهذه القضية التي وجهت الطاقات نحوها لتحريرها وإعادة الكرامة العربية المذبوحة، فالكبرياء العربية هي العمود الفقري للثقافة العربية، كما أن الكرامة العربية هوية الكاتب العربي. وبدأت شعارات الوحدة والتحرر والتحرير تبرز في الخطاب الثقافي، واندفع تحت هذه الشعارات المد القومي «المتطرف» شيئاً فشيئاً حتى تفجر في مصر بثورة جمال عبد الناصر التي أخذت بعداً عربياً لم تكن تتوقعه ساطعاً في العالم العربي، حاملاً في ثناياه شعارات تمثل طموح العروبة فالتف الكثيرون حول جمال عبد الناصر فهو يمثل «البطل» والمنقذ لتلك الفترة على مدى التاريخ العربي والاسلامي. وبدأ حنين الوحدة العربية ينمو في مصر فأعلنت الوحدة مع سوريا، كما أعلن عن وحدة الهاشميين بين الأردن والعراق ولم تخل هذه الخطوات من انتكاسات فالبسرعة التي قامت، كانت السرعة التي آل اليها انكسارها وانصب الغضب مرة أخرى على الاستعمار والمستعمرين ولا ننكر في هذه العجالة «الدور الكبير» الذي قام به المستعمرون في التراجع عن الوحدة كما لا ننكر دور «الوحدويون» كذلك، وبروز دور «القائد والقيادة» في العالم العربي والمنافسة على اللقب وبخاصة بين دمشق الأمويين وبغداد العباسيين وقاهرة الفاطميين، مضافاً اليهما السعودية بثقلها النفطي وبروز «النفط» كعامل من عوامل تحريك الثقافة وانتعاشها كما سيأتي فيما بعد فالتنافس على الزعامة لم يكن مقصوراً على الأنظمة فحسب بل شمل المثقفين وحتى المواطنين، والمنافسة تعني الكثير لدى الأنظمة العربية وهي تعني الغاية تبرر الوسيلة.

وبهذه التموجات الفكرية غاصت الثقافة في وحل القهر الذي كان يكنه المواطن العربي ضمن المسرحية، والقصيدة والمقالة بأنواعها، وظل يبحث عن الخلاص على اعتبار أن فترة

الخلاص من المستعمر لم تنه الهزيمة ولم تعد الكبرياء العربية التي فقدت في زحمة الأحداث المحلية والعالمية، وبدأ التحكم بمعايير ثقافية وضوابط متفق عليها ضرباً من ضروب الخيال، فالحالة تقضي ما ذهبت اليه والهزيمة تولد الهزيمة والتفاعلات الداخلية تزداد وتطفو على السطح بين الحين والآخر معبرة عما تكنه الشعوب وعلى ما تتوهم عليه من أنه الحل وأخذ الفكر القومي يضغط ويشتد ويزداد عنفوانه في الشارع العربي، وبدأت التعابير الثورية تتسرب حتى لدى الفكر الاسلامي، وكادت استقلالية الفكر أن تكون شبه معدومة.

إنها مرحلة استباق النتائج وتحضير أرواح التحرر المستمدة من الماضي والمتعلقة بالمستقبل والمتجاوز للواقع بما يمثله من ألم لا يمكن تجاوزه، فغض الطرف عن الواقع ولد الشعور لدى العامة بمثالية المثقف والخطاب الثقافي مما أفقد التواصل بين جمهرة المثقفين وجمهور العامة، واتصفت الثقافة بصياغات مختلفة ومع التركيز الشديد من قبل الأيديولوجيين على الثقافة وأدلجة الشعوب أخذ التركيز ينصب على المؤسسات العلمية وبخاصة المدارس لنشر هذه الأيديولوجيات عن طريق تجنيد المعلمين، وأخذ التعليم في الدول العربية في أواخر الخمسينات والستينات يشهد منافسة الأيديولوجيات العالمية في تسييسه لصالحها واستقطاب المعلمين ليكونوا جنوداً مجندة لهذا الفكر، أو ذاك، وأخذت التعابير الحزبية وأدبيات الأحزاب تشق طريقها، من خلال الثقافة الى المواطن العربي ولا ننكر أن الفكر القومي وتفرعاته وتنوعاته كان له نصيب الأسد في الثقافة وبالتالي الفكر السائد في تلك الفترة.

الخطاب الثقافي:

إن الحديث عن الخطاب الثقافي لا ينفك عن الفكر الذي يمثله هذا الخطاب أو ذاك لكن الخطاب الثقافي يقودني الى الحديث عن الشكل والمضمون للخطاب الثقافي وبالتالي يقودني للحديث عن القارئ لهذا الخطاب. فشكل الخطاب الثقافي تطور بفضل الوسائل الحديثة التي لا داعي للدخول في تفاصيلها فأنتم تعلمون مدى التطور الهائل الذي تشهده المؤسسات القائمة على الثقافة الخاصة والعامة منها، أما المضمون الثقافي فقد تنوع ابتداء من محلية الثقافة متدرجاً حتى العالمية، ومن الخاص حتى العام، وأصبحت الثقافة العربية تتكيف مع التطور والكم الهائل من المعلومات المتدفقة عليها من الثقافات الأخرى. مما حدا بالخطاب الثقافي الى أن يتكيف مع النقلة النوعية التي أصابت الطبقات المحظوظة داخل المجتمع العربي ولا يفوتني أن أشير الى أثنية الثقافة وإن كانت ضئيلة الأهمية لضآلة ما تمثله من جمهور.

وقد واكبت الأحداث السياسية مضمون الخطاب الثقافي كما أنه لم ينكر التفاعلات الاجتماعية لكنه لم يمثل القائد لها بل أنه اشتهر بتحسس الحدث وغالباً ما داهمت الأحداث الخطاب العربي وقد يعود ذلك للعداء الودي بين المثقف والسلطة، وابتعاد المثقف عن صانعي القرار أو محركيه مما جعل الخطاب الثقافي يلهث وراء الحدث وهذه الحالة ساهمت بشكل غير مباشر بالتبعيد ما بين القارئ والخطاب الثقافي.

المعاني والأفكار والرموز والمعارف الثقافية السائدة في ظل النظام الدولي الجديد:

إن تعبير النظام الدولي الجديد أو النظام العالمي الجديد أو التحولات العالمية التي داهمت الثقافة العربية بعد حدثين هامين شكلا الزلزال الذي هز العالم بقاراته الخمس، تمثل الأول بانهيار العالم الثاني أو «حلف وارسو» وقد أعاد للأذهان العربية هذا الإنهيار انهيار «الامبراطورية العثمانية» وأصبح الاتحاد السوفياتي هو الرجل المريض الذي بانهياره انهارت معه الحواجز وتوهم البعض وظن آخرون أننا كعرب أصبحنا مكشوفي الرؤوس للدنكشوتية الأمريكية، لا بل أننا أصبحنا فريسة سهلة للغرب وأن المضادات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي أقمناها قد انهارت مع انهيار سور برلين، وبانهيار العالم الثاني أصبح العالم الثالث والذي تشكل الدول العربية عصبه ومحركه في مواجهة غير متكافئة مع العالم الأول. وقد يكون منبع الخوف أننا كنا ندرك أن وجود عالم ثان ومنافس للأول يشكل حاجزاً أو على الأقل يبعد عنا «الغول» الغربي، القادر على افتراس فريسته بكل سهولة ويسر، ولأننا كعرب اعتدنا معاناة عداء الشعوب الغربية ابتداءاً من الحروب الصليبية وحتى يومنا هذا وإن كانت الحرب العراقية الإيرانية لم تنس بعد إلاّ أن اسلامية الشعوب الإيرانية جعلتنا لا

نشعر نحوهم بالعداء فعداء المواطن العربي منصب على الغرب وقد استحكم هذا العداء في نفوسنا حتى كدنا نتوارثه جيلاً بعد جيل على الرغم من إعجاب البعض منا بهم، إلاّ أننا نبقى متشككين بكل خطواتهم نحونا فمفهوم الاستعمار والسيطرة الأجنبية، وتجريدنا من عوامل قوتنا بدءاً بالوحدة وبالموارد الطبيعية التي يشكل النفط العمود الرئيس لها، فكما كان النفط عاملاً مساهماً في تنمية الدول النفطية وغير النفطية فهو قد ساهم في الحالة القائمة بيننا وأعني الحرب الثقافية التي لم تهدأ مع سكوت مدافع حرب الخليج النفطية أولاً وأخيراً ولم ينته بالهوية التي تشكل الثقافة أحد مقوماتها الأساسية. إن مسلسل النيل من العروبة لم يبدأ مع النظام الدولي الجديد كما أن البحث في مستقبل الثقافة العربية لم يكن عنواناً جديداً، فالخوف على الثقافة العربية نوع من الخوف القديم الجديد، وهو مرافق للخوف من الغرب، والسؤال الذي يطرح نفسه علينا لم نخاف الثقافة العربية مع أننا من أكثر الشعوب في العالم خبرة في التعامل مع الثقافات الأخرى؟ فالإسلام والذي يشكل العرب مادته الأولى في حمل الثقافة العربية الى الشرق والغرب وانتقل العرب معه شرقاً وغرباً وشكلوا ثقافة عربية مشتركة بينهم وبين باقي القوميات التي دخلت الاسلام. وأثروا أكثر مما تأثروا بها حتى كانت بدايات الحروب الصليبية ومع انتصار أوّل للعرب عليهم زال الخوف من النفوس العربية التي كانت أكثر تسلحاً بالإسلام والسبب الآخر أن الوعي للخطر العربي لم يكن أكثر وضوحاً والرؤية المستقبلية لهذا الخطر كانت معدومة إلاّ أن تعاقب الحملات الصليبية والتصميم وتنوع الأساليب العدوانية، جعل درجة الحساسية نحو هويتنا يزداد كلما برز حدث كان الغرب مادته الأولى.

إن الغرب بما يمثله من «قوة» تفوق قدرة العقول الأخرى على استيعابها جعلها القوة الأولى في العالم والقوة هذه لم تقتصر على الناحية العسكرية فحسب بل أن قوتها المعرفية وتطورها شكلا القوة الأكبر «فالمعرفة قوة» إن امتلاك الغرب لكل الفعاليات القادرة على التأثير جعل المواطن العربي يعي مدى الضعف الذي يعاني منه بدءاً بالضعف السياسي وحتى العقيدة مروراً بالتهلهل الاجتماعي وعدم الوعي بالقدرة الاقتصادية، فمقولة الغرب التي شاعت من هذه الناحية تبدأ من اكتشاف النفط في ديار العروبة على أيدي الغرب فهم يدعون دائماً أننا نعرف أن تحت أقدامنا ثروة أو كنزاً ولكننا لا نعرف قيمتها ولا القدرة على التصرف بها، لذا لا بد من اقتسام هذا الكنز معهم وبالتالي تمت الشركة بين العرب والغرب إن هذه الرواية على البساطة التي تظهر بها لا تظهر مدى التشابك والتنافس والتناحر الذي تطور حتى انغمس به المثقف والسياسي والمواطن العادي وأصبح المادة التي تشكل العمود الفقري للمثقفين، فالنفط وما يمثله من قوة في العالم يبدو الحلقة الضعيفة في العلاقة العربية الغربية فمن النفط بدأت قوة العرب ومن النفط بدأ ضعفهم، وكما كان سلاحهم الذي يتغنون به ويزفونه للعالم تحول لكي يكون ضدهم وسبباً من أسباب انتكاسهم الثقافي والاجتماعي والسياسي أ ن النفط شكل المورد الأساسي للاقتصاد العربي وبه استطاعوا تحسين حياتهم المعيشية والتعليمية وأشاع بذلك المفهوم الاستهلاكي وتحولت أمة العرب الى دول نفطية ودول تعتاش على الدول النفطية. ثم تحولت الأمور بحيث أصبحت دول عربية غنية ودول فقيرة وظهرت دول النفط وكأنها الأميرة صاحبة المال والثورة ومن حولها الحاشية الفقيرة وهؤلاء لا يخفون تذمرهم حيناً وشكواهم وعتبهم حيناً آخر على هذه الأميرة ويتحول التذمر والشكوى الى طمع الأخ بأخيه ومن ثم الى حق فالجزيرة العربية هي أصل العرب التي عرفوا بها وتعرف العالم من خلالها، وظهر المحرومون نفطياً يرويدون الشراكة بدواعي الحق القائمة على التاريخ والدين.

ولا يخفى على أحد ما يمثله هذا العامل من دور في الثقافة العربية إذا أردنا ثقافة عربية وهوية عربية متمايزة عن الآخرين حتى كان الحدث الثاني ألا وهو أزمة الخليج وما مثلت على الساحة العربية من تنافر الأخوة وسخط على التاريخ العربي وبالتالي على الثقافة العربية، أن انقسام العرب الي عربين شكّل جرحاً في المستقبل العربي وبالتالي في الثقافة العربية وان انهيار النظام العربي الهش والتداعيات الأخرى التي عقبت ذلك جعل المثقف العربي يعزو ذلك الى فقدان الديمقراطية والحرية كما أن الشرعية للأنظمة السياسية بدأت مهترئة وبحاجة الى تجديد

غير مستندة الى أية قوة اجتماعية داخلية كما أن القرار داخل هذه الأنظمة ملك للرجل الأول والأوحد وبهذا القول الذي لا يستثني أحداً نعرف مدى العلاقة التي يرتبط بها المثقف بالسلطة الحاكمة فهي علاقة غير طبيعية وإن كانت في بعض الأحيان علاقة المكارم والمغانم والعطايا، التي تخص فئة مقابل فئة بالنظر الى كتاباته، ومدي انسجامها أو توافقها مع النظام الحاكم حتى بدأت الثقافة القطرية الأكثر شمولاً واتساعاً من الثقافة القومية، وبدأت الدويلات العربية تطارد الخارجين عن ثقافة النظام، وأوجد ذلك الهجرات الداخلية للمثقفين ومن ثم الهجرة الخارجية والتي لم يجد المثقف إلاّ الغرب مكاناً ملائماً له فيها فالمناخ الديمقراطي والحرية التي يفتقد لهما العالم العربي شكلا المادة الحية لهؤلاء المثقفين.

إن المثقف العربي بوجه عام يعيش اليوم في عالم مليء بالتحديات الإبداعية التي فرضت وجودها في كل مجال من مجالات حياته وبخاصة في عصر تدفق المعلومات حيث عصفت رياح التغيير العلمي والتكنولوجي المتسارعة والذي انعكس بطبيعة الحال على العالم العربي بشكل عام والمثقف العربي بشكل خاص.

التحديات التي تواجه الثقافة العربية في ظل التحولات العالمية

ويؤكد علماء المستقبل ان انسان الغد في القرن الواحد والعشرين سوف يواجه تغيرات تكنولوجية واختراعات ابداعية أشد سرعة وأكثر غرابة، حيث يصبح استخدام الحاسوب الآلي أكثر أهمية للناس في عصر يزداد انفجار المعلومات سرعة وضرورة، وحيث يغير الحاسوب الآلي مفاهيم كثيرة سائدة في عصرنا الحالي، كمفهوم الوقت ومفهوم العمل وينصح هؤلاء العلماء بإعداد انسان الغد وتثقيفه ثقافة مستقبلية وتطوير قدراته الإبداعية للتكيف مع عالم يتصف بسرعة التغير بهدف تناغم التغيرات مع بنائه النفسي والعقلي. وكما يؤكد تورانس (١٩٦٢) أنه في عالم الانفجار المعرفي والسكاني حيث تزداد سرعة التغير، فإن حقائق الماضي غالباً ما تسيء التوجيه لحل مشكلات الحاضر والمستقبل، مما يستلزم من عالمنا المعاصر أن يبحث عن مداخل جديدة للخبرة، بحيث يصبح للتفكير الإبداعي أهمية اجتماعية في هذا العالم.

ويمكن القول بأن الدول العربية تواجه تحديات ومتغيرات عقدية وثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية فضلاً عن المتغيرات التكنولوجية المتمثلة في التفجر المعرفي ووسائل الاتصال.

ولا بد لنا من أن نعي حقيقة هذه المتغيرات وأن نتعرف الى خطورتها العملية مدركين ما يسود عصرنا من أفكار ونظريات، وما يحكمه من اتجاهات ومخططات، وما يراد بنا ولنا من بقاء حيث نحن، مقلدين لا رواداً، نأخذ ما يعطي لنا، ولا نعطي الانسانية شيئاً من أصالتنا وهويتنا وتراثنا وحضارتنا، في ظل ما يسمى «بالنظام العالمي الجديد».

أ- التحدي العقدي

يمكن تلخيص الأساليب والدوافع التي شجعت دول الغرب والمستعمرين على القيام بهذا التحدي وشن الغزو الفكري على العالم العربي والاسلامي بالجهل بحقيقة الاسلام فمقارنته بمسيحية رجال الكنيسة وباباواتها التي كانت سبباً في التأخر والانحطاط ومبعثاً للفوضى والفرقة في أوروبا واضطهاد العلم والعلماء، مما أوجد ردود فعل لدى المثقفين أدت بهم الى رفض الدين المسيحي وبالتالي التهجم على الأديان جميعاً ووصفها بالرجعية والتخلف وعادوا الاسلام أيضاً بدون دراسة أو بحث عن حقيقة الدين الاسلامي وبدون مقارنة واعية بين التعاليم الاسلامية وبين ما يعرضه رجال الكنيسة المسيحية باسم الدين. أما السبب الثاني فهو الخوف من قوة الاسلام والرغبة في الهيمنة على العالم العربي والاسلامي فعندما بدأت بوادر الصحوة الاسلامية، خاف الغرب من قوة هذا التأثير، وأشتد الهجوم على الاسلام والتشكيك في الحضارة الاسلامية وإدخال الوهم والشك في نفوس المسلمين لتسهل الهيمنة على العالم العربي والاسلامي فكرياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً. وبالتالي يمكن نهب ثروات العالم العربي والاسلامي واستغلال خبراته وسد طرق التقدم والرفاهية أمامه وبث أسباب الفرقة في صفوف شعوبه وتشتيت شملهم الأمر الذي يساعد في تحقيق هدف الغرب في الاستيلاء على أراضي العرب

والمسلمين وثرواتهم واتخاذ بلادهم أسواقاً لترويج بضائعهم وشراء الموارد الطبيعية الخام بأبخس الأثمان وهكذا يمكن قتل الصناعة المحلية في كل بلد عربي واسلامي ويبقى فاقد الثقة بنفسه ومستجدياً مقاييس الأخلاق والعقائد من أحضان الغرب، بحيث لا تقوم لأي بلد قائمة ولا تكون له شخصية مستقلة.

ب – التحدي الثقافي (الفكري)

لم يدرك المستشرقون وعلماء الغرب حتى المراجع والموسوعات العلمية عن الأباطيل عن الاسلام وما يتعلق به واتخذوها وسيلة لدس السم في الرسم وقلب الحقائق التاريخية دون مراعاة للأمانة العلمية والحياد الموضوعي. ولكن الشرط الأساسي لكل باحث منصف وعالم محقق أن يتحلى بصفات الاتصاف والإخلاص للحق والبعد عن العصبية وهوى النفس. والسبيل للتغلب على كيد بعض المستشرقين وعلماء الغرب للعقيدة الاسلامية والتخلص من الفخ الظاهر بزي البحث العلمي فهو التخلي عن الشعور بالنقص والضعف وعدم الثقة بأنفسنا إزاء الباحثين الغربيين وإكبار أعمالهم دون فحص نظر، والتحلي بشعور الاستقلال الفكري وقيمة الحضارة العربية والاسلامية ومعرفة ما عندنا كعقيدة وتشريع و تاريخ وعلوم وثقافات من المصادر الاسلامية الأصلية من القرآن والسنة وكتب علمائنا وعلينا أن نتذكر أيضاً أن الثقافة الغربية إذا لم تستطع هداية الشباب في بلاد الغرب وحملهم على الصلاح بل دفعت بمئات الملايين الى الانحلال وفوضى الجنس فإن من المقرر أن هذه الثقافة لن تثمر غير الفساد الذي يجب أن نحمي منه أمة العرب والمسلمين بثقافة أخرى صالحة وقويمة.

جـ– التحدي الاجتماعي

يدعو العصر الحديث الى مراجعة القيم وتعديلها وذلك بسبب التغير الهائل في الاكتشافات العلمية، وحركة التحديث التي تشهدها دول العالم، وعلى الأخص الدول العربية ومعظم المجتمعات العربية تمر بمرحلة انتقال من مجتمعات رعوية بدوية الى مجتمعات حضرية أصبحت لها نظمها الاجتماعية الجديدة. ولما كانت العقيدة الاسلامية تغرس في العقول مبادئ الفضيلة والقيم الرفيعة وتبني جداراً من الخير يدفع عن هذه الأمة سيلاً عارماً من الحضارة المستوردة وتحيطه بسياج من المبادئ يحميه من الدعوات الهدامة التي تفتك بالعقول وتعطل نوازع الخير في الانسان، فإن التحديات المعاصرة أوجدت هوة بين المثاليات العليا وبين ما يمارسه الناس، فإنه لا بد للمجتمع الذي يريد أن يحقق التقدم من أن يزاوج بين الدين والدنيا وأن يهتم اهتماماً حقيقياً بالجانب العقدي في بناء البشر.

د– التحدي التكنولوجي (تدفق المعلومات)

إن تدفق المعلومات لا يقف عند الحدود السياسية في عصر أصبحت فيه أجهزة الاتصال في حواردائم لا يعرف الحدود ولا المسافات، وأصبح العالم كله عند أطراف أصابع الملايين وأمام أعينهم على شاشات التلفزيون والكمبيوتر والتلكس والفاكس وغيرها الكثير مما سيشهده العالم في هذا العقد الأخير من القرن العشرين، فماذا نصنع ونحن بدأنا نعيش الآن في عالم يتحول الى قرية. أننا الآن بحاجة الى (خرائط حضارية) لكي نستطيع مواصلة مسيرنا ونضيف الجديد ونحذف ما جرفته تيارات الحياة، فنحن مع كل هذا لا بد لنا أن نشق طريقنا حتى لو ارتفعت الأمواج، ولكن السؤال يبقى كيف؟

وسوف أجتهد واسمحوا لي بذلك لأننا ننظر الى المستقبل وأيدينا على قلوبنا ترتجف خوفاً وهلعاً من هذا «الغول» القادم علينا من الغرب فبعد أن كان الغرب أمل القلوب وشفاءها أصبح داءاً يدمي قلوبنا، فحكايات «الغولة» التي نحكيها لأطفالنا «قادمة» وأصبحت تحكى لنا نحن الكبار.

إن الانفتاح الاعلامي من خلال وسائل الاتصالات السريعة والآنية سيعبر الحدود دون قيود للوسائل المضامين كما أنه لا يعترف بوسائل الرقابة التقليدية وسوف يكون الفرد والمجتمع هما أدوات الرقابة الفعالة في استقبال محتويات الرسائل الاعلامية والثقافية بمدى وعيهما وشخصيتهما القادرة على الاختيار، وأن تحصين الهوية العربية والاسلامية بالإمكانيات التي تحفظها من المسخ والذوبان إضافة الى الأصالة الثقافية سوف يكونون القلعة الأولى التي تحمي العقول

والصدور.

وسوف يساهم البحث العلمي والذي يرتبط ارتباطاً مباشراً بالثقافة في التعليم والتدريب المستمر على المواكبة وبالتالي على الإبداع.

هـ- تحدي الديمقراطيات

إن رياح التغيير التي أخذت تهب على العالم بعامة والعالم العربي بخاصة، هي رياح دائمة وليست موسمية، هذه الرياح التي سوف تنحني أمامها الرؤوس فهي الرياح التي أجتثت «الشيوعية» ثاني نظام عالمي والتي تلازم نشوءها مع نشوء الدويلات العربية فخارطة العالم السياسية تشكلت بعد الحرب العالمية الأولى وهذه الخارطة أصبحت تتغير لا بفعل الحروب ولكن بفعل ظواهر التجديد الاجتماعي وخاصة تلك التي تستدعيها مطالب الحرية وتحت ضغط المطالب الفردية، فمبدأ تقيد الفرد وربطه بنظام معين أو ما يطلق عليه (نظام المسطرة) أو (المشي على العجين) بدأ ينكمش ويتلاشى «والتوجيه السياسي» «وعبادة الفرد» وربط القاعدة مع توجيهات السلطة السياسية» «وحكم الفرد» وما تبذله هذه الدول من الأموال ومن توظيف المستشارين لتثبيت هذا الحكم أو ذلك وضمان حكم العائلات أصبح بقاؤه مرهوناً بمقدار ما يمنحه من حريته المنطلقة للأفراد ذوي الحريات المقيدة، وأصبحت القوانين والأحكام الوضعية أو المستمدة من تعاليم الدين لإعطاء نفسها الشرعية والإجراءات التي تتبعها هذه الأنظمة سواء كانت التقليدية المعروفة بالرقابة أو العزل والإبعاد والتهميش نعطي مجالاً أوسع وأرحب للصراع المختفي في ثنايا هذه المجتمعات والرأي العام الكامن بدا عاماً موحداً لفئات المجتمع وحتى الفئات الموالية أخذت لا تقوى على الصمود أمام سيل الانتقادات الموجهة لهذه الأنظمة.

فبعض الأنظمة ومنها أنظمة الدول الشرقية أدخلت الرياح على نفسها وتحملت نتائجها، أما بقية الأنظمة فما زالت تنتظر واقفة في مكانها تتجرع هزيمتها المنتظرة وهي إما تنقصها الشجاعة أو متوهمة في قوتها أو رابطة وجودها للظروف ولكن كل هذه الحالات تفترض في أصحابها التغيير.

فرياح التغيير عندما هبت على الاتحاد السوفياتي وما اطلق عليه (البروستريكا) أو إعادة البناء لم تكن كما يدعي البعض «اصلاحات» بل كانت قلباً للأوضاع، وحال روسيا الآن يذكرنا بحال دولة الخلافة العثمانية عندما هبت عليها رياح التغيير وسميت برجل الشرق المريض، فالآن ونحن واثقون نطلق على الاتحاد السوفييتي «رجل الغرب المريض» مما يجعل العالم بيد قوة الولايات المتحدة «السوبرمان». قد يبدو هذا الكلام مفرحاً لبعض الأنظمة التي وضعت رؤوسها تحت سقف البيت الأمريكي. ولكنني أقول أن البيت الأمريكي (بيت راعي البقر) تربى على سياسة «دانكشوت» أو السياسة الدنكشوتية وهي سياسة البحث عن الأعداء، وقارئ المستقبل يقول لنا أن «راعي البقر» سوف يجد بالإسلام ضالته المنشودة، وبالتالي سوف تتحرك ردة فعل المسلمين فالعربي يحمل في وجدانه راية الاسلام وبالتالي فالأنظمة المرتبطة بأمريكا سوف تكون الجسر الذي يمر فوقه هذا العداء. إذا لم نعترف منذ الآن أن عقد التسعينات وأوائل القرن الحادي والعشرين هو «مهد الحرية» فعلينا نحن المثقفون يقع العبء الأكبر لوضع الكوابح «لعربة الحرية» القادمة ولن نجد ضالتنا المنشودة إلاّ بتنشئة أجيال المستقبل كي يكونوا عاملاً للتخفيض من حدة «التوتر» وانقاص الضغط الذي بدا يعتري مجتمعنا العربي، وقبله الصراع العربي الاسرائيلي والصراع العربي العربي والصراع داخل الاقليم الواحد، فكل بلد عربي مثقل ببذور الفتن سواء أكانت عرقية أم دينية أم طائفية أم عنصرية وهذه تمثل قنابل موقوته موجودة داخل البلاد العربية بلا استثناء فهل الأنظمة قادرة لوحدها على الوقوف أمام كل هذا.

إن النيران قد بدأت تقوى وهذا يؤرقني كما يؤرق الكثيرين من المنشغلين بمستقبل هذه الأمة للدخول في حوزة القرن الحادي والعشرين دخولاً مدروساً له، فالعالم الغربي والشرقي استعدا بالدراسات والتوقعات وقاما بالتغييرات اللازمة، ولا يبدو، على العالم العربي استعداده لخطورة ما هو قادم، فلم نسمع عن أي اهتمام منظم للترتيبات، أو أية اجراءات لمواجهة تحدي التحولات الديمقراطية والرياح ما زالت تهزها هزاً شديداً، فهل ننتظر حتى تتحول هذه الرياح اعصاراً؟

مستقبل الثقافة العربية في ظل النظام الدولي الجديد:

للوقوف على دلالة كلمة «ثقافة» من الناحية اللغوية، أورد «لسان العرب» وهو أشهر معجم عربي تراثي، الفعل الذي اشتقت منه كلمة «ثقافة» وهو الفعل «ثَقِفَ» وينص على أن هذا الفعل يستعمل متعدياً، فيقال ثقف الشئ ثقفاً وثقوفة، أي حذقه، ورجل ثَقِفْ أي حاذق فهم، ويورد من معاني الثقافة سرعة التعلم وقد يأتي الفعل لازماً فيقال ثقف الرجل ثقافته، أي صار حاذقاً، أما معجم اكسفورد الانجليزي فإنه يعرف الثقافة (Culture) بأنها «تهذيب العقل والكلمات والأخلاق وتطويرها، أو الارتقاء بها وصقلها عن طريق التربية والتعليم والتدريب، وهي ترويض العقل والأخلاق وتطويرها وصقلها كما أنها الجانب الفكري للحضارة أو المدنية»، ويعرف المثقف بأنه الانسان الذي ارتقى به التعليم والترويض، ويصفه بأنه انسان مصقول يتسم بالثقافة العقلية.

ونجد في كتابات الباحثين عشرات التعريفات التي تناولت مفهوم الثقافة، وعلى الرغم من كثرة التعريفات وتنوعها في التاريخ السياسي والحضاري، إلاّ أنها لم تتصف بالدقة والشمول من جهة والسهولة والشيوع من جهة أخرى. ولذلك تختلط بمفهوم الثقافة مفاهيم كثيرة وثيقة الصلة به، ومنها: التراث والإنبعاث والأصالة والحضارة وغيرها، الأمر الذي يوجب تحديد مفهوم كل واحد منها لمعرفة مدى علاقته بالثقافة.

ولقد عرف البعض الثقافة بأنها أنماط ناشئة عن تطور تاريخي من جهة وبأنها مجموعة من العادات تكون مقبولة في جماعة معينة من جهة أخرى، ويمكن رؤية آثارها في كل دوائر النشاط الإنساني.

أما تايلر (Tylor) فيعرف الثقافة أو الحضارة بأنها عملية معقدة تشتمل على معرفة الاعتقاد، الفن، الاخلاق، الأعراق والإمكانات الأخرى والعادات التي يتطلبها الانسان باعتباره عضواً في المجتمع. وعرفها «ايتيان فيريرش» (Etienne Ve-reersch) بأنها هي التي تميز الانسان عن الحيوان وقد ورد في دراسات اليونسكو «أن الثقافة مجموعة من المتطلبات الفردية أو مجموعة من الخبرات المحددة في الزمان والمكان، وهي عبارة عن الحصيلة الكلية المتشابهة الفهم والمتداخلة مع ماضينا والتي أصبحت عنصراً في حاضرنا والتي تتصارع أو تتعاضد مع ادراكنا الحالي في العالم الخارجي.

أما الثقافة بمعناها الضيق فهي مجموعة من القيم والمفاهيم التي هي نتاج عقول الأفراد والمجتمعات في فترة زمنية معينة. فنقول مثلاً: الثقافة العربية الاسلامية في عصر الدولة العباسية. فالثقافة هي مجموعة معارف الانسان في الماضي والحاضر في علاقته بالحياة وتأثيره فيها ومعرفته لذاته، ولا نستطيع القول بأن الثقافة مرادفة للحضارة كما يذهب البعض، ذلك لأن الحضارة مظهر من مظاهر الثقافة وليست مرادفة لها. فالثقافة هي مجموعة معارف الانسان في ماضيه وحاضره، في علاقته بالحياة وتأثيره فيها ومعرفته لذاتها، وهي قيم ومفاهيم ذات طبيعة وجدانية وسلوكية يبلورها الانسان بشكل علمي أو سلوك علمي. وأفضل أنواع الثقافة هي مجموعة معارف الانسان في ماضيه وحاضره، في علاقته بالحياة وتأثيره فيها ومعرفته لذاتها، وأفضل أنواع الثقافة هي التي تظهر نتيجة للتمازج بين القيم الأصلية والقيم المكتسبة، وتؤدي الى إظهار ثقافة جديدة تتميز بطابع خاص بمجموعة أو مجتمع معين. وقد أثرت بعض ثقافات الأمم القديمة المتحضرة في الثقافة العربية الاسلامية الأصيلة وتفاعلت معها على ضوء خبرات العرب الحسية، وتأملاتهم العقلية، فتميزت مباحثهم بالإعتماد على البحث الحسي الى جانب الفحص النظري: فالثقافة الاسلامية تدفع الفرد الى الجمع بين النقل والعقل على أساس التوفيق المنطقي السليم.

أما التراث فيعني كل ما هو موروث في المجتمع عن الأجيال السابقة من عادات وتقاليد وآداب وتعابير مكتوبة أو شفوية. وتعرف الحضارة بأنها نتاج المجهودات التي يخلفها شعب معين من الشعوب وتتصف بطابع خاص يتميز عن الحضارات الأخرى. وأفضل الحضارات هي التي تمزج بين حضارتها وحضارات الشعوب الأخرى عن طريق الاختيار الواعي لجميع عناصر الحضارة المكتسبة مثل العمارة في الأبنية والزخرفة وفي شتى الصناعات، ويعني الانبعاث استعادة أمة معينة مركزاً

سابقاً متميزاً احتلته بين الأمم مثلما استعادت الأمة العربية مركزها القيادي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، حيث بلغت أوج عظمتها ومركزها المتميز الأدبي والعلمي والفلسفي وكانت مكتوبة باللغة العربية. أما الأصالة فتعني الربط بين الماضي والحاضر والتوصل الى صيغة جديدة متميزة للثقافة، عند ذلك تكون الثقافة الجديدة مشابهة للثقافة القديمة من جوانب متعددة ولكنها بالضرورة تكون مختلفة عنها في المضمون، وتكون بمستوى الثقافة المعاصرة أي تجمع بين الخصوصية والإبداع.

إن الظروف المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمر بها الأمة العربية، ،والانحطاط السياسي والثقافي والتمزق، الذي تواجهه، جعلها فريسة للأطماع الاستعمارية والصهيونية عن طريق احتلال اراضيها وخلق الفتن الطائفية البغيضة وتعميق النظرة الاقليمية، وكل ذلك ادى الى عجزنا وشل قدرتنا عن المقاومة حتى عن ذاتنا، وهذا ما دعانا الى السعي للمحافظة على البقية الباقية من ثقافتنا، فحاولنا تقليد الحضارات والثقافات الغربية دون بصيرة.

وبناء على ما تقدم يتعين علينا أن نبتعد عن التبعية وننطلق الى الأمام فنرسم صورة الغد المشرق على كافة المستويات، وبخاصة المستوى الثقافي، ونتجاوز كل الصعاب، ونمزج بين ثقافتنا العربية الاسلامية، والثقافات العالمية لتخرج بثقافة مميزة لها خصائصها ومميزاتها الأصلية.

المؤثرات الثقافية وطرق معالجتها:

إن دخول أفكار ومفاهيم وقيم جديدة الى الثقافة العربية قد يؤدي الى حصول ردة فعل عنيفة ضدها، فتؤثر على تطور المجتمع ووحدة الجماعة واستقرارها، وتؤدي الى اظهار عجز الجماعة في كثير من الأحيان فتزعزع قدرتها في الحفاظ على استقلالها الثقافي، وبالتالي تؤثر على مستقبلها الثقافي، وتشكك بالمفاهيم والقيم العربية التي تسود الجماعة، وتؤدي الى انهيار القاعدة المشتركة التي توحد الجماعة العربية وتوحد ثقافتها. ويتم معالجة هذه الحالة عن طريق وضع استراتيجية عربية سليمة تضع في اعتبارها المرحلة التاريخية التي تمر بها أمتنا العربية في العصر الحاضر وما تواجه من تحديات تتمثل في التخلف والاستعمار والصهيونية. فيتعين مواجهة هذه التحديات عن طريق اللحاق بالثورة العلمية التقنية. وتحديث الفعل البشري والتنسيق بين العلم والقيم الانسانية التي قامت عليها أصول عقيدتنا وثقافتنا، وإجراء تمازج بين العلم والثقافة للتوصل الى ثقافة عربية أصيلة. وهذا يتطلب من جانب آخر جهوداً قومية مشتركة تقوم على أساس الروابط التي تربط الوطن العربي بعضه ببعض. فاللغة الواحدة وروابط العقيدة والثقافة العربية السائدة والتاريخ المشترك هذه المقومات قادرة على ارساء مفاهيم وقيم عربية متميزة على أساس اعمال العقل بدلاً من النقل الحرفي، واستخدام العقل والإخاء العربي بدلاً من الاستغلال والبدء بالعمل بدلاً من الكسل والانطلاق بدلاً من الاستسلام.

الربط بين السياسة الثقافية واستراتيجيتها والسلطة السياسية التي تقوم بتطبيقها وفقاً لمصالح المجتمع العربي، ذلك لأن القرار السياسي لا يصدر إلاّ عن سلطة قادرة على بسط نفوذها على الوطن العربي. وتتم معالجة هذه الحالة عن طريق وجود سلطة سياسية واثقة من نفسها وشرعيتها وتحافظ على استقلالها دون تدخل، وتضع في اعتبارها برنامجاً ثقافياً يحدد الأولويات والاستراتيجيات الضرورية لتحقيق أجواء تسمح بالتطور.

ثم إن الاختلاف الواضح بين ثقافة النخبة من المثقفين التي استقت ثقافتها غالباً، من مصادر أجنبية وبين ثقافة الجماهير العربية، وهي ثقافة عربية، يؤدي الى إيجاد هوة وتمايز اجتماعي في التاريخ. وغالباً ما تسيطر النخبة وترسخ نفوذها على الثانية فيفقد المجتمع الطابع الديمقراطي. واحتكار وسائل الثقافة وتوجيهها وفق رأي النخبة يؤدي الى تمسك النخبة باللغات الأجنبية في غالب الأحيان، واعتبار اللغة العربية لغة هامشية، وأن معالجة هذه الحالة تتطلب اعتماد اللغة العربية لغة أساسية، ولكن هذا لا يعني الدعوة الى اغفال الاستفادة من اللغات الأجنبية وتعريب ثقافتها، لأن التعريب يؤدي الى الانعتاق الحضاري، ويكون عملاً جماعياً وفق خطة محكمة متعددة الاختصاصات يضعها المثقفون والمفكرون العرب. وهنا لا بد من أن نعرف بهؤلاء المثقفين.

يعرف ماكس فيبر (Max Feber) المثقفين بأنهم مجموعة من

الأفراد الذين تمكنهم قدراتهم ومواهبهم الخاصة من النفاذ الى منجزات ذات قيمة ثقافية.

وبالمقابل يقدم روبرت ميشيل (Robert Micheal) تعريفاً أكثر تفصيلاً فيقول:

إنهم الذين يملكون المعرفة الموضوعية ولهم تأملاتهم الذاتية في الحكم على الواقع دون أن يستمدوا ذلك بالضرورة من خبراتهم الحسية، ويختصر بارسونز (Parsononz) فيقول أنهم أولئك الذين يختصون في أمور الثقافة. وعلى الصعيد الاسلامي يعرفهم جمال الدين الأفغاني فيقول: أنهم أولئك المتعلمون الذين يتمتعون بالروح الفلسفية النقدية ويستخدمونها في مراجعة ماضيهم والتأمل في حاضرهم لكي يفسروا النبل الانساني ويضيئوا الطريق لأبناء أمتهم ويرشدوهم سواء السبيل. ومن وجهة نظر سعد الدين ابراهيم: فإنهم يتميزون بالمعرفة العامة، مع الاهتمام بالمسائل التي تهم مجتمعهم ويعبرون عنها، ويعتقد محمد الدقس أن المثقفين هم أهل الفكر الذين يمارسون نشاطات فكرية من إبداع ونشر وتعبير مبنية على الفهم والوعي والعمل.

وهناك من يعرف المثقف بأنه الشخص المنشغل بشؤون الثقافة المعنوية بحيث تتوافر لديه المعلومات والمفاهيم النظرية والقدرة على التعامل مع الأفكار المجردة عن الشؤون العامة المكونة لثقافة المجتمع، أي أن المثقف هو الذي يتعامل بالأفكار المجردة ولكنه ليس بالضرورة رجل فعل وليس بالضرورة أيضاً أن يتولى القيادة الفكرية في أحد المجالات، وليس بالضرورة أن يكون المثقفون على درجة واحدة من الإبداع والوعي.. لذا فإن المثقف العربي: هو الذي يساهم أو يشارك في حقول الفكر في مجال من مجالات الثقافة في خدمة مجتمعه العربي ابداعاً أو شرحاً أو تفسيراً أو عملاً، عن طريق الوعي الكافي لهذا العمل.

أما النظام الدولي الجديد فهو أمريكي يقوم على مبدأ الاحتكار من جانب الولايات المتحدة لجميع أسباب التفوق العسكري والثقافي والعلمي مما يفتح لها أسباب السيادة السياسية، وهذا يعني أن أي قرار كبير لا بد أن يكون أمريكي الانشاء أو التصديق أو التزكية، أما المبدأ الثاني الذي تؤمن به الولايات المتحدة فهو مبدأ الجدارة والاستحقاق، فباعتقاد أمريكا أنها الجديرة بالمنزلة الأولى في قيادة المجتمع المعاصر، ومبدأ ثالث تؤمن به الولايات المتحدة الأمريكية متعلق بالرسالة التبشيرية، فقادتها يؤمنون بأن التبشير رسالتهم وحدهم في العصر الحديث ومسؤوليتهم الكبرى لدى شعوب العالم كافة، ولعل ما جاء في كتاب الحديث ومسؤوليتهم الكبرى لدى شعوب العالم كافة، ولعل ما جاء في كتاب المستشار الأمريكي بريجنسكي «الأيام الألف لكنيدي» الفقرة التي تقول «من حق كل قارة ومن حق كل شعب أن يتقبل من أمريكا ما تقدمه من نصائح وارشادات، ومن واجب أمريكا الوفاء بهذا الالتزام..الخ» هذه هي مبادئ النظام الدولي الجديد الذي تفرضه أمريكا على العالم بأسره وعلى الأمة العربية بشكل خاص.

أما فواعل هذا النظام الجديد، فيقسمها الدكتور عبد المنعم سعيد في كتابه «العرب ومستقبل النظام العالمي» الى ثلاثة أقسام:

– فواعل أساسية، وهي الولايات المتحدة

– فواعل ثانوية، وهي روسيا وبريطانيا والصين الشعبية وألمانيا الغربية واليابان.

– فواعل غير مباشرة، وهي منظمات وشركات متعددة مختلفة الجنسيات.

ويشير الدكتور عبد المنعم سعيد الى محاور أربعة للنظام العالمي الجديد هي:

قضية التسلح، توزيع الموارد العالمية، قضية الطاقة، ومشكلة الغذاء.

يعني النظام العالمي الجديد الحصول المستمر وغير المحدود لموارد الانتاج الخارجية أينما كانت وبالذات «النفط»

– أما تكاليف الحصول على موارد الانتاج الخارجية فتحدد وتقرر وفقاً للتوازن الاقتصادي والمالي والنقدي والاجتماعي الداخلي لبلدان الشمال دون اعتبار لتوازن الاطراف الأخرى، أي لبلدان الجنوب، وبعبارة أخري يتحتم ضمان أسعار نفط خام (٢٠–٢٥ دولار للبرميل الواحد) في تضخم مالي لاقتصاديات بلدان الشمال المصنعة. كما ينبغي ضمان سعر

المال الأجنبي المستثمر (أي الإيداعات البنكية والأسهم والاستثمارات المباشرة) كذلك يتعين ضمان أسواق خارجية واسعة وذات تبادل حر يسوق فيها بأدنى كلفة وبأكبر ربح صادرات دول الشمال تعلق الأمر بالمواد العسكرية والدفاعية أو بالمواد الغذائية أو بالخدمات التكنولوجية المتطورة جداً أو بأبسط الخدمات.

ويعني كذلك أن تتحمل البلدان الغربية - الولايات المتحدة والسوق الأوروبية المشتركة واليابان المزيد من المصاريف من أجل «ليبرالية» بلدان أوروبا الشرقية وذلك بتقديم المساعدات الهامة لها.

تحقيق توازن جغرافي سياسي، أي توازن على مستوى البلدان المتحالفة بواسطة تحديد مناطق نفوذها. وبات واضحاً أن الشمال يفرض «نظامه الجديد» وسياسته الحقيقية» على العالم بأسره، هذه السياسة التي لن تحسب أي حساب لا للأرواح، إذ تعتبر نفسها مسؤولة عن الخسائر البشرية المحدودة أو الهائلة التي قد تسبب فيها، ولا للاقتصاد، إذ لا تعطي أي أهمية لتدمير البنى المنتجة، ولا للحضارة أيضاً، إذ لن تتردد، إن لزم الأمر، في فسخ ذاكرة ومحو ثقافة وحتى تاريخ الشعوب والأمم التي تنازعها.

أما المتغيرات العالمية في ظل هذا النظام الدولي الجديد فهي:

١- عجز البورجوازيات العربية عن التحول الى شريك ثابت له وزنه في التقسيم الدولي للعمل، إذ فشلت جميع انماط التنمية المتبعة وهي نمط احلال الصناعات محل الواردات ونمط الصناعات التصديرية ونمط الليبرالية الاقتصادية، والخضوع الى كل املاءات الامبريالية.

٢- تراجع الاتجاهات السياسية الليبرالية والقومية والاشتراكية وصعود الاتجاهات السياسية الاسلامية في العالم العربي بصفتها مؤشراً على عمق ازمة البوجوازيات العربية الحاكمة.

٣- انتهاء «الحرب الباردة» بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي بعد فشل وتفكك الاشتراكية السوفياتية ومثيلاتها في أوربا الشرقية.

٤- صعود «منظمة التحرير الفلسطينية» بصفتها رد فعل على فشل الأنظمة العربية في ايجاد أي حل للقضية الفلسطينية في الفترة التي فرضت فيها هذه الأنظمة وصايتها على الفلسطينيين.

٥- ازدياد الهوة بين البلدان البترولية وخاصة منها الخليجية والبلدان العربية الأخرى.

٦- ازدياد التوسع الاسرائيلي على حساب السكان الأصليين والبلدان العربية المجاورة وتفاقم مخاطر هذا التوسع منذ بداية تدفق المهاجرين اليهود السوفيات على اسرائيل.

٧- انتصار الاسلام السياسي في ايران ومحاولته التسلل الى المنطقة العربية مع ما أسفرت عنه حرب الثماني سنوات مع العراق (الثورة الاسلامية الايرانية).

٨- بداية انحدار القوة الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية ومحاولتها التعويض عن ذلك باللجوء الى قدرتنا العسكرية خاصة مع بداية صعود قوى امبريالية فنية مثل اليابان وألمانيا الموحدة.

ومنذ بدايات هذا القرن وكل نظام دولي يداهم العرب ويجتاحهم دون أن يحددوا ازاءه موقفهم. فوجود النظام العالمي الجديد يعني وجود نظام آخر قديم فالنظام الدولي الذي داهم العرب عشية الحرب العالمية الأولى ومن بعدها الثانية والذي حمل في ثناياه الحرية والمساواة والعدل والتحرر والسلم للشعوب كافة ولم يجن منه العرب إلاّ المرارة والذل والضغط والقهر النفسي، هذا عدا نهب موارده الاقتصادية وخاصة «النفط».

وقد ساهم الغرب بطريقة مباشرة تارة وغيرمباشرة تارة أخرى بمساعدة المخالب الصهيونية في نهش الجسد العربي مرتين (١٩٥٦، ١٩٦٧) وقد أعقب هذين الحدثين ممارسات كثيرة ضد النهضة العربية ومصادرة حقها في التحرر والتوحد والتحديث وهي أمور ما زلنا نعيشها حتى اليوم، فعمليات السطو والسرقة المنظمة للحقوق العربية وثرواتها ولعل حرب الخليج التي قادتها أمريكا باسم النظام الدولي الجديد مع حليفتها اسرائيل خير شاهد على ذلك فقد عملت على ترسيخ الفرقة والتسيب والتشرذم ما بين الأقطار العربية لتثبيت

القطرية وترسيخها وابعاد الأمة العربية عن أي محاولة للوحدة أو التحرر.

فالنظام الدولي الجديد الذي تبشر به أمريكا حاملة في ثناياه شعارات الحرية والعدل والحق في تقرير المصير، لا يعني بالنسبة للعرب إلاّ تكريس الاقليمية والقطرية وفرض الكيان الصهيوني كأمر واقع وسط الوطن العربي.

إن جسور الثقة بين قيادة النظام الدولي الجديد وبين المثقف العربي، مقطوعة لا بل غير موجودة منذ زمن طويل ويعدو السبب في ذلك الى تراكمات الماضي والمعاناة التي واجهت المثقف العربي من الولايات المتحدة وحليفها الاستراتيجي اسرائيل.

إن الأيدي التي تبشر الآن بالحرية والعدل والمساواة وحق تقرير المصير، هي ذاتها اليد التي سلبت المثقف العربي كل ذلك، وهذا النظام لا يقر المساواة للعرب، بل يتحيز لصالح واضعيه العرب بزعامة أمريكا، فجذور هذا النظام يعي المثقف العربي بداياتها القديمة منذ سنوات، فالعرب هو المجموعة البشرية الوحيدة التي تقاوم سيطرة الغرب وترفضه بحكم تمسكنا بثقافتنا وتاريخنا وبحكم تركيزنا على حريتنا واستقلالنا.

فالمثقف بمضامين فكرة وثقافته ومعرفته لمدى تأثيرها في بيئة ما بحاجة الى الحرية حتى تستطيع الثقافة أن تتنفس وتحدد ملامحها، غير أن الوضع القائم قد لا يترك للثقافة العربية حرية الحركة ويجعلها رهينة محبسين، وضع دولي مفروض، وأنظمة محلية تشكل أمراً واقعاً مرهوناً بالوضع الدولي المفروض، مما يحد بالتالي من حرية الحركة للثقافة العربية ويجعل المساحة الثقافية العربية غير قابلة للاتساع وبالتالي فإن مستقبلها يبقى ضمن الامنيات والطموحات التي تختزنها قلوب المثقفين العرب الحالمين بمستقبل أفضل للثقافة العربية.

إن التراكمات الثقافية وما آلت اليه الثقافة العربية يجعل المستقبل الثقافي الذي نسعى له محكوماً بالحدث العالمي القادر على هز الثقافة من جذورها لكنه ليس بقادر على قلعها، فكل ممارسات الماضي المتمثلة بالتغريب للمجتمع العربي لن تستطيع أن تفرغ الثقافة من محتواها ولن تستطيع أن تمحو الهوية العربية. لهذا فالحاجة تحتم علينا أن نسعى الى تنوير الثقافة وهنا لا بدّ من طرح بعض التساؤلات:

- ما المقصود بتثوير الثقافة، وكيف السبيل الى ذلك؟
- وما هي الوسائل والبدائل والاستراتيجيات المطروحة للوصول الى تلك الثورة؟
- هل هي في اكتشاف الذات الانسانية وإعادة صياغتها من جديد؟
- أم تكون في إعطاء الثقافة الحرية والصدق والتنوع؟
- أم هي في سعينا الى تطوير المعنى ومراجعة صياغاتنا للمعرفة بشتى أنواعها؟
- أو تكون في أحداث تغيير شامل في طبيعة المفردات والمفاهيم الثقافية المختلفة؟

وسؤال أخير: ما دور المثقف العربي إزاء تثوير الثقافة؟

ينبع دور المثقف من الوضع الذي يعيشه مجتمعه. ومن المعروف أن الوضع الحالي الذي يعيشه العالم العربي يظهر في بناء مؤسسات الدولة والاتصال بالعالم الخارجي، وقيام سياسات الاصلاح الزراعي، وثورة النفط، وأزمة الخليج، والهجرة العمالية والعلمية، والهجرات القسرية، والتوسع في انشاء الجامعات، والمؤسسات التعليمية، والإقبال على التعليم في مراحله المختلفة، وانتشار الوعي السياسي والطبقي، وتكون النقابات العمالية والمهنية، كما يتميز باستيراد التكنولوجيا، والمنازعات والخلافات والانقسامات العربية، والاتحادات العربية، والانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة، والهجرة اليهودية، ونسيم الديمقراطية وغيرذلك.

أي أن هناك مظاهر - وقائع - ايجابية كثيرة وهناك وقائع سلبية كثيرة أيضاً، ولا شك أن المثقفين قاموا بأدوار تاريخية وسياسية وأساسية في تشكيل صيرورة المجتمع. غير أن دور المثقفين العرب في الوقت الحاضر ينبغي أن يقوم على معالجة القضايا الكبرى التي تعيق المجتمع العربي عن التقدم ومحاولة حل النزاعات والخلافات العربية، لأن دور المثقف يبقى محصوراً في المساهمة في التقدم. وأن الاهتمامات الأساسية التي يجب أن يؤدي المثقف دوره فيها بكل فاعلية تأتي حالياً في المستويات التالية:

١- التجزئة والفرقة التي يعيشها عالمنا العربي بعد حرب الخليج بخاصة، والتي تعتز بمرور الوقت من خلال الحرص على بناء الدولة القطرية والتمحور وتشكيل التحالفات وتعميق الخلافات والنزاعات.

٢- مسألة الاحتلال الاسرائيلي للأرض العربية وهي مسألة واضحة ومن أهم المشكلات التي يعاني منها العرب اليوم ومستقبلاً.

٣- مسألة التخلف والتبعية: وهي قضية أساسية يعاني منها العالم العربي وتشمل كل دولة قطرية فيه، فاشكالية التخلف والتبعية تظهر بوضوح بكل أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهذه تنعكس على «تأزيم» المثقفين أنفسهم، فأزمة المثقفين التي تظهر في وجود حالات الاغتراب عند بعضهم والهجرة الكثيفة نحو الخارج والصراعات الفكرية القائمة بينهم، هي نتيجة التخلف العام الذي يعيشه مجتمعهم. كما أن مسار مشروعات التنمية الحالية لم يحقق الأهداف المرجوة وربما يعود ذلك الى فقدان بعض أسس التنمية الناجحة وهي التكامل بين الأقطار العربية.

٤- الغزو الثقافي بكل أبعاده المادية والفكرية الذي يتعرض له العالم العربي نتيجة الفراغ الثقافي.

والسؤال المهم: هي يستطيع المثقفون العرب القيام بدورهم في العمل على رأب الصدع وتقدم المجتمع بوجه عام.

الجواب: نعم، ولكن وفق شروط محدودة، من أهمها:

١- احداث تغييرات جوهرية في المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية وتهيئة الظروف الملائمة لعمل المثقفين، وذلك بمشاركة المثقفين جميعهم.

٢- تجسير الفجوة بين المثقفين والجهاز السياسي، وبين المثقفين وبقية أفراد المجتمع من خلال العمل المتواصل من قبل هؤلاء المثقفين.

٣- توفير المناخ الديمقراطي من أجل حرية التعبير والنشر، وأن يتم ذلك كله وفق رؤية اجتماعية واعية تتحمل المسؤولية بصدق وأمانة بمشاركة المثقفين وصانعي القرارات السياسية في المجتمع العربي.

إن وظيفة المفكرين العرب والحركات السياسية يجب أن تتأطر بضرورة تجديد الفكر العربي (مفهوماً وممارسة) ولا مفر من أن يكون ذلك من خلال الديقراطية والتنظير لها في اطار غايات المجتمع العربي، وتأسيس فكرة «الإمكان العربي» الذي أفرزته الأزمة الحالية في ذهن الجيل العربي، والذي عملت نماذج التنمية والممارسات الثقافية لفترة طويلة على تهميشه وتغريبه واغراقه في الذاتية، ولن تأتي قضية الديمقراطية هنا على مستوى طبقي، قطري، وإنما على مستوى مجتمعي وقومي، بل، ولا نعني كذلك الاكتفاء بالتبشير بالديمقراطية بل بممارستها سلوكاً وفي حدود اقترانها بالإطار الأخلاقي والمادي والتحرري، وليس ضمن حدود ما هو قائم، وبمعنى من يحكم لا يظلم، بل من خلال التأثير في نموذجه، وإلاّ فلن تتغير أمة العرب.

مقترحات وتصور مستقبلي لتفعيل الثقافة العربية:

ظلت الثقافة العربية، اضافة الى خصائصها الذاتية، ثقافة انسانية شاملة، لا بتراثها الاسلامي وحسب، ولكن بما تمثله وبما تجاوزته من عناصر الحضارات الأخرى، وبلغتها العربية التي ظلت لغة العالم الأولى فكراً وعلماً وحضارة طوال قرون عدة. وهذا البعد العالمي للثقافة العربية كان أحد سماتها البارزة بالرغم مما واجهته من تحديات وخلافات ونزاعات ومحاولات لطمس هويتها وأصالتها وفيما يلي بعض المقترحات لتصور مستقبلي لتفعيل الثقافة العربية:

١- الارتقاء بالتعاون الثقافي العربي الى مستوى التنسيق والتكامل عن طريق التطبيق الكامل للخطة الشاملة للثقافة العربية.

٢- دعوة الدول العربية ومنظمات جامعة الدول العربية المتخصصة لدعم مشروعات تنمية اللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية في البلاد العربية ذات الأوضاع الثقافية الخاصة.

٣- تشجيع المؤسسات الثقافية القطرية، الحكومية وغير الحكومية على اقامة صلات فيما بينهما، وتمكينها من وسائل تنفيذ برامج التعاون الثقافي المشترك التي تهمها ووضع التشريعات التي تساعد على تذليل الصعوبات وتعيق التبادل الثقافي.

٤- دعوة الدول والمنظمات العربية الى التوسع في تنظيم اللقاءات بمختلف أنواعها داخل الوطن العربي من مهرجانات وأسابيع ثقافية ومعارض وأسابيع سينمائية ومؤتمرات وندوات وما الى ذلك تشارك فيها الهيئات والاتحادات والأفراد العاملون في الميادين الثقافية، وإقامة المؤسسات الثقافية القومية التي تخدم الثقافة العربية في أبعادها القومية، والإفادة من القمر الصناعي العربي في نشر الانتاج الثقافي العربي.

٥- دعوة الدول والمنظمات العربية الى وضع الخطط التنفيذية لتيسير انتقال الانتاج الثقافي بىن أقطار الوطن العربي وتنفيذ مشروعات ثقافية مشتركة.

٦- دعوة الدول والمنظمات العربية الى إقامة الصناعات الثقافية بتمويل عربي مشترك، وتقديم الدعم المادي والمعنوي المناسب الى الاتحادات والتنظيمات العربية الحكومية وغير الحكومية العاملة في مختلف الميادين الثقافية.

خاتمة

يرتهن مستقبل الثقافة العربية بقدرة المثقفين على مجاراة التحولات العالمية، ويكون ذلك بقدرتهم على الإبداع. لأن الثقافة العربية متخمة بعوامل اجترار الماضي والاغتراب الثقافي.

وأن محاولات التزاوج بينهما لم تأت بعد بالمطلوب على الساحة الثقافية فلا العودة للماضي قادرة على مواجهة مستجدات الحاضر، ولا نقل نماذج من الثقافات الأخرى قادر على استيعاب شخصية الأمة العربية، وكلاهما يشكلان أزمة الثقافة العربية.

إن التطور الذي تشهده الساحة العربية يحتاج ابداعاً ثقافياً وحتى يكون هذا الإبداع، فلا بد من وجود «جو» يشحن هذا الإبداع ويدفعه. فالجو المخيّم على العالم العربي يحد من مساحة تحرك المثقف العربي ابتداءاً من الحواجز التي استطاعت الأنظمة العربية تغليف الثقافة بها من خلال ممارستها وانتهاءاً بثقل التحولات العالمية والتي تزيد من القهر والاختناق للمثقف العربي.

إن سلبية النظام الدولي الجديد تجاه العرب وحقوقهم تزيد الطين بلة في أزمة الثقافة وعدم قدرة ادراك المثقف للنظام المفروض عليه واقعاً.

يتعرض المجتمع العربي للغزو بحشود ضخمة من الكتب والمجلات والصحف والأعمال التلفازية والسينمائية مما يعزز الغزو الثقافي والاغتراب الثقافي والاستلاب والتهميش لدى الفرد العربي.

فالثقافة والثقافة المضادة القادرة على جمع ثقافات الأمم الأخرى الى جانب الثقافة العربية الوثيقة الصلة بالتراث هي التي نسعى اليها حتى يدرك العالم كله أن للعرب ثقافتهم وهويتهم ولن يتجاهلوا بعد ذلك عطاء الثقافة العربية.

إن العمل الثقافي أولاً وأخيراً يعني التوعية والتوعية تعني التحرر، ولقد حان الوقت لكي يتحمل القائمون على الثقافة مسؤوليتهم تجاه التحولات العالمية. وأن يتبلور علمهم الى خطة تقوم على «وحدوية العمل الثقافي العربي»، وأن ندفع بهذه الوحدة الى الأمام فيصبح بذلك النشاط الثقافي حيثما وجد في الساحة العربية. نشاطاً تكاملياً، وأن تفعيل هذا النشاط ليس بالأمر الصعب إذا كان الهم واحداً والغاية التي نسعى اليها واحدة، ولكن لا بد من وجود الايمان الى جانب العمل.

أي دور للمؤرخ في الثقافة العربية؟
مقاربة نقدية

الاستاذ د. محمد سعيد
قسم التاريخ – كليّة الآداب – سوسة
الجمهورية التونسيّة

من البديهي أن التساؤل عن دور المؤرخ العربي يحيل الى دور أعم هو دور المثقف باعتباره وعياً متقدماً، ويحيل الى جدلية هذا الدور: الانتماء الى ثقافة ما ثم ضرورة التأثير فيها. كان عبدالله العروي[1] رصد منذ عشرين عاماً ما سماه أزمة المثقفين العرب واستقرت الآن نتائج بعض المقاربات المستفيدة من أدوات التحليل الاجتماعي الثقافي: لئن كان دور الفقيه كمثقف عضوي مجسماً لنظام ثقافي ومحققاً لتعديلاته اللازمة على ضوء الحاجة الاجتماعية قد تأزم بصورة موازية لضغط الحداثة العلمية فإن مثقف اليوم هو وريثه وعليه أن يبتدع لنفسه طريقاً ودوراً رغم ضيق وضعه التاريخي الواقع بين كتلة ثقافية لم تخضع لنقد الفكر الحديث، وبين متطلبات الحداثة العلمية وكونية المعرفة. وبين حياته في مجتمعات لا تعبّر دائماً وبطريقة واضحة عن حاجتها اليه[2].

من هذا الوضع التاريخي الخاص تولدت التساؤلات الرئيسية التي شغلت المثقفين العرب خلال العشريتين الأخيرتين. ليس من الصدفة أن تتوزع هذه التساؤلات على زوايا المثلث: التراث – المجتمع – الحداثة. فجل مواضيع الكتابات والندوات التي عقدت تفرعت عن هذه الثلاثية وهي محاولات لتوسع مجال حركة المثقف وترسيخ دوره في ترويج حداثة فكرية عليها يتوقف نمو المجتمع: علمياً وسياسياً واجتماعياً. لا يتسع المجال لإثارة كلّ هذه القضايا واستعراض الجدل الجاري حولها. سوف نتسائل عن دور المؤرخ – أو دوره الممكن – محتفظين بهذه الأبعاد باعتبارها أبعاداً موضوعيّة متحكمة في العمل الفكري – الثقافي مهما اختلفت وجهات النظر. لعّل في هذا المقال ما يساهم في كسر الحواجز بين باحث في التاريخ وبين «مفكّر» في شؤون الثقافة والمجتمع.

الإشكاليات المطروحة منذ ما يزيد عن قرن فيها ترويج دائم لوزن الماضي في الحاضر. الحجّة على ذلك أن مواد الثقافة العربيّة ومركز ثقلها يوجد في القرون الأربعة الأولى من دولة العرب والإسلام. والحجّة أيضاً أن العصور الحديثة شهدت تناغماً في الأفكار، يذكرّ من جديد بأهميّة الأعماق الثقافيّة الخ...

معارف «المؤرخ» ووعيه يقعان في نقطة تقاطع كلّ هذه الخطوط، لأنّه ينتمي لهذه الثقافة ولكنّه يحترف دراسة التاريخ والتراث ثمّ أنّه ينتمي – مبدئياً على الأقّل – لدائرة الحداثة العلميّة وما تمليه عليه من شروط للفهم أصبحت اليوم، في حقل العلوم التاريخيّة تتوق الى العلميّة.

إذا ما نظرنا لدور المؤرخ بطريقة مجردة يبدو أن كلّ العوامل تؤهل لدور كبير، بما أنّه الواسطة بين زوايا المثلث الثلاث ولعلّه المثقف الوحيد الذي يحتل هذا الموقع. لكن الأوضاع أكثر تعقيداً من هذا. ولا يمكن التقدم «بخطى ثابتة». لهذا التعقيد أسباب عمليّة وهي الأبسط: وجوب الإلمام بكلّ ما ينشر من أدبيات تاريخية في كل أرجاء البلاد العربية الشيء الذي يحول دونه ثراء واتّساع التاريخ العربي الاسلامي، ثم المرونة النسبيّة لحقل التاريخ وتفرعه الى اختصاصات متعددّة... من هذه الأسباب ما هو أعقد لأن التاريخ ليس حقلاً عادياً من حقول المعرفة بل له امتدادات واسعة لكل أوجه الممارسة الثقافية والفكرية.

لعلّ في متابعتنا – النسبيّة دائماً – لما ينشر في حقل التاريخ العربي القديم (التاريخ الوسيط) وكون هذا العصر هو مركز الثقل الثقافي التاريخي ومتابعتنا لملامح البحث التاريخي العربي ما يسمح لنا ببلورة بعض الملاحظات النقديّة لا في اتّجاه تقييم لما ينشر وإنّما في اتّجاه آخر، هو موضوع هذا المقال، أي الدور أو الدور الممكن للدراسات التاريخيّة والفكر التاريخي في الثقافة. غايتنا من هذا دفع النقاش في اتجاه يزيد من الدور

الثقافي للمعرفة التاريخيّة. بعد هذه الملاحظات سنحاول التطرق لانبثاق المؤرخ الحديث وموقعه في الثقافة ثم الى كتابة «الموضوع التاريخي العربي» إلى أن نصل في النهاية إلى فحص دور المؤرخ وتقييمه أحياناً وبيان الأوجه الممكنة للتطور...إن التطرق لهذا الموضوع بأبعاده المختلفة يجعله في مفترق طرق كلّ المسائل والمشاكل. «على أنّا – كما قال المسعودي – نعتذر من تقصير إن كان، ونتنصّل من إغفال إن عرض. لما قد شاب خواطرنا، وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار».

ملاحظات تمهيدية

إن نظرة تقييمية يلقيها الباحث على الدراسات التاريخيّة في البلاد العربيّة سواء من حيث الإنجاز أو التشكل المنهجي المستقل أو الأثر الثقافي العام، تسمح في إعتقادنا بإبداء الملاحظات التالية:

١- أن البحث التاريخي رغم تقدمه النسبي في العقود الأخيرة ما زال أقرب الى مرحلة الاستكشاف المعرفي لفترات متباعدة في الزمن، ولمواضيع مختلفة، حيث لا يمكن في الوضع الراهن بناء تصور عام أو رؤيا تاريخية جديدة لمجمل التاريخ العربي. التصور العام ما زالت تحكمه المصادر القديمة أكثر مما يحكمه تصور الدراسات الحديثة. يكفي للتدليل على هذه الإشارة الى أن عدة منعرجات ولحظات حاسمة لم تحظ بما يكفي من الدراسة والتقصي. كما أن هشام جعيط[٣] وفي دراسته للفتنة الكبرى، عبرّ عن استغرابه من أن الفتنة على أهميتها لم تحظ في الأدبيات التاريخية العربية بأي دراسة إذا ما استثنينا دراسة طه حسين[٤] ذات الطابع الأدبي. يمكن لفت الإنتباه الى أن الجاهلية لم تحظ بدراسة شاملة ترقى لتعوض دراسة جواد علي[٥] والى أن التاريخ العباسي والعصور المتأخرة لم تعد تثير فضول الباحثين.

٢- التاريخ، إذا ما اردناه علماً مستقلاً عن العلوم الأخرى أي له ادواته المنهجية المتميزة، مثلما يمارس في مجتمعات أخرى[٦]، لا يجد بسهولة طريقه الى التشكل والبناء، هناك ما يشبه «مشاعية الماضي» تجعل حقل التاريخ مفتوحاً لكل المحاولات، الى حد أنه يصعب التمييز بين الدراسات التراثية/ الحضارية/ الثقافية العامة والدراسات التاريخية التي يلتزم أصحابها بحقوق المقاربة التاريخية. قد يكون هذا طبيعياً، لكن ماذا إذا أصبحت الدراسة الحضارية الثقافية/ التراثية تعوض الدراسة التاريخية؟ لعل في هذا احدى أسباب الأزمة التي نود رسم حدودها.

٣- البحث التاريخي لم يرق في الثقافة العربية لدرجة الإفراز النظري. تشهد المكتبة العربية على ندرة المؤلفات في فلسفة التاريخ ومناهجه[٧] ربما لهذا السبب لم تتبلور في البلاد العربية مدارس تاريخية واضحة المعالم، لكل منها تماسك فلسفي يوحدها. هناك بعض الأسماء اللامعة التي ارتقت بالكتابة التاريخية لهذه الدرجة من التماسك تثبته كتابات الاساتذة عبدالله العروي، هشام جعيط، عبد العزيز الدوري، أحمد صالح العلي.. وغيرهم ، لعلها مؤشرات الى ولادة علم تاريخ عربي.

٤- إذا نحن تساءلنا عن الأثر الثقافي للدراسة التاريخية على مجال الفلسفة والعلوم الاجتماعية، لا نلاحظ تهافتاً كبيراً على استغلال نتائج البحث التاريخي، ولا عودة دقيقة للتاريخ. يكتب محمد عابد الجابدي عن عصر التدوين[٨] ولكن يكتفي بمقال لعائشة عبدالرحمان ولا يستعمل نتائج البحث التاريخي سواء كان عربياً أم أجنبياً. رغم أن بعض الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع نشرت منذ مدة طويلة ومنها ما لقي رواجاً كبيراً، نذكر من ذلك مقالات عبد العزيز الدوري وكتابات فرانز روزنتال، كارل بروكلمان، هاملتين جيب[٩] وغيرهم. نلاحظ أيضاً أن محمد عابد الجابري عندما يتطرق للتحول العباسي الأموي لا يستغل دراسة محمد عبد الحي شعبان عن الثورة العباسية[١٠] ولا دراسة فاروق عمر فوزي في نفس الموضوع[١١] رغم أن هذه الدراسات نشرت قبل سنة ١٩٧٠. كان لهذا النقص أثر سلبي واضح على محاولة الجابري التي افتقرت الى البعد التاريخي المتحكم في الفكر[١٢]

تصدق هذه الملاحظة على كل الساحة الثقافية العربية بصورة عامة ونقصد بذلك تحديداً تلك المجلات ذات الصبغة الفكرية – الثقافية السياسية الرائجة كثيراً في أوساط المثقفين وتلك المحاولات المتطرقة «لاشكاليات التراث والحداثة» تسيطر

على هذه الساحة الثقافية العلوم الاجتماعية والنقد الفلسفي - المعرفي، مما ولد ما يشبه «الثقافة المفهومية» التي تبدو مفتوحة على مكتسبات الفكر الانساني المعاصر. ما يلفت الانتباه أن هذه المحاولات وان استندت غالباً الى التاريخ (بمفهوم الماضي) فإنها لا تحتكم لدراسة المؤرخ بقدر ما تحتكم الى النص التاريخي القديم مباشرة! ودون حرج كبير. غالباً ما تتسم هذه العودة (العودة الى النص) بشيء من الاكتفاء بما تيسر منه الى حد أن محطاتها أصبحت معروفة في عين المؤرخ: ابن خلدون مثلاً.(١٢) مكرر

من التواريخ الى الدراسات التاريخية: ضغط الحداثة

من البديهي أن الحضارة العربية الاسلامية القديمة افرزت ابداعاً في حقل التاريخ يمكن مقارنته بإبداع الحضارة الاغريقية في حقل الفلسفة(١٣) تحوي المكتبة العربية ومراكز المخطوطات مئات المجلدات الشاهدة على ذلك والحاملة في عناوينها سواء لكلمة تاريخ أو لكلمات أخرى: سير - أخبار - نسب. من هذه المصنفات ما يعجز المعاصرون عن مجرد نسخه. كل هذه المؤلفات مؤلفات تاريخية إذا ما استعملنا كلمة تاريخ بمفهومها الواسع أي لتعني الأخبار عن أزمنة خلت.

تحولت هذه المصنفات اليوم الى مصادر يستعملها الدارس ليكتب التاريخ لكن لم يعد مؤرخ اليوم ينتج ما يشبه تلك المصنفات، لم يعد يكتب التاريخ الحولي ولا السير ولا كتب الأخبار أو النسب. أصبح يكتب تاريخاً آخر يتعلق إما بحقب معينة أو بمواضيع معينة وبتحولات وثورات الخ...

هناك في هذا التحول اعتراف ضمني بأنها لم تعد تؤدي بالنسبة لمجتمعات اليوم دور المرجع المباشر للتاريخ، الأسباب المتعددة، أبسطها أن هذه المصنفات لم تعد سهلة القراءة بالنظر لتعقد لغتها، أو أنها لم تعد سهلة التداول نظراً لضخامتها وأصبحت تحفظ في مكتبات في الجامعات أو في مكتبات المختصين لعل أعمق الأسباب هي أن هذه المصادر لم تعد توفر الاستخلاصات المركزة التي يطمح اليها القارئ اليوم.

من العسير رسم حدود المنهج المتبع من قبل مؤرخ اليوم، ذلك لأن طرق القاربة تختلف. لنقتصر فقط على بعض النقاط الكاشفة لمدى المسافة الفاصلة بين المؤرخ القديم والمؤرخ الجديد:

- لم نعد نفرق في مستوى الخبر التاريخي بين ما هو خبر بالمفهوم القديم للكلمة وبين النادرة، والنسب والأدب. أصبحت كلها بمثابة مادة أولية تساعد على الفهم والتقصي. يشهد على ذلك ببليوغرافيات الدراسات التاريخية التي كلما تنوعت دلت على جدية الباحث والمامه.

- لم تعد أعمال أبطال التاريخ تعكس ارادتهم الفردية فقط بل أصبحت تعكس توازنات عميقة نبحث عنها. لذلك لم نعد نحكم على ابطالنا احكاماً اخلاقية، بل نكتفي بالفهم والتقصي والربط بين أعمالهم وبين تاريخهم.

- أصبحنا ندخل تحقيباً جديداً على التاريخ يختلف عن التحقيب الذي كتب في اطاره المؤرخ القديم. التحقيب الجديد هو نتيجة للدراسات التاريخية الحديثة التي - بناء على بحوث مركزة - فككت الحقبة المترابطة التي تحويها المصادر الى حقب متعددة. فالخلافة الأموية لم تعد تمثل حقبة مترابطة وممتدة بين الفتنة الكبرى والثورة العباسية، لأن البحث التاريخي كشف عن تمفصلاتها الداخلية: ثورة ابن الأشعث عام ٨٣هـ ونهاية خلافة هشام بن عبدالملك سنة ١٢٥هـ مثلاً.(١٤)

لم نعد نترك عهدة التاريخ على الراوي، راوي الخبر، وأصبحنا بالنتيجة - نتجاوز الأخبار في اتجاه التحليل والربط ثم الفهم. ونتحمل المسؤولية العلمية لهذه العملية. لم يعد من الممكن أن يكتب مؤرخ عربي معاصر في مقدمة كتابه ما كان الطبري كتبه في مطلع تاريخه:

«وليعلم الناظر في كتابي هذا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكره فيه مما شرطت اني راسمه فيه. انما هو على ما رويتُ من الأخبار التي انا ذاكرها فيه، والآثار التي انا مسندها الى رواتها فيه، دون ما أدرك يحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلاّ اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلاّ بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن

في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُؤتَ في ذلك من قبلنا، وانما أُتِي من قِبَل بعض ناقليه الينا، وأنا انما أدينا ذلك نحو ما أُدّيَ الينا[15]

خلافاً للطبري، أصبحنا نجتهد في نقد النصوص وتمحيصها وكشف المؤثرات التي قد تكون دفعت لتشكلها، ونبين محدوديتها، ليس من النادر أن يشتكي مؤرخ اليوم من ندرة المعلومات حول موضوع ما، أو من غياب وجهة نظر هامة لمؤلف ما حول نقطة هامة...ليس من النادر أيضاً أن يدخل المؤرخ الحديث النسبية اللازمة على آراء المؤرخ القديم وأن يبين ارتباطها برؤية معينة للموضوع...

يمكن استجماع عدة عناصر أخرى تبين مدى البعد الفاصل بين التاريخ بمفهومه القديم والتاريخ بمفهومه الحديث. قد تبدو هذه الملاحظات بديهية في ظاهرها، لكن دلالاتها كبيرة انها تعني أن التواصل مع التراث «بالمعنى المنهجي» للكلمة اصبح امرأ عسيراً ان لم نقل مستحيلاً وتحول دور المؤرخ الى واسطة بين المصادر القديمة وبين الكتابة التاريخية بشكلها الحديث. قد يكون المؤرخ العربي اقدر من الأجنبي على فهم روح النص التاريخي بحكم قربه من الذهنية الثقافية المتحكمة فيه، قد يكون له اهتمامات مختلفة عن المؤرخ الأجنبي، لكن هذا لا يغير إلاّ شيئاً طفيفاً من طرق المقاربة والفهم.

من العسير الالمام بعملية انتشار الذهنية التاريخية الحديثة نظراً لاختلاف المناهج في حد ذاتها ومرونتها مقارنة بالعلوم الاجتماعية الأخرى. يمكن فقط ضبط الموارد الكبرى. مورد أول يمثله الاطلاع على المناهج التاريخية المعاصرة وما تقتضيه من إحاطة بالحدث التاريخي وربطه مع غيره من الأحداث ثم الإستخلاص حول تاريخيته ثم حول علاقته مع أحداث سابقة ولاحقة. وقبل كلّ ذلك التثبت من وثوق الرواية التي حملته لنا، وفهم أسباب المبالغة أو الطمس لبعض جوانبه الخ... يجب ألاّ يفوتنا أن عدداً كبيراً من المؤرخين العرب المشتغلين اليوم بالبحث قد تلقوا تعليمهم في الجامعات الأوروبية والأمريكية وغيرها.

أما المورد الثاني فهو الإطلاع العرضي أو الضمني على المنهج التاريخي من خلال الدراسات التاريخية، سواء التي انتجها المؤرخ العربي المطلع على الأبعاد المنهجية لعلوم التاريخ أو التي ينتجها المؤرخ الأوروبي أو الأمريكي سواء المتصلة منها بالتاريخ العربي أو التاريخ الانساني بصورة عامة. ليس من النادر أن يكون استغلال هذه الدراسات فرصة للمؤرخ العربي للتأمل فيها ومحاكاتها ان انسجمت مع تصوره للتاريخ أو نقدها إذا هي خلخلت بعض فرضياته السابقة.

يوصلنا هذا الى استنتاج مهم وهو أن المؤرخ العربي دخل بدرجات متفاوتة – في دائرة الحداثة العلمية وتلقى جاذبيتها. لكن إذا كان المؤرخ قد ارتقى الى حداثة المنهج لماذا لا يتّسم حضوره الثقافي بالإيجابيّة؟ لماذا لا يحكم العلاقة مع الماضي؟ ولماذا لا تستغل نتائج أبحاثه إلاّ بشكل عرضي في البحث الفلسفي والاجتماعي؟ تحيل هذه الأسئلة إلى وجوب التمييز بين مستويات مختلفة.

المستوى الأول هو التاريخ كماض. كل مجموعة انسانية لها علاقة بشكل أو بآخر مع ماضيها، وتفرز له صورة. لا يمكن إلاّ أن تكون صورة اختزالية لانها لا تسترجع من خلالها كلية التاريخ وحقيقته، وإنما تسترجع بعض أحداثه أو بعض مراحله، تستعيدها بشكل لا ينسجم بالضرورة مع حقيقة التاريخ بقدر ما يستجيب لوظائف مختلفة اجتماعية وسياسية ونفسيه – وجدانية الخ...تستحضر الماضي لا في كليته وإنما بالقدر الذي يضفي على حياة الجماعة توازناتها الضرورية.

هناك مستوى ثان فهو مستوى المؤرخ: تفرز المجتمعات الانسانية مثقفها بصورة عامة ومؤرخها على وجه الخصوص. يبدو أن محدودية وعي المجتمعات البشرية بالزمن التاريخي لم تمنعها من افراز الحاجة لتاريخ، يجسمه «المؤرخ» ليضمن الصلة مع الماضي وليكون مرجعاً عند الحاجة هذا ما تدل عليه أكثر الحضارات قدما وهذا ما يدل عليه أيضاً التاريخ العربي. فرواة الأيام والنسب كان لهم دور وظائفي يذكر بدور المؤرخ إذ يمررون الثقافة التاريخية للقبيلة ويضمنون استمرار وحدتها الثقافية وتراثها. لهذا وجدت اصناف عديدة من المؤرخين تتراوح من حافظ ذاكرة الجماعة الى المؤرخ الحديث المسلح

بأدواته المنهجية المستقلة.

أما المستوى الثالث فهو مدى انسجام وعي المؤرخ مع وعي الجماعة هناك ما يؤشر في حياة المؤرخين قديماً وحديثاً الى أنهم من أقل المثقفين حظاً في ملء هذا الدور العضوي. أسباب ذلك متنوعة منها ما تولدها ممارسة التاريخ: المؤرخ مرشح قبل غيره لفهم نسبية الصورة الحاضرة بحكم اطلاعه على كلية التاريخ. المؤرخ يعيش زمنية التاريخ في حين يعيش المثقف غالباً زمنية زمانه. الحقائق عند المؤرخ لا ترقى أبداً الى الإطلاق بل تبقى سابحة في حقل النسبية وترشحه أكثر من غيره لدور المتفرج المنعزل. هذا ما تعلمه لنا حياة المؤرخين منذ القديم حيث وإن لم ترفضهم المجتمعات فقد رفضتهم ذرائعية السياسية (أو وضعت معارفهم دون أن تكلفهم)

هناك أسباب أخرى تحيل على العصر الراهن. تاريخ الانسان لم يتغير في جوهره وبقي خاضعاً لقوانين الحاجة مهما اختلفت. لكن معرفة الانسان لذاته تطورت وانفتح حقل التاريخ على هذا الوعي الحديث. لقد تغير مفهوم الحقيقة ومفهوم الزمن ولم تعد الحقيقة في التاريخ تختصر مثلاً على ما وقع فعلاً. لم يعد المؤرخ يكتفي بتميز الأخبار الى «أخبار حقيقيّة» و «أخبار موضوعة» يستعمل الحقيقية منها ويكذب الموضوعة. لقد أصبحت المقاربة التاريخية تتعدى هذا الى النظر في الوظائف التاريخية التي لعبها ما هو موضوع، وما هو متخيل وما هو مختزل وما هو غائب وبذلك تفككت تلك الثنائية التي سيطرت على فلسفة المعرفة منذ اليونان(١٦). الزمن أيضاً لم يعد له المفهوم المطلق الذي رسخته ذهنية القرن التاسع عشر بل أصبحنا نتحدث عن زمن تاريخي وزمن أسطوري وزمن ملحمي وزمن ثقافي... يعني كل هذا أن وعي المؤرخ أصبح يحوي الصورة ويضعها في سياقها من تاريخ الوعي الانساني. لم نثر هذه الجوانب إلاّ بقصد بيان درجة التعقيد التي تبلغها مهمة المؤرخ اليوم. هناك في توسع معارف المؤرخ وقدرته على وعي الوعي البشري المحيط به ما يقلل من حضوضة في ملء وظيفته «البدائية» المتمثلة كما رأينا في ترويج صورة الجماعة عن ذاتها، وتعديل هذه الصورة على مقتضيات الحاجة. ينطبق هذا على المؤرخ حتى في الثقافات الأوروبية المتطورة حيث سيطر على حاضر الثقافة المحلل الصحفي، والتكنوقراطي، وعالم الإجتماع ذا الجانب العملي...لكن بقي للمؤرخ دور الواسطة مع الماضي على كل حال. لا يحكم الماضي هو أيضاً لكن يمثل المرجع النهائي إذا ما أختلت العلاقة مع التاريخ...لا يبقى بعده من مقيم لصلاحية المعارف إلاّ الفيلسوف لكن الفيلسوف يفكر في اتجاه آخر هو اتجاه المطلق ولا يحيل الى التاريخ بقدر ما يحيل الى الوجود الانساني المجرد(١٧) يجب أن نضيف الى هذا ملاحظتين هامتين:

١- أن الثقافة الأوروبية اكتنزت واحتوت الثقافة التاريخية والحس التاريخي لدى غير المؤرخ. فالصحفي الأوروبي وعالم الاجتماع والفيلسوف له حس تاريخي وقد أصبح ذلك من القواسم المشتركة للثقافة الغربية بوجه عام.

٢- انه في المرحلة الأخيرة، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي على وجه الخصوص وتسارع الأحداث التاريخية، وعودة اوروبا التاريخية لأفق السياسة، سجلت عودة للفكر التاريخي وللمؤرخ ليتطرق تطرقاً تاريخياً للقضايا المطروحة وهي قضايا ذات أبعاد تاريخية، وليوضح السبل الممكنة للساسة وأصحاب القرار السياسي والثقافي..(١٨)

ما هي حظوظ المؤرخ العربي في الدور الثقافي والمعرفي؟ ما هي مكانته الممكنة في الثقافة العربية؟

دور المؤرخ العربي، أي المؤرخ الذي حاولنا رسم ملامحه المنهجية في بداية هذا المقال دور معقد، لقلة اعقد ادوار المثقفين على الإطلاق، ذلك لأسباب متعددة ومتضامنة:

١- دخوله في دائرة الحداثة العلمية التي تملي عليه المنهج وهو الواسطة الى كل مساهمة على مستوى كوني.

٢-انتماءاً الى ثقافة لم تشارك في ماضيها القريب ولا تشارك اليوم في صنع الوعي التاريخي الحديث. يدل على هذا ندرة إن لم نقل انعدام الافراز الفلسفي في حقل التاريخ وعلوم الانسان بصورة عامة.

٣- انتماءه الى ثقافة قديمة أبدعت وأثرت قديماً (ابن خلدون – مسكوية) لكن هذه الإبداعات وإن انصهرت في الوعي التاريخي الانساني، وأصبحت دلالتها العلمية تتوقف في حدود تارخيّتها، أي في حدود تعبيرها على مرحلة من

مراحل الوعي... فإن ما بقي منها في الوعي الجمعي يمثل «عقدة مجد» (الكلمة لهشام جعيط) تحول دون سهولة الاخذ والتعلم من الآخرين...

٤- انتماءه الى ثقافة تعيش طوراً دفاعياً ويتمسك وعيها الجمعي بصورة ثابتة للتاريخ. ترتكز هذه الصورة على نصوص تاريخية من صنف الأدب التاريخي، في حين أن هذه التواريخ كانت لها وظائف معينة أهمها دورها كمعرفة مكملة لعلوم الفقه، يضاف الى هذا أنها لم تخضع لمقتضيات النقد التاريخي الحديث ولم تتبين بعد محدودية تمثيليتها للتاريخ الواقع...(مع صعوبة هذا النقد بالنظر لغياب الوثائق الارشيفية خاصة بالنسبة للتاريخ القديم)

على ضوء هذا نفهم بسهولة لماذا تصبح المقاربة التاريخية عسيرة التداول الفكري والثقافي ذلك لأنها إما أن تأخذ بمقتضيات المنهج، فتبدو كأنها تابعة لوعي آخر (هو الوعي الغربي)، وبالتالي مربكة ومشوشة للصورة الثابتة عن الماضي. وأما أن تنفي المنهج فتتضامن مع نصوص الأدب التاريخي وتعيد انتاج «الصورة التاريخية» ولا تطرق قضايا تاريخية طرقاً مركزاً.

على ضوء هذا نفهم أيضاً لماذا يحرص «المفكر العربي» على انسجامه مع الوعي الجمعي، ويفشل بالنتيجة في تحقيق تراكم ثقافي جديد. انه لمن السهل نقد الحياة الفكرية العربية وتعديد الأمثلة الدالة على غياب الفكر التاريخي. ليس من النادر القفز فوق القرون بيسر تام، بحثاً عن حلول لمشاكل الحاضر كالديمقراطية أو المجتمع المدني أو علاقة المثقف بالسلطة. يتطلب هذا عملاً مستقلاً يتجاوز حدود هذا المقال[١٩]

بالنظر الى هذا الوضع الخاص لا تنطبق المقاربات التي ساقها علم الاجتماع الثقافي على «الحالة العربية» تتجلى محدودية هذه المقاربات أكثر إذا ما طبقت على المؤرخين. يصنف قرامشي[٢٠] المثقفين الى ثلاثة أصناف: المثقف التقليدي، المثقف العضوي، المثقف الثوري، المثقف التقليدي هو في نظر قرامشي المعبر الثقافي عن طبقات زالت سيادتها والمثقف العضوي هو المعبر عن الطبقات السائدة، والمثقف الثوري هو المعبر الثقافي عن طبقات في طريقها الى السيادة. تتجلى لنا بسرعة محدودية هذه المقاربة إذا ما قسمنا المؤرخين الى هذه الأصناف. أين موضع المؤرخ العضوي ما دام المؤرخ التقليدي والمؤرخ العضوي يختلطان (بحكم الأصالة). لنضع المؤرخ ضمن دائرة المثقفين الثوريين (ويمكن أن تعني هنا فعاليات الفكر العربي...) لكننا نجده أيضاً مرفوض كواسطة مع الماضي لأن المفكرين «الأكثر ثورية» يشقون طريقهم مباشرة الى التاريخ.

محدودية المقاربة الاجتماعية الثقافية تحيلنا من جديد الى المقاربة التاريخية وزيادة تعميقها بهدف التمييز من جديد بين الصورة التي يولدها المجتمع عن ذاته وبين وعي المؤرخ. لهذا سنحاول لملمة تشكل صورة العربي لتاريخه وسنتساءل عن الروافد التي غذتها، ثم سنحاول في المرحلة الثانية تتبع انبثاق التاريخ كاهتمام مستقل محتفظين ضمنياً بتساؤلنا المحوري عن دور المؤرخ في الثقافة.

من الزمن الثقافي الى الزمن التاريخي

انه لمن الصعب الإلمام بكل العملية الثقافية التي شكلت صورة العرب لتاريخهم ابتداء من القرن التاسع عشر. للمسألة امتدادات كبيرة لا يمكن الإحاطة بها، لا سيما أنها لا تختصر على دور الثقافة العالمة بل تتعداها الى فعاليات الوعي الجماعي ثم علاقاته المتشابكة والمختلفة مع قضايا الروح والوجدان. يمكن فقط رسم بعض خطوط للفهم يمكن تعميقها بدراسة التاريخ الثقافي، لهذه الدراسات أهمية كبيرة لأنها تتعلق بتاريخ وعي التاريخ وتساعد دون شك على المرور بالذهنية الثقافية السائدة حالياً من مرحلة الوعي الى مرحلة وعي الوعي. لكن للأسف الشديد. ما زالت هذه المستويات من الفهم مبعدة من اهتمامات الباحثين رغم حيويتها لمصير الثقافة.

وللمؤرخين دور كبير في هذه الإحاطة بحكم منهجهم المتمسك بشمولية التاريخ وكليته ممّا يتيح لهم الإحاطة بالوعي الانساني في نسبيته أيضاً وبالتالي في تاريخيّته أي ارتباطاته مع حاجات التوازن الاجتماعي والسياسي وسيرورة هذا الوعي وتطوراته. تختصر كتابة تاريخ الفكر غالباً على فعاليات الأفكار المفلسفة وتقصي ما يخفيه نشاط الثقافة من معان في

حين أن هذا النشاط هو النافذة الحقيقية والمباشرة على التاريخ.

صورة العربي على ماضيه لم يفرزها المثقف بقدر ما أفرزها ضغط التاريخ القريب أي القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين: التوسع الإستعماري لأوروبا على حساب البلاد العربية. استفاقت البلاد العربية على جحافل الاستعمار وقوته وحاول المصلحون تدارك الوقت الضائع. لذلك اتجه الاصلاح الى ما بدا لهم ملحاً وعملياً: النظم السياسية والحياة الاجتماعية.

أمّا في المستوى الثقافي - الفكري فكلّ ظروف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت تدفع «لتريث» الماضي[٢١]: كلّ ما كتبه الأجداد وما تركوه صار من مقومات الهوية. وتولدت بالنتيجة نظرة «كتليّة» إلى تاريخ. لم يكن من الممكن إفراز محاولات نقديّة للماضي. ذلك لأنّ هذه المحاولة لا بدّ أن ترتكز على تساؤل فلسفي لكن كل ما في الظروف كان يقلل من حضوض أي تساؤل. أمّا عن التجربة الفكرية الغربيّة فلم يكن من الممكن استعادتها سواء بسبب الأشواط الطويلة التي قطعتها أو بسبب أنّها أصبحت تمثّل تراثاً للخصم، أي تراثاً استعمارياً. لهذا السبب إختفت من حقل التفكير حتّى التساؤلات الفلسفية التي أثارها الفكر العربي في العصر الوسيط والتي كانت تصب في اتجاه واحد اتجاه التطور الفلسفي. ملخّص الوضع أن الفكر العربي الإسلامي تسلح بزمنه الثقافي لمواجهة الزمن التاريخي الأوروبي.

كان لا بدّ لخطاب الهويّة أن يجد مرتكزات له. لم يجدها في الحاضر فاتجه إلى التاريخ. في هذه الحركة نحو الماضي هناك دور أول شديد الثراء والتنوع، لعبه المثقف الموسوعي ملامحه الآتية: سعة الإطلاع على التراث القديم من لغة وشعر وأدب وتاريخ، القدرة الكبيرة على الكتابة مهما اختلف الموضوع قوة الحضور الثقافي سواء في الوسط العلمي أو الصحفي كان هذا المؤرخ الموسوعي وراء تلك العملية الواسعة التي تمت في نصف الأوّل من هذا القرن ورسّخت زمناً ثقافياً. ليس من الصدفة إن كانت تلك المرحلة من أكثر المراحل التي حقق فيها العرب اطلالة قريبة على التاريخ في تنوعه وثرائه وحققوا معه التحاماً وجدانياً في تلك المرحلة كتبت روايات جرجي زيدان الشهيرة، وفيما طبعت سلاسل ثقافية عديدة لأبطال التاريخ العربي ورموزه، وفيها جمعت دواوين الشعر القديم، وفيها راجت مجلات عديدة تحكي الأمجاد... كتب العقاد عبقرياته المعروفة، وحسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام ومحمد حسنين هيكل السيرة وكتبت عدّة كتب أخرى تلخص بعض ملامح التاريخ العربي في الماضي، وحققت مصادر الأدب والتاريخ وطبعت غالباً في مصر وفي لبنان.

لقد كان لوسائل الإعلام العصرية من طباعة وصحافة، دوراً هاماً في نشر ذلك الوعي في الأوساط الأكثر شعبية، وتقهقر التاريخ الأسطوري المبني على زمن اسطوري أو ملحمي ليترك مكانه لزمن ثقافي واختصر وجود اشكال الوعي الاسطوري هذا على الفئات المنغلقة على ذاتها والتي كان لوعيها الاسطوري وظائف ثقافية حية، لكن كانت شيئاً فشيئاً تخوض حرباً خاسرة ضد الوعي الثقافي المسلح بأدوات الترويج اللازمة، والمنسجم مع مشروع التحرير والنهوض. كانت تجارب التاريخ أيضاً تدفع في هذا الاتجاه: لقد كشفت الحروب والمشاركة فيها، ومحاذاة المستعمر واكتشاف جدواه في العمل عناصر مساعدة على تفكيك الوعي الاسطوري وازاحته من الطريق.

لم تدرس هذه التمفصلات الثقافية الى الآن بما فيه الكفاية رغم أهميتها القصوى. لكن لا شك أن الوعي الثقافي، اضافة لتمتعه بوسائل نشر أهم، بوقوعه في سياق الحركة المناهضة للاستعمار، فإنه قد وجد دعماً أكيداً من عناصر أخرى سابقة منها «الكتابة» التي تكتسي في الأوساط الشعبية قداسة خاصة هي امتداد لقداسة تعاليم الله المكتوبة في كتاب. من العبث محاولة التمييز بين ما هو وعي ثقافي عربي وبين وعي اسلامي. لكن الزمن السابق لمرحلة الزمن الثقافي العربي كان زمناً اسلامياً بمعنى أنه يتمحور على زمنية الوحي ولم يكن بالمرة ملتفتاً لزمنية التاريخ. خاصة في أوساط الشعب حيث كان لهذه الزمنية قنوات للتنظيم وترويج أهمها الزوايا والطرق.

في هذه المرحلة تم استكشاف التراث العربي ونشره من قبل علماء بالتراث حقيقيين: رزق الله حسون الصحفي الآرمني المولود بحلب سنة ١٨٢٥، الشيخ محمد عباد

الطهطاوي المصري المولود سنة ١٨١٠ والمتوفي سنة ١٨٦١، حسن توفيق العدل المصري، الشاعر الفلسطيني ابراهيم عبد الفتاح طوقان المولود سنة ١٩٠٥ والمتوفى سنة ١٩٤١. ثم ورث هؤلاء في علمهم جيل آخر منهم في مصر أحمد تيمور باشا، أحمد زكي باشا، محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي محمود محمد شاكر، محمد محي الدين عبدالحميد عبد السلام محمد هارون، ومنهم في سوريا الشيخ الطاهر الجزائري، وفي تونس حسن حسني عبد الوهاب، وفي الجزائر ابن أبي شنب وفي المغرب عبدالحي الكتاني، ثم ورثهم جيل آخر: محمد رشاد عبد المطلب، فؤاد السيد، كوركيس عواد، ميخائيل عواد، قاسم رجب، أحمد عبيد حمد الجاسر في المملكة العربية السعودية، القاضي اسماعيل الأكوع في اليمن احسان عباس، محمد يوسف نجم، صلاح الدين المنجد، محمد المنوني، ابراهيم الكتاني، العابد الفاسي، الفقيه التطواني وغيرهم[٢٢] اردنا ذكر اسماؤهم وفاء لهم وبياناً لهذه العملية الواسعة لتوليد صورة التاريخ العربي، التي سترسم ملامحها.

إنّه من الهام جداً التوقف عند صورة التاريخ كما روّج لها المثقف الموسوعي وارتسمت في أذهان الأجيال منذ بداية هذا القرن، لا من منطلق تقييمي معياري بغاية الكشف عن مطابقتها أو عدم مطابقتها للحقيقة، وإنّما لأنّها تلخّص لنا العلاقة مع التاريخ. والعلاقة مع التاريخ هي دائماً علاقة إنعكاس. لكن كلّما زادت الآمال التي يحملها الحاضر ازدادت صورة الماضي جمالاً. المقارنة ثريّة بالمعاني بين هذه الصورة وصورة التاريخ بعد السبعينات بعد أن ضمر دور المثقف الموسوعي ورشح التاريخ المعاش مثقفاً من نوع آخر إنّه المفكّر الذي وإن بقي في علاقة وطيدة بالماضي فإنّه سيولد صورة مسيّسة ومتوترة تعكس «حاجات» مرحلة جديدة يعود المفكّر إلى التاريخ ليستنطقه إستنطاقاً ويبحث فيه عما يثبت تفكيره وناسياً أنّه تاريخ لم يشهد لا مرحلة الحداثة ولا مرحلة النقد ولا مرحلة الدراسة، لذلك سيبقى «المفكر» متأرجح بين الزمن الثقافي وبين مقتضيات الحداثة الفكريّة. هذه هي إحدى أسباب ومظاهر غياب المؤرخ الذي كنا رسمنا ملامحه في بداية هذا المقال، وهذه أسباب ما يعبّر عنه غالباً بالأزمة. في بداية هذا القرن وحتى أواخر الستينات كانت صورة الماضي بمثابة مشهد يزداد ثبوتاً وتلوناً كلّما زاد سبر الماضي وكشفت أوجه ثرائه. لقد تناغم وعي المثقف الموسوعي مع الوعي الجمعي وإعطاء حججه الثقافيّة. ذلك لأن فكر النهضة كان في منطلقه فكر سياسياً ولم يكن فكراً ثقافياً. اتجه فكر النهضة إلى الإصلاح بغاية تدارك ما يمكن تداركه بينما اتجه المثقف الموسوعي لترويج صور ثريّة مثلت امتداداً ثقافياً لمعارك التحرير. كأننا بالأشكال في وجهة السياسي قد تبنته الفئات المشتغلة بالعمل السياسي المباشر في مختلف حركات التحرير التي شهدها العالم العربي.

في هذه المرحلة حقق العرب إطلالة ثريّة على التاريخ وكان حاضرهم يحمل آمال التحرير. هذه الآمال نجد لها انعكاساً آخر في مستوى الخلق الأدبي والفنّي. أظهر الأديب قدرة فائقة على الخلق لعلّه لم يتجاوزها إلى اليوم يكفي إثارة بعض أسماء الأدباء والشعراء: أبو القاسم الشابي، أحمد شوقي، خليل مطران، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، توفيق الحكيم، حافظ ابراهيم...التحم الأديب بالفنّان وانفتح الأبد على الوجدان الشرقي العريق الذي ظلّ نائماً لمدة طويلة: محمد إقبال ينشد زمن الوحي ويرفض مأسوية زمن التاريخ، أمّ كلثوم تغني أشعاره وأشعار عمر الخيام، محمد عبد الوهاب يغني عراقة التاريخ، وأبو القاسم الشابي يغني أزليّة الطبيعة...هكذا تشكل نسق الروح الشرقي العريق تاريخاً وأدباً وموسيقى وهكذا تمّ ترميز الثقافة العربيّة المعاصرة[٢٣]

هذا هو التاريخ الذي خاضت به حركات التحرير حروبها ضد المستعمر، إنه تاريخ ثقافي، صورة متنوعة وثابتة. ذلك لأن ملاحم التحرير لم تكن منقطعة عن ذلك الوعي الثقافي.. فالوعي الوطني الصاعد تغذى بشحنة وجدانيّة وجماليّة: الشعراء يكتبون أناشيد الثورات ويحيلون على جمال واحد لذلك كان ثانوياً أن يكون الشاعر لبنانياً مصرياً أو تونسياً...

كأنّنا بالثقافة العربيّة قد اختارت طريق الوجدان وأجّلت قدر الحداثة ومأسويتها، إلى ما بعد السبعينات. اختصرت الطريق لأن العقل الأوروبي – داخل تاريخه – كانت له مسيرة أخرى: عاش جمال التاريخ ثمّ اكتسحه وسلط عليه

طوال قرنين من الزمن أدوات النقد الحديث والمعاصر ثم عاد بعد ذلك ليبني معه علاقة إنسانية ووجدانية جديدة ويتعطش إليه أيّما تعطش، وأسند مهمّة السبر والإكتشاف للمؤرخ ليغذي الثقافة بجمال التاريخ. أردنا التوسع قصداً في هذه النقطة لما لها من علاقة مع دور المؤرخ.

بقي أن نتساءل عن انبثاق المثقف الموسوعي لأنّ في ذلك لا محالة بداية لشكل من الوعي التاريخي؟

تتطلب هذه «المتابعة» إجراء بحث مركز يشمل التطورات الثقافية التي عرفتها كلّ البلاد العربيّة، وهو بحث يتجاوز إطار هذا المقال. سوف نتطرق للموضوع من خلال تاريخ التعليم التقليدي بتونس لكن لا ندري إلى أي مدى يمكن اتخاذه كانموذج رغم أن هناك ما يدفع الى الاعتقاد بأن في البلاد العربية الأخرى لم تكن لتختلف كثيراً[٢٤] في التعليم الزيتوني التونسي، بقي التاريخ في حدود دوره التقليدي كعلم مكمّل لعلوم الفقه، ولم يكن مجال فضول لذاته، أبسط الدلائل وأعمها أن عدداً كبيراً من مصادر التاريخ لم تطبع إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين[٢٥]، رغم مضي زمن طويل على اكتشاف الطباعة، ومن القرائن الدقيقة أن بداية القرن ستشهد إقراراً بأنّ هذه المادة لا تجد مكانتها ضمن برامج التعليم ومطالبة حثيثة بالنهوض بها. يقول علي الزيدي في دراسة له حول «التاريخ النظام التربوي للشعبة العصريّة الزيتونية:[٢٦] في ١١ مارس ١٩١٠ عقد اجتماع في جامع الزيتونة حضره جميع الطلبة، وكانوا يومئذ ٧٠٠ فقرروا عدة مطالب من أهمها المطالبة بعقد لجنة تنظر في تنقيح برنامج التعليم ومناهجه...كما طالبوا بتدريس التاريخ والجغرافيا تدريساً مجدياً...«لم تجد هذه المطالب استجابة كبيرة واستمرت تبرز بين مطالب الزيتونة في كلّ المناسبات، عبر مختلف النضالات الطلابية، بحيث نجدها قد وردت في الكتاب المفتوح الذي وجهه هؤلاء الطلبة سنة ١٩٣٧م إلى المقيم العام أرمان قيون، وذلك في نطاق مطالبتهم بإيجاد المعدوم من العلوم التي نصّ عليها القانون الإصلاحي لسنة ١٩٣٣، كما وردت في خطاب ألقاه أحد تلاميذ فرع سوسة يدعى عبد العزيز رجيبة باسم زملائه في الفرع بين يدي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أثناء زيارته التفقديّة التي قام بها لفروع «الزيتونيّة» سنة ١٩٤٥ على اعتبار أن «هناك مواد تدرس دراسة مستفيضة كالفقه والنحو وهناك مواد أخرى دراستها ضئيلة جداً وهي كالمعدومة كالإنشاء والتاريخ» «وجاءت هذه المطالب أيضاً في المحاضرة التي ألقاها الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في أعضاء المؤتمر الزيتوني للرياضيات، الذي نظمه المدرسون والزيتونيون سنة ١٩٤٩، حين اقترح على المؤتمرين إضافة علمي التاريخ والجغرافيا للعلوم الرياضيّة، من أجل النظر في حلّ المشاكل التي تعترض برامجها. وقد انبثقت عن هذا المؤتمر لجان لدراسة هذه المشاكل...«وقد حاول برنامج الشعبة العصريّة الزيتونيّة، التي أحدثت سنة ١٩٥١ فعلاً تلبية مطالب الزيتونيين هذه بتوسيع دراسة العلوم الإنسانية..»[٢٧] يستعرض علي الزيدي برامج الإصلاح في مادة التاريخ وسينتج أن هذا البرنامج يتعلق في ثلثيه بتاريخ الدولة العثمانية[٢٨].

من الواضح أن النهوض بهذه المادة صحب الوعي بأهميّة العلوم الصحيحة أي أنّه كان بفاعل ما أسميناه في بداية هذا المقال: ضغط الحداثة. من صلب التعليم التقليدي سينبثق المثقف الموسوعي العربي وسيتميّز بإهتمامه بالتراث لا فقط في صورته الدينيّة وإنّما أيضاً في صورته التاريخيّة. ولا شك أن معارفه «الميدانية» ساعدته على ذلك كان التاريخ الذي سعى إلى إدخاله لبرامج التعليم هو تاريخ شرقي ويمكننا أن نفهم من هذا أنّه «تاريخ وطني».

لا ندري إلى أي حد يمكن تعميم هذه الصورة لانبثاق التاريخ كمجال مستقل على كل البلاد العربية، لكن يمكن لنا أن نتصور أن الأمور لم تكن لتختلف كثيراً: اكتسب التاريخ بعض الأهمية في نطاق التعليم التقليدي، قبل أن تحويه النظم الجامعية المستمرة إلى الآن.

انبثق المؤرخ الموسوعي من التعليم التقليدي الذي أتاح له معرفة ميدانية واسعة بالتراث. ما الذي دفعه الى هذا الاهتمام؟ اطلاعه على اللغات الأجنبية؟ قراءته؟ سفره؟ لعلّ فحص علاقته بالمستشرق تلقى بعض الأضواء على هذه الدوافع.

يكتشف القارئ العربي اليوم الاستشراق من زاوية نقدية.

كثيرة هي المحاولات التي هدفت لتفكيك الخطاب الاستشراقي واكتشاف مسلماته المنهجية وبينت كيف أنه كان أداة وامتداداً للتمركز الثقافي الأوروبي: من أشهر المحاولات محاولة ادوارد سعيد، هشام جعيط وعبدالله العروي(٢٩) وغيرهم. هؤلاء استمع اليهم المثقف الأوروبي والأمريكي بانتباه واستفاد منهم لأنهم وفروا له ما مكنه من تعديل رؤيته لذاته ومن تعديل مسلمات ولدّها ونماها وسط مناخ الهيمنة جعلته دون وعي منه يستأثر بحق توليد الشرعية.

لقد تركز هذا النقد على وظائفية الخطاب الاستشراقي وسط الثقافة الأوروبية بأن وفر لها حجج رفعتها وتميزها. كانت كتابات المستشرقين توفر السند الفكري للسياسيين والعسكريين ليواصلوا مهمتهم «التحضيرية» بالقتل والتهجير وافتكاك الأراضي وتبرز لهم دونية هذه الحضارات وتخلفها. لم يكن من الغريب أن يكون العرب والمسلمين الهدف الأول لان المخيال الغربي - الذي يستمد منه الاستشراق نفسه الوجداني - كان غنياً بالصور المعادية للإسلام والتي يعود تشكلها الى العصر الوسيط. في هذا السياق تقع كتابات الاستشراق الفرنسي حول بلاد المغرب حيث وضّف البحث لبيان نورانية العصر الروماني وتفوقه على العصر العربي الاسلامي، وبيان همجية الغزوات العربية سواء أثناء الفتح أو أثناء الهجرات الهلالية في هذا السياق أيضاً تم الاهتمام باللغة البربرية كحليف موضوعي ضد اللغة العربية، وأصبحت الكاهنة تسمى جان دارك المغرب!

ما هو طريف وغني بالدلالة أن نقد الاستشراق تم على يد «المؤرخ الجديد» الذي سيولد بعد الاستقلالات السياسية والمطّلع على آليات العقل الأوروبي من الداخل، الدارس لتطوره والمنتبه لنقاط ضعفه. لعلّ في هذه الحقيقة درساً جانبياً ألا هو أن الأصالة لا تكون إلاّ بالحداثة الفكرية التامة أي لا يكون إلاّ بنقيضها. إليست الأصالة في الواقع نفي للأصالة ثم استعادة جديدة لها؟(٣٠)

لكن نقد وظائف الاستشراق في الثقافة الأوروبية صرف الأنظار عن وظائفه الداخلية في صلب الثقافة العربية. ما يلفت الانتباه أن مثقفنا الموسوعي تعايش مع المستشرق وأصبح له صديقاً. كانا الى حد ما يتكاملان. يوفر الأول معارفه الأولية من مصادر ولغة وشعر ومخطوطات، ويوفر الثاني فضولاً ثقافياً كبيراً وبعض الدقة في المقاربة وبعض التقنيات في البحث والتنقيب والنشر. هناك وجه انساني لهذه العلاقة يجسمه الاكتشاف المتبادل الذي احتفظ ببعض جماله، تدل عليه بعض جزيئات حياة الأفراد(٣٠) مكرر كل المستشرقين كانت لهم صداقات في «الوسط الموسوعي» لماذا؟ لأن المؤرخ الموسوعي تكامل مع المستشرق: كان الأول يبحث عن حجج لمجد قديم ويبحث الثاني عن صورة لثقافة مجهولة.

كان المستشرق ينتمي للثقافة الأوروبية، وكان ممتلكاً لحسّ تاريخي أصبح قاسماً مشتركاً لهذه الثقافة. لكن لم يكن في نفس الوقت - إلاّ نادراً - من أبرز ممثلية، أي أن الذين وجهوا اهتمامهم لتاريخ بلاد الاسلام لم يكونوا من المؤرخين المتميزين العكس هو الأصح: كان أغلبهم من علماء اللغات، وعلماء الأجناس أو حتى من مجرد العسكريين المنبهرين بالحضارة الشرقية.

بالنظر لهذه الأسباب مجتمعة ساهم المستشرق في توليد الصورة الثابتة والملونة التي أخذ يروّج لها المثقف الموسوعي العربي. اتخذت هذه المساهمة اشكالاً متعددة. هناك بحوث كثيرة كانت تجسم الرؤيا التي وصفناها سابقاً أي الرؤيا المكرسة للغلبة الثقافية ولكنها كانت بحوث لا تنشر في البلاد العربيّة الاسلاميّة، بل تنشر في مجلات مختصة كمجلة الإستشراق الألمانية ومجلة معهد الدراسات الشرقيّة بالجزائر، ولم تكن بالتالي تلج الفضاء الثقافي العربي الإسلامي إلاّ عند ترجمتها التي إن تمت تكون غالباً محفوفة بهوامش عديدة تعيد المستشرق الى «دائرة الصواب»(٣١) هناك بحوث أخرى كان لها شيء من الحياد أهمها ما يتعلق بالمخطوطات من أدب وتاريخ وتراجم ونسب الخ...هذا الانتاج كان يآزر المثقف الموسوعي في جهوده من أجل استعادة صورة التاريخ الثرية والثابتة. لذا كان مدفوعاً للإعتراف بالجميل وكان يميّز بين مستشرق ومستشرق. يقول الاستاذ محمد يوسف موسى في مقدمة ترجمة كتاب «العقيدة والشريعة للعالم المجري الأصل أجنتس جولدتسيهر: «لقد تناول المستشرقون من علماء أوروبا

الإسلام والمسلمين بالدراسة من نواح مختلفة، وكان منهم من ملكه الهوى فأضلّه على جهل أو علم ومنهم من آثر أن يكون منصفاً يصدع بالحقّ متى هدى اليه بعد البحث والتنقيب[٣٢]. كان عزيز العظمة قد توسع في هذه النقطة وكتب مقالاً بعنوان «استشراق الأصالة» وبيّنْ فيه أن «فلسفة المقاربة» بين خاطب الأصالة وخطاب الإستشراق لا تختلف كثيراً.[٣٣]

من العبث إذا محاولة وجود نقطة محددة زمنياً لانبثاق كتابة التاريخ بمعناه الأقرب إلى المعاصرة، أي في شكل إهتمام مستقل وخاضع لمنهج متميز عن منهج المؤرخ القديم. إن هذه المحاولة لا تواجهها فقط صعوبة الإلمام بكل ما كتبه ونشره المؤرخ العربي، في بلاده وخارجها، إنما تواجهها خاصة صعوبة أخرى. تتمثل في أن التاريخ بمعناه المتطور قد تفرع عن التاريخ بمعناه الثقافي أي كما مارسه المثقف الموسوعي. هناك اعتراض منتظر علي هذا الرأي وهو مدى الاستمرارية الموجودة مع مؤرخي القرن التاسع عشر. لا نود التوسع في هذه النقطة لما لقيته من عناية في أعمال سابقة تعلقت إما بالتراث التاريخي العربي الاسلامي أو بالتراث التاريخي التونسي أو المغربي في العصر الحديث. وبينت أنه حتى وإن تبلور وعي نسبي بأهمية ما يدور خارج «دار الاسلام» فإن ذلك لم يرقى لدرجة بلورة منهج جديد لدى المؤرخ. يقول أحمد عبدالسلام: «كل المؤلفين (في حقل التاريخ) كانوا ينزعون إلى إستعادة المباحث المتفق عليها والتي تطرق لها سابقوهم الى حد أنهم ينقلون ما كتبه هؤلاء نقلاً حرفياً مع إدخال بعض التعديلات الجزئية والطفيفة».[٣٤] هذا عن المؤرخين التونسيين على أننّا نجد نفس الملاحظة سواء إزاء المؤرخين المغاربة في القرن التاسع عشر[٣٥] (أو المؤرخين المسلمين بوجه عام[٣٦]).

مع مطلع القرن بدأ الحس التاريخي في تطوّر تدريجي ونما هذا الحسّ في حيّز المثقف الموسوعي وقد شارك فيه سواء: في الدفاع عن تضمينه في برامج التعليم أو بتدريسه كمادّة مستقلة وساهم بالتالي في تكوين من سيصبحون مؤرخي البلاد العربيّة ابتداء من الثلاثينات[٣٧] إن هذا التحول هو تحوّل هام لأنّه يؤشر إلى موضعة جديدة لعلم التاريخ وسط الثقافة.

من المعروف أن علم التاريخ لم يكن في الحضارة الإسلامية القديمة علم لذاته وإنما كان علماً متمماً ومكملاً لعلوم الدين أي لم يكن معترفاً به كعلم له حقّ مطلق في بناء استنتاجات مستقلة وفهم مستقل. هذا ما يفسر لنا التوتر الحاد الذي شهدته الحضارة العربية الاسلاميّة بين المؤرخ والفقيه.

يقول الإمام تاج الدين السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ. «إن أهل التاريخ ربّما وضعوا من أناس ورفعوا أناساً إما لتعصب، أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به أو غير ذلك من الأسباب، والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل، وكذلك التعصب، قل إن رأيت تاريخاً خالياً من ذلك»[٣٨] من الواضح أن هذا التوتر له أسباب منهجية، لأن التاريخ يتقاطع مع الفقه في مستوى الإهتمام بالماضي ولكنّه لا يسلك نفس الطريق إلى الحقيقة بما أنّه لا يأخذ بتقنيات الفقهاء المرتكزة على الشهادة. هذا التوتر يستمر إلى اليوم يدل على ذلك مثلاً أن مقولة السبكي هذه يستشهد بها الشيخ خليل الميس، مدير أزهر لبنان في مقدمة تحقيقه لكتاب تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (المتوفي ٥٨٢)، وعلى وجه التحديد في فقرة من المقدمة عنوانها: «قاعدة في المؤرخين»[٣٩].

يتعلق الأمر بموضعة جديدة للتاريخ في الثقافة قد تكون مثلت تحولاً كبيراً لأن قبل هذا التاريخ كان المؤلفون المسلمون لا يتفقون على موضع معيّن للتاريخ هل هو علم (بمفهوم علم شرعي) أم فرع في الفلسفة أم علم بيان أو بلاغة[٤٠].

هكذا تشكل التاريخ في صورة «صنف» من المعرفة يختلط ويتميّز عن علم التاريخ التقليدي. مثلما ما يبدو في موسوعة حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام الاجتماعي والثقافي والإقتصادي وفي كتابات الخضري بك: محاضرات...[٤١]

لا شكّ أنّ رؤية أصحاب هذه المؤلفات الأولى (التي جسمت إنبثاق علم تاريخ عربي حديث) لم تدرس، ولم تعرف بالتالي التطورات التي شهدها الوعي التاريخي العربي المعاصر. هناك بعض الملاحظات البديهيّة منها أن هذه المؤلفات تتبع ما تقوله المصادر عن قرب شديد إلى حدّ أنّها تعيد إنتاج ما يحويه تاريخ الطبري بصفة خاصّة، لكن إعادة الإنتاج هذه لا

تتخذ شكلاً نقلياً كما هو الشأن بين الطبري وابن الأثير وإنما تسعى لتشكيل جديد للمادة التاريخية. ما يميزها كذلك هو التخلص من الشكل الحولي للمصادر القديمة الذي يعوضه تحقيب جديد يرتكز على تميز بين فترات حكم الخلفاء. نلاحظ كذلك سعي أصحابها الى التوفيق بن الروايات المصادر وترقيع بعضها ببعض. أمّا إذا نظرنا إليها من زاوية المنهج التاريخي المطلق نلاحظ بسهولة أنها لا تقف موقفاً نقدياً من المصادر، بل تتوق إلى قبول الأمور على علاتها، كما أنّها لا تطرح قضايا تاريخية محددة بل تطغى عليها الصبغة الإخبارية عن الماضي... وأنّها تتركز خاصة على التاريخ السياسي العقائدي. خلاصة القول أن مؤلفات المرحلة الأولى مثلت شيئاً من الاستمراريّة مع المؤرخ القديم: من الطبري إلى ابن الأثير، ولكن فيها ما يشير الى الدخول في نسق جديد من التقديم والصياغة. من العبث العثور على نقطة نهاية لهذا التيار المبسط للتاريخ والمختصر على جانبة الإخباري، لأنّنا نجده في بعض الحالات مستمر إلى الآن ويؤدي بعض الأدوار الثقافيّة الخاصّة. ما هو أهمّ هو أنّه مهد الطريق لانبثاق وعي تاريخي على يد بعض الرموز الكبار الذين زاد إنفتاحهم على مكتسبات المنهج وأصبحوا من كبار الأكاديميين العالميين من أمثال الأساتذة أحمد صالح العلي وعبد العزيز الدوري. ومحمد الطالبي وغيرهم... تغذوا من معارف الجيل الأوّل ولكن حققوا للدراسات التاريخية إرتقاء كبيراً جعلهم أبرز ممثلين لعلم التاريخ العربي المعاصر ولقوا اعترافاً دولياً تشهد عليه مساهماتهم الكثيفة في مشروع دائرة معارف الإسلام.

هؤلاء كان لهم دور في تأسيس أقسام التاريخ في الجامعات العربية، ثم في ترويج الإهتمام بالتاريخ وتوسيعه لكن إبتداء من الخمسينات يصبح من العسير التطرق للكتابة التاريخية العربية بشكل موحد لأن الجامعات المستحدثة ستنشأ في مناخ الدولة الجديدة وستتأثر قليلاً أو كثيراً بتوجهاتها السياسية، مما سيحدد في نفس الوقت غائيات البحث التاريخي ودرجة إنفتاح الجامعات العربية على الجامعات الغربية، ناهيك عن إنعكاسات تفاوت التجربة الثقافية مع الإستعمار من قطر لآخر لهذه الأسباب مجتمعة سنركز اهتمامنا على الأدبيات التاريخية التونسية وسنتوق إلى التعميم وإلى المقارنة مع بلاد المغرب وبلاد المشرق العربي، كلّما أمكن ذلك. سوف لن يتعلق الأمر بتقييم معياري لأعمال أولئك الذين كان لهم دور كبير في تكويننا، ولا بحوصلة لما قطعه البحث التاريخي من أشواط(٤١) مكرر بقدر ما هو إحاطة «فلسفية» منتبهين إلى أثر البحث التاريخي على الثقافة فليضمن لنا القارئ حقّ الاجتهاد.

المؤرخ والثقافة: الدور الممكن

إن التطرق للدور الثقافي للمؤرخ من خلال «الحالة التونسيّة» يكتسي في الواقع بعض الطرافة، لأنّ الأدبيات التاريخية حققت تقدماً ملحوظاً وبقيت في نفس الوقت محدودة الأثر على الذهنيّة الثقافية السائدة. أنشأت الجامعة التونسية أواخر الخمسينات وكان تنفيذاً لمشروع التحديث الاجتماعي والثقافي الذي حوته الحركة الوطنية والذي انطبع بعد الإستقلال بطابع التوجهات السياسية، لذلك كانت الجامعة الفتية امتداد للجامعة الفرنسيّة ونسجاً على منوالها.

لا يختصر ذلك على حقل التاريخ بل يتعداه الى الحقول الأخرى: الآداب والحقوق وغيرها. ولذلك ورثت بعض التجارب السابقة للاستقلال ومنها تجربة معهد الدراسات العليا الذي كان يهيئ الطلبة التونسيين وغيرهم للالتحاق بالسوربون. جلّ أساتذة هذا المعهد كانوا من الفرنسيين الذين يعكسون بالضرورة درجة التطور البحث التاريخي الفرنسي. على أيديهم تكوّن من سيصبحون بعد الإستقلال أساتذة لكليّة الآداب ومنهم في حقل التاريخ الأستاذ هشام جعيط، والمرحوم عمر السعيدي.

حوت الجامعة التونسية منذ تأسيسها على نواة قويّة من المتدربين على دقائق البحث التاريخي. وحاولوا أن يجسموا وأن يحافظوا على هذه التقاليد سواء من خلال دراساتهم أو من خلال تعليم نخبوي مركّز.

لم تكن الجامعة التونسية وريثة التعليم التقليدي الزيتوني (الذي ألغي بين سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٦٢) بل نشأت إلى حدّ ما على أنقاضه. ممّا له مغزاه الكبير أن أبعد من الجامعة الطموحة المثقف الموسوعي ولم يؤخذ مأخذ الجدّ مهما بلغت معارفه، بل أصبح رمز لمعرفة سطحيّة ولاغية..أكثر من هذا تواصل

مناخ من الحذر تجاه كلّ عنصر لم تفرزه الجامعات الفرنسيّة حتى ولو كان أستاذاً للغة والآداب العربية...

لئن تقلص شيئاً فشيئاً الطابع النخبوي للجامعة التونسية فإنّها ما زالت تحتفظ بجديّة تدّل عليها منشوراتها الدوريّة. من هذه الدوريات كراسات تونس وحوليات الجامعة التونسية. ففي حقل التاريخ أنتجت عدة دراسات هامة سواء في التاريخ القديم أو الحديث فتحت هذه الدراسات الطريق لجيل ثان من الباحثين هو الآن بصدد التعميق والتكوّن... في حقل البحث، تركز إهتمام الجامعة التونسية على تاريخ تونس لكن يبدو أنها حققت إنفتاحاً تدريجياً وتوسيعاً لأفق البحث...كان للأستاذ عبدالجليل التميمي الفضل في ترسيخ البعد العثماني ...وكان للأستاذ هشام جعيط والمرحوم عمر السعيدي وراضي دغفوص الفضل في ترسيخ البعد الشرقي القديم، كما كان للأستاذ جنحاني دور في ترسيخ البعد المغاربي.. للأستاذ حسين فنطر توسيع الإهتمام بالتاريخ الفينيقي..

لقد اكتسبت الجامعة التونسية وبسرعة رصيد علمياً هاماً، خاصة في التاريخ المعاصر والحديث من ذلك أعمال الدكتور على المحجوبي والمرحوم بشير التليلي ومصطفى كريّم محمد الهادي الشريف. كان لهذه الدراسات دور كبير في أن أبقت الجامعة رمزاً للحقيقة وللمعرفة وأعطت بذلك توازناً للحياة الثقافيّة بالبلاد.

كما كان للمؤلفات الجامعية في حقل التاريخ دور آخر تمثل في ما يشبه «تأميم البحث التاريخي» لأنها فككت بصورة تدريجيّة فرضيات المؤرخين الفرنسيين وتجاوزتها أحياناً وارتقت الى حدّ النقد النظري الواضح كما يبدو في كتابات هشام جعيط[٤٢] من هذه الزاوية يمكن المقارنة مع دور المؤرخين في الجزائر وفي المغرب أيضاً. ففي الجزائر نشط عدد كبير من المؤرخين الشبان وكشفوا الأبعاد الأيديولوجية والسياسية للإشكاليات التي صاغها المؤرخون الفرنسيون. أما في المغرب فقد ارتقى هذا النقد إلى درجة «المشروع» الواضح في كتاب عبدالله العروي[٤٣]: «تاريخ المغرب: محاولة في الإستخلاص» وهو عبارة عن «برنامج عمل» لكشف الأبعاد الإيديولوجيه للبحث الإستعماري وبيان محدداته المعرفيّة أيضاً.

لقد كان لهذا الدراسات دور هام وواضح في مستوى تكوين أجيال متوالية من طلبة أقسام التاريخ لكن ماذا عن أدوارها الثقافية؟

كان للبحث التاريخي سمات منها اتجاهه إلي كتابة «مونوغرافيات» على شاكلة المونوغرافيات الفرنسية، يستوفى فيها الباحث موضوع دراسته بشكل نهائي معتمداً على توثيق رصين.

تلقت «المدرسة التونسية» هذا الضغط المنهجي لمدارس التاريخ الفرنسية وأفرزت عدة مونوغرافيات على شاكلة المونوغرافيات الفرنسية المستوفية لوثائق الموضوع. لكن الناظر في تركيبتها يجدها متمحورة حول الأبعاد السياسيّة فما هو قبل الحماية يؤثر إلى الاستعمار، وما هو بعد الإستعمار فيتمحور إمّا علي كشف أبعاد السياسة الإستعمارية أو كشف مناهضة الشعب لهذه السياسة...في شكل حركة نقابيّة أو حركة فكريّة أمّا الجوانب الثقافية الحيّة والفاعلة فأصبحت الى حد ما تذكّر إمّا بثقافة «المثقف الموسوعي» المنظور إليها كأنّها ثقافة إخبارية غير ذات جدوى أو تذكر بالأتنوغرافيا الاستعمارية وإهتمامها بها يبدو هامشياً علىَ التاريخ.

لا نعني هنا أن التاريخ الثقافي قد أهمل[٤٤] بل نعني على وجه التحديد أن الحياة الاجتماعية – الثقافية تتواتر وتتناغم مع التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي وإلاّ بقيت (أو أبقيت) في نفس المنظور الذي رسمته لها الإتنوغرافيا الإستعمارية، باعتبارها متضمنة لعناصر غير تاريخية (غير خاضعة للتطور) الشيء الذي يتوق المؤرخ إلي تفنيده عن طريق البحث الرابط بين كلّ أوجه الحياة. من هذا المنظور تصبح المستويات الفكريّة التي تعكسها الإجتهادات الفقهيّة والتفاسير ومختلف التعبيرات الشعبية من صلب التاريخ ولعلها من أكثر أوجهه دلالة وحيوية. من حسن الحظ أن الوضع يتجه الى التغيير بعد صدور عدة دراسات منها كتاب الأستاذ توفيق بشروش «الولي والأمير»[٤٥] وبعد العناية التي أصبحت تلقاها الذاكرة الشعبيّة من إهتمام على أيدي الباحثين من مركز دراسات الحركة الوطنية.

نقف هنا على ما نعتقده نقطة ضعف أولى في الأثر الثقافي

للبحث التاريخي وهو عجزه النسبي على الإرتباط بالوعي الشعبي الحي (المتضمن بطبيعته لحس تاريخي) وعجزه في أن يصوغ تاريخاً جماعياً أو وعياً جديداً بتاريخيّة الماضي (وتاريخيّة الماضي تولّد تاريخيّة الحاضر). ذلك لأن الوعي التاريخي الشعبي لا يتمحور حول الحقيقة المجرّدة التي يسعى المؤرخ للإحاطة بها بواسطة الإحصائيات الاقتصادية والديمغرافية وإنّما يتمحور دائماً حول المستويات الثقافية التي يجب أن تدرس في تاريخيتها وفي سيرورتها وتحولها.

هذا هو السبب الأوّل في إعتقادنا محدوديّة الأثر الفكري للدراسات التاريخية على الثقافة، ذلك لأن الثقافة، ثقافة اليوم تتجدد لا في حاضرها وإنّما من خلال علاقتها المتكاملة والمتنافرة مع ثقافة ماضيه القريب أو البعيد، وللمؤرخ دور كبير في هذا التجديد. أمّا عن الوضع الحالي فهناك ما يشبه الإنقطاع بين دارس للتاريخ وبين مشتغل بالفكر والثقافة.

هناك نقطة ضعف أخرى كانت في إعتقادنا من أسباب ضعف الدور الثقافي - الفكري للمؤرخ في تونس - وفي البلاد العربية عامة - تتمثل في ندرة الإفرازات المنهجية والفلسفية للمؤرخ. فالمنهج التاريخي يمرر بطريقة ضمنيّة في صلب الكتابة والتدريس لكنه لا يبلور في كتابات، ناهيك عن أن الجامعة التونسية لم تنشر كتاباً واحداً في المنهج التاريخي، والمنهج لم يلحق بنظام الدراسات كمادة تعليمية إلاّ في الثمانينات.

لقد أثر هذا الأمر سلباً على الدور الثقافي الفكري للمؤرخ، حيث لم تتضح حدود المقاربة التاريخية في الذهنيّة الثقافية العامّة وأحياناً عند الدارسين الشبان أنفسهم. الجانب الأكثر خطورة في إنعدام الأدبيات المتصلة بالمنهج وبفلسفيات التاريخ أنها أدت الى شكل من إنحلال للتاريخ في سياق الاهتمامات الثقافية العامة، لم يعد من النادر أن يتحول مثقف لا يسيطر أدوات المقاربة التاريخية إلى مهتم بالتاريخ، و ليس من الصعب أن تقع يده على موضوع تاريخي (غالباً ما يكون شخصية تاريخية) لا تتم هذه المحاولات في حدود تقاليد المثقف الموسوعي الذي كنا رسمنا ملامحه في فقرة سابقة (أي الذي لا هدف له إلاّ ترويج معرفة تاريخيّة «محايدة» ومثرية بل تتم في إتجاه استنتاجي كأن يصبح أثر ما أو تيار ما ممثلاً لتاريخ فترة من الفترات. لا شكّ أن هذه «الاستنتاجات» تروج في المجتمع وعياً خاطئاً يزيد في إرباك الحياة الفكريّة لأنها تسقط وسط حياة ثقافية مفتقرة لخارطة فلسفيّة وقد ترحب بهذه الإستخلاصات أنها تقدم في ميدان البحث التاريخي! تتلاقح هذه الإستنتاجات والمقارنات مع شباب متعطش للمعرفة والفهم وتؤدي له أسوأ الخدمات بأن تعمق عنده الإحساس بأن كل شيء قابل للفهم دون ثمن علمي عال، وتهيئه بالتالي للأدلجة وتعقم عيه ضد كل إبداع.. في هذا الظرف يغيب الفكر التاريخي المؤهل - بطبيعته - لتعديل الرؤى.

أمّا عن دور الثقافي الثاني، المتمثل في ترويج صور الماضي في تنوعه وثرائه.. فهو أيضاً من مهام المؤرخ وقد رأينا أن المثقف الموسوعي مارسها بحذق كبير في النصف الأول من هذا القرن[٤٦]. لكن يبدو أن البحث التاريخي الأكاديمي والمركز ضعيف المردود الثقافي المباشر لأنّه إذا ما هدف الى «تحرير قوي جديد من التاريخ» (التعبير لهشام جعيط)، واتخذ طابع إشكالياً علمياً، فإنه يتطلب من الصبر والأناة ما لا يترك مجالاً للتفكير في الثقافة بمفهومها المبسط ويختصر على تغذية الثقافة بما يشبه المعارف «الاستراتيجية» لكن إطلاع المؤرخ يتجاوز دائماً حاجاته، لأنّه يعثر على ما لا يريد أحياناً ولا يجد ما يريد غالباً. ولهذا تتوفر له فرصة لا تتوفر لغيره على الإطلاق، فرصة الإطلال على مظاهر الحياة المتنوعة في مظهرها الإنساني والبسيط. من هنا تتولد إمكانية تنويع الرؤيا للتاريخ وجعله تاريخاً إنسانياً وجميلاً، متضمناً لتعبيرات حيّة عن السعي الأبدي للإنسان وراء حاجاته وتوازناته وطموحاته وتنظيماته. لقد أعجبت دائماً بكتاب آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري[٤٧] لما يتضمنه من إطلالات على الحياة اليوميّة في بساطتها و «سذاجتها».

هل يتحول المؤرخ الى راو إخباري؟

هذه المهمة تبدو لنا ضرورية أيضاً لأن لها أبعاد فلسفيّة كبيرة. فهي تناهض الإختزال وترسخ هويّة ثقافية إيجابية، وتغذي ثقافة اليوم وتزيد في قدرة الإبداع فيها.. أليست هذه

مشاكل اليوم بالذات عندما نلاحظ أن صورة التاريخ تسيطر عليها الرؤيا الإيديولوجية المسيسة والمتوترة لشدّة ما توليه من أهمية للاختلافات المذهبيّة ومشاكل الحكم.

ماذا عن دور المؤرخ في إثراء الصورة التاريخيّة؟

نشرت في تونس عدة كتيبات حققت هذه الغاية وروّجت صورة إيجابية عن التاريخ منها ما تطرق للعمارة القديمة، ولبعض مظاهر الحياة اليومية. وتكاملت مع بعض منشورات متصلة بالتراث الشعبي بصورة عامة. ما يلفت الإنتباه، أن السياحة لعبت دوراً مشجعاً لهذه المنشورات، لأن الأوروبي يأتي باحثاً عن تراث تاريخي أصيل وجميل. واستجابت هذه المنشورات لفضول بعض التونسيين أيضاً، خاصة في الأوساط الاجتماعية المنفتحة المتلاقحة مع الرؤيا الفنية الغربية. هل يعني هذا أن غير هؤلاء ليس له اهتمام بالتاريخ وبتنوعه؟ هناك في الواقع اهتمام كبير بالماضي واكتشاف له وتساؤل مستمر عن الأصول والجذور بدأ ينبثق في قطاعات اجتماعية واسعة وخاصّة لدى أولئك الساهرين على حضوض الترويج الثقافي. لكن هناك أيضاً قطاعات من الشباب ما زالت شغوفة بالرؤيا الفكريّة للتاريخ، باحثة فيه عن حلول لمشاغل الحاضر ومتهافته على الحلول وغير قادرة في نفس الوقت على التحكم فيها. هناك مرة أخرى دور كبير للمؤرخ وقد يكون الوضع الحالي يشهد على ضعف الجهود في هذا المضمار.

هذه هذه ملامح دور المؤرخ في تونس وفي بلاد المغرب عامّة ولا شك أن هذا الدور يختلف عما هو في بلاد المشرق أحد خطوط الإختلاف الهامة أن المشرق لم يشهد قطيعة بين المثقف الموسوعي الذي رسمنا ملامحه في فقرة سابقة وبين المؤرخ المنفتح على مناهج علم التاريخ وتساؤلاته. قد يكون الفكر القومي الإعتزازي في مصر وفي العراق وفي سوريا وفي بلاد المشرق عامّة قد وفر مناخاً ملائماً لتواصل دور المثقف الموسوعي، ربّما لهذا السبب كان «المؤرخ المشرقي» أكثر أثراً ثقافياً وكان الفكر التاريخي أكثر صعوبات في التشكل، ربّما لهذا السبب أيضاً كان المؤرخ المغربي أقل أثراً ثقافياً وكان الفكر التاريخي أوضح ملامحاً منه في المشرق. هل يكون في تلاقح الوضعين وتكاملهما زيادة في دور المؤرخ في الثقافة؟

بقي القول أن واقع الثقافة العربية يبدو في أشدّ الحاجة للفكر التاريخي وللمؤرخ المسلح بفلسفته الخاصة وما تمليه عليه من واقعية في التفكير ومحسوسية في الإثبات، وتزمين للظواهر، ومراقبة للتطور، بهذا يمكنه أن يدخل التعديل والترتيب على كلّ الفعاليات الثقافية والفكرية، خاصة عند استنادها إلى التاريخ. إن المحاولات الجارية منذ السبعينات تعني ضمنياً الدخول في مرحلة تاريخية جديدة. حتى ذلك التاريخ كان من الممكن الإكتفاء بالكشف الثقافي. بعد ذلك التاريخ برزت قضايا البناء الاجتماعي الداخلي: الديمقراطية، المجتمع المدني، البحث العلمي...ما هو واضح في إعتقادنا أن ركوب الزمن الثقافي، في التطرق لهذه القضايا، جعل الفكر لا فقط يحوم غالباً حول نفسه، بل أصبح يدمّر أسس الهويّة التي رسختها ثقافة بداية القرن، في حين تحكم الإنسانية زمنيّة التاريخ.

الهوامش

1- Laroui Abdallah, La Crise des intellectuels arabes - Paris: ed. Maspero, 1974.

٢- الجمعية العربية لعلم الإجتماع «الإنتلجنسيا العربية» أعمال ندوة الجمعية العربية علم الاجتماع (تونس) الدار العربية للكتاب ١٩٨٩.

٣- هشام جعيط، الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر - بيروت: دار الطليعة، ١٩٩١.

٤- طه حسين الفتنة الكبرى - القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨، جزآن.

٥- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات المجمع العلمي العراقي ٥٣

٦- Faire de l'histoire I- nouveaux problèms, II Nouvelles approches, III Nouveaux objects. Paris Gaillimard Collectif) 1974.

٧- ما يبعث على شيء من الأمل هو صدور كتاب لعبد الله العروي كان وعد به منذ السبعينات، عنوانه «مفهوم التاريخ» جزءين، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢. قبل هذا لا نعلم إلاّ ببعض المحاولات. منها مثلاً: قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٩. حسن عثمان، منهج البحث التاريخي - القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥! فؤاد شبل، توينبي: مبتدع المنهج التاريخي - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ – الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٥ وهناك أيضاً بعض الترجمات، نذكر منها: جوستاق لوبون، فلسفة التاريخ تعريب عادل زعتير، كولنجوود، فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل – القاهرة: لجنة التأليف والترجمة ١٩٦١، لانجلوا – وسينوبوس: النقد التاريخي، ترجمة عبدالرحمن بدوي، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٥٩، وولش المدخل الى فلسفة التاريخ، ترجمة أحمد حمدي محمود، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٢.

– آرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، المؤسسة المصرية (د.ت)

– البان ويدجري، التاريخ وكيف يفسرونه، ترجمة العزيز توفيق جاويد – القاهرة: الهيئة المصرية، ١٩٧٢.

٨– محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧.ص٥٦.

٩– عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب – بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠، مجموعة مقالات، فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة أحمد صالح العلي – بغداد، ١٩٦٣، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، عرّبه عبد الحليم النجار – القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣، هاملتن جيب، مقال تاريخ، دائرة معارف الإسلام، النشرة الأولى، عرّب هذا المقال في كتيب مستقل ضمن سلسلة كتيب دائرة معارف الإسلام وصدر بعنوان علم التاريخ – بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١.

هناك عدة محاولات أخرى ذات طابع إستعراضي منها: محمد عبد الغني حسن، علم التاريخ عند العرب – القاهرة: مؤسسة المطبوعات الحديثة، ١٩٦١.

هناك محاولات أخرى، لكنها إستعراضية صدرت بعد صدور كتاب الجابري منها، عبدالعزيز سالم التاريخ والمؤرخون – بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٦، أحمد رمضان أحمد، تطور علم التاريخ الإسلامي – القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٩

– شاكر مصطفى، التاريخ والمؤرخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام. بيروت دار العلم للملايين، ١٩٨٠، جزآن.

– أما عن اللغات الأخرى، فهناك مقالات عديدة، بصفة خاصة في المجلات المختصة ويمكن مراقبتها بسهولة تامة بواسطة Index Islamicus الذي يصدره Pearson وقد جمع فيه كل إنتاج القرن العشرين ابتداء من ١٩٠٥.

١٠– محمد عبد الحي شعبان، الثورة العباسية، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، دار الدراسات الخليجية.

١١– فاروق عمر فوزي، طبيعة الدعوة العباسية – بيروت: دار الإرشاد، ١٩٧٠.

١٢– انظر مناقشة الأسس الفلسفية لمقاربة الجابري في كتاب عزيز عظمة، التراث بين السلطان والتاريخ – بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٠، ص ١٤٥–١٢٩. أمّا من الناحية التاريخية فإنه يأخذ بنظريات الإستشراق الألماني في أواخر القرن التاسع عشر، حين يعتبر أن الثورة العباسية كان ثورة للعناصر الغير عربية في الدولة. هذه النظرية شاعت بواسطة يوليوس ولهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، (د.ت).

لقد وقعت مراجعتها بصورة جذرية على يد كلود كاهين (وجهة نظر حول الثورة العباسية) وكذلك Point de vue sur la révolution abbasside, Revue historique, 1963. ببحوث كلٍّ من محمد عبد الحي شعبان وفاروق عمر إضافة لدراسة حديثة Moshe Sharon. Balck banners from the east: The establishment of the Abbasid State. Incubation of Revolt Leiden, 1983.

١٢مكرر– لا يمكن إحصاء المقالات التي استغل فيها أصحابها رؤية ابن خلدون مباشرة ودون المرور من التأطير التاريخي. الضروري. هناك سؤال لا يطرح إلاّ نادراً رغم أهميته: مدى علمية روية ابن خلدون وموقعها من تطور الوعي العلمي المعاصر انظر في هذا الشأن عبدالله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ: الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ١٩٨٣ فصل ابن خلدون وميكافيل.

١٣– عبدالله العروي، العرب والفكر التاريخي – بيروت: دار الحقيقة، ١٩٨٠، عدة نشرات أخرى.

١٤– برزت هذه النتائج من خلال اطروحتنا حول العائلات الموالية لبني أمية: Les notables de la tribu de badjala a' l'époque Omeyyade origine tribale et roles politiques, These université de Lyon, 1983 لم تنشر.

١٥– الطبري، التاريخ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأول، ص ٨–٧.

١٦– أنظر تلك أعمال محمد أركون، الفكر الاسلامي: قراءة علمية. بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٨٧، وانظر أيضاً لنفس الباحث: تاريخيّة الفكر العربي الاسلامي، بيروت، نفس الناشر، ١٩٨٦ الفصل الأوّل، ص ١٢ وما يليها لنفس المؤلف كتاب صدر حديثاً أين هو الفكر الاسلامي؟ بيروت: دار الساقي، ١٩٩٣.

١٧– أنظر عبدالله العروي: مفهوم التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٩٢.

١٨– انظر جريدة لوموند، الثلاثاء ١٩ ماي ١٩٩٢، حيث يتحدث فرانسو فوري عن أزمة العلوم الاجتماعية... لهذا المؤلف عدة منشورات مجددة في رؤيتها لتاريخ الثورة الفرنسية، وموسعّة لطرق المقاربة والفهم التاريخيين.

١٩– أنظر الانتلجنسيا العربية، المصدر المذكور، مقال طاهر لبيب: العالم والمثقف والانتلجنسي، وكذلك مقال الحبيب الجنحاني: المثقف والأمير.

٢٠– طاهر لبيب: سوسيولوجية الثقافة – تونس، ١٩٨٨ ص ٣٨ وما بعدها.

٢١– أنظر محمد أركون، الفكر الاسلامي، قراءة علمية، ص١٧.

٢٢– محمود محمد الطنّاجي، مدخل لدراسة تاريخ نشر التراث العربي – القاهرة مكتبة الخانجي، ١٩٨٤.

٢٣– هاشم جعيط Djaït Hichem. Culture et politique dans le monde arabe in Débat No 53, Janvier - Fevrier 1989 - Gallimard.

٢٤– Bernard Lewis Comment l'Islam a decouvrert l'Europe, Paris: La decouverte, 1984 Chapitre Histoire fabuleuse et géographie exàcte, P. 131.

٢٥– محمد سعيد وجورج حداد: الفهرس التجميعي للكتاب العربية المقتنات من قبل المكتبات الفرنسية، ١٩٨٣ – ١٩٥٢. ألمانية: منشورات سور، ١٩٨٤.

٢٦– علي الزيدي، تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية، تونس، منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات، ١٩٨٦، ص٥٨.

٢٧– علي الزيدي، لنفس المصدر، ص٢١٩–٢١٨.

٢٨– علي الزيدي، نفس المصدر، ص ٢٢٩–٢٢٨.

٢٩– Hichem Djaït l'Europe et l'Islam - Paris, Seuil, 1974.

Abdallah Laroui, Histoire du Maghreb: Essai de Synthese - Paris: Maspero. 1982.

Edward Said L'orientalisme, l'orient crée par l'occident, Paris, Seuil, 1980.

وقد ترجمت الى العربية أوروبا والإسلام، ترجمة طلال عتريسي – بيروت: دار الحقيقة، ١٩٨٠ وتاريخ المغرب ترجمة ذوقان قرقوط، ونشر بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧ صدرت ترجمة أخرى لهذا الكتاب. أمّا الاستشراق: فقد ترجمه كمال أبو ذيب ونشر بيروت مؤسسة الأبحاث العربية.

٣٠– عبد الله العروي: مفهوم التاريخ ج ١ص.

٣٠ مكرر – كان لويس ماسينيون عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة إلى جانب التونسي حسن حسني عبد الوهاب.

٣١– جولد تسيهر، العقيدة والشريعة، القاهرة: دار الكتاب المصري ١٩٤٦ أنظر هوامش المترجم.

٣٢– جولد تسيهر نفس المصدر، المقدمة.

٣٣– عزيز العظمة، نفس المصدر ص ١٤٦ وما بعدها.

٣٤– Ahmed Abdesselem, Les Historiens tunisiens des XVII, XVIII, et XIX siécles, Tunis, Faculté des lettres, 1973 P 466.

٣٥– نفس المصدر ص ٤٦٧

٣٦– نفس المصدر ص ٤٦٧

٣٧– لا ينطبق هذا على تدريس التاريخ في تونس كما سنبين ذلك نظراً لأن قسم التاريخ لكلية الآداب سوف لن يرث التعليم التقليدي بقدر ما سيرث معهد الدراسات العليا الفرنسي أنظر أسفل هذا.

٣٨– السبكي: الطبقات، ذكره خليل الميس في مقدمة تحقيقه لكتاب تهذيب التهذيب شهاب الدين علي بن حجر العسقلاني، نشر في بيروت: دار الفكر ١٩٨٤.

٣٩– نفس المصدر ص١٨.

٤٠– ابن حزم مراتب العلوم (ذكره أحمد عبدالسلام ص ٤٦٨)

٤١– حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٩ – ١٩٨٣.

الخضري بك – محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية (دم) المكتبة التجارية ١٩٦٩

٤١– مكرر – بالنسبة لحصيلة البحث التاريخي بتونس أنظر عدد خاص

من مجلة IBLA No159.

٤٢- هشام جعيط، أوروبا والإسلام.

٤٣- ذكر آنفاً.

٤٤- أصبح التاريخ الثقافي محل اهتمام في المدة الأخيرة فاضافة لكتاب المرحوم بشير التليلي حول العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب من خلال تونس (بالفرنسية) منشورات كلية الآداب تونس هناك اطروحة عياض بن عاشور عن العلماء (بالفرنسية كذلك) وقد أخذت المقاربات تنتبه الى تفاعل المستويات السياسية والمستويات الثقافية كما يبدو من خلال كتابين لم نطلع عليهما بعد الأول التليلي لعجيلي، الطرق الصوفية وعلاقتها بالاستعمار، منشورات كلية الآداب بمنوبة ١٩٩٣، والثاني هو كتاب لطيفة لخضر: الطرق الصوفية ودورها في الحركة الوطنية، اضافة الى نصوص وثائقية هي: « نور الارماش في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش، وأخبار المناقب على يد حسين بوجزة ولطفي عيسى، لم يسعفنا الظرف بالتثبت من صدورها.

٤٥- Bachrouch Taoufic. Le Saint et le Prince Tunis: Faculté des Sciences Sociales de Tunis 1989.

٤٦- انظر مثلاً: أحمد تيمور باشا، لعب العرب، القاهرة، دار نهضة مصر (لجنة نشر المؤلفات التيمورية).

٤٧- آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري عرّبه محمد عبد الهادي أبو ريدة، تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٦، جزئين.

خصوصيات استعمار الجمهورية الفرنسية الثالثة
١٨٧٠ - ١٩١٤

د. يقظان سعدون العامر
كلية التربية/ جامعة البصرة

حال وصول اخبار انحدار القوات الفرنسية أمام القوات البروسية في سيدان Sedan في الثاني من شهر أيلول ١٨٧٠ واستسلام الامبراطور نابليون الثالث وجيشه، تم اعلان الجمهورية الفرنسية الثالثة وتشكيل حكومة الدفاع الوطني، إلاّ أن القوات البروسية ضربت حصاراً على العاصمة الفرنسية في شهر أيلول واستمر حتى كانون الثاني عام ١٨٧١ عندما استسلمت باريس الى القوات الغازية، والذي رافقه اعلان دولة المانيا الموحدة من قصر فرساي، وبعد أن تم توقيع الهدنة بين الدولتين وانتخاب جمعية فرنسية جديدة، صادقت الأخيرة على بنود الدولتين وانتخاب جمعية فرنسية جديدة، صادقت الأخيرة على بنود معاهدة السلام الفرنسية – الألمانية في الأول من آذار عام ١٨٧١. وفي العاشر من مايو من نفس العام دخلت بنود هذه المعاهدة والتي عرفت بمعاهدة فرانكفورت حيز التنفيذ لقد كانت بنودها قاسية على فرنسا، فبالإضافة الى سلخ مقاطعتي الألزاس واللورين وضمهما الى المانيا والتي كان لها آثار بالغة على الصناعة الفرنسية[1]، فقد فرضت على فرنسا غرامة حربية تقدر بخمسة بلايين من الفرنكات الفرنسية، على أن تبقى القوات الألمانية جاثمة على الأراضي الفرنسية لحين دفعها. اعتبر الفرنسيون اندحارهم أمام الألمان هزيمة قاسية، لكنهم رفضوا قبول نتائجها. فبذلوا جهوداً كبيرة خلال الأعوام الأولى من عقد السبعينات من أجل التخلص من هذه النتائج. لذلك ركزوا اهتمامهم على الأوضاع الداخلية فتم دفع الغرامة الحربية، وجلت القوات الألمانية عن الأراضي الفرنسية. ثم توجهت الأنظار الى تنظيم الجيش الفرنسي استعداداً للثأر من المانيا. وبينما كان الاهتمام منصباً على الأمور الداخلية كان الفرنسيون يخشون، فيما يتعلق بالشؤون الخارجية، من العزلة الدبلوماسية. وانتقدوا وهاجموا سياسة التوسع الاستعماري التي انتهجها الامبراطور نابليون الثالث. واعتبروها بأنها ساهمت بشكل كبير في الهزيمة التي منيت بها فرنسا. فاعتقدوا بأنه كان بمقدور القوات الفرنسية في الجزائر والسنغال والهند الصينية أن تغير من نتيجة حرب السبعين لو أنها كانت متواجدة في فرنسا[2]. فكانوا يتساءلون: لماذا يتم تبديد ثروات وطاقات الأمة في هذه الأراضي البعيدة والغريبة؟ فكانوا يؤكدون على ضرورة الاحتفاظ بها حتى حرب الثأر مع ألمانيا[3]. وهكذا فإن أي صوت كان ينادي بضم مستعمرات كان يلعت بموالاته لألمانيا ويتهم بالخيانة العظمى. فقد قوبل احتلال تونس عام ١٨٨١ والخطوات التي تم اتخاذها لتعزيز الاستعمار الفرنسي في الهند الصينية بالمعارضه والعداء[4]. لذا فإن تصميم وقرار الفرنسيين في الأعوام القليلة التي أعقبت حرب السبعين هو الانتقام من المانيا واسترجاع الألزاس واللورين وعدم الاكتراث بالمستعمرات. وتوضح الكلمه التاليه التي قالها أديب فرنسي وجهة النظر الفرنسية أعلاه: (انني فقدت طفلين، وأنت تعرض عليه عشرين خادماً)[5].

لم يستمر موقف الفرنسيين من الحركة الاستعمارية طويلاً. فما أن حل عام ١٨٨٠ حتى أكملت فرنسا احتلالها لتاهيتي Tahiti والذي بدأته في عام ١٨٤٣، واحتلت تونس (١٨٨١) وأنام Annam في الهند الصينية (١٨٨٣) والصومال الفرنسي (١٨٨٤) وتونكين Tonkin في الهند الصينية (١٨٨٥) وجزائر اوسترال Austral Isles (١٨٨٩) وداهومي (١٨٩٢) ولاوس وشرق وادي نهر الميكونغ (١٨٩٣) ومدغشقر (١٨٩٦) وتم استئجار كوانجو Kwangchow (١٨٩٨)، واحتلت أفريقيا الغربية الفرنسية (١٩٠٩) وافريقيا الاستوائية الفرنسية (١٩١٠) وأخيراً المغرب (١٩١٢) وهكذا ازدادت رقعة الامبراطورية الفرنسية وسكانها. فبعد أن كانت رقعتها تقدر بمليون كيلومتر مربع وسكانها خمسة ملايين نسمه في عام ١٨٧٠ أصبحت بحلول عام ١٩١٤ أكثر من ٨ر٥ مليون كم^2 وبلغ عدد سكانها ٥ر٥٥ مليون نسمه[6].

إن الحجة التي استند عليها التوسعيون الفرنسيون هي أن على فرنسا أن توجد لها امبراطورية في آسيا وافريقيا ليكفل لصناعتها أسواق لتصريف البضاعة الفائضة وكذلك استثمار الأموال الفائضة في هذه الأسواق وليضمن توفير المواد الغذائية للفرنسيين والمواد الأولية لصناعاتها(٧). فقد ذكر فيري J.ferry رئيس وزراء فرنسا لفترتين الأولى (١٨٨٠-١٨٨٢) والثانية (١٨٨٣-١٨٨٥) أن (العملية الاستعمارية هي بنت التصنيع وبما أن عملية التصنيع انتشرت بشكل ملحوظ في أوروبا فإن كل بلد سيعمل على حماية منتجاته بفرض تعرفه كمركية عاليه. وبما أن الانتاج الفرنسي آخذ بالزيادة لذا توجب البحث عن أسواق جديدة. وأين باستطاعة الفرنسيين ايجاد ذلك إلاّ في آسيا وافريقيا؟ ففي الهند الصينية فإن الفرنسيين على اعتاب أكبر سوق في العالم حيث هناك أربعمائة مليون صيني. وبما أنه ليس لفرنسا من فائض سكاني...فإن الرأسمال الفرنسي يجب أن يستثمر هناك... وبما أن أوروبا تنتشر في كل بقاع الأرض وأن الحروب في المستقبل ستكون عالية لذا فإن الاسطول الفرنسي يجب أن يمتلك القواعد ومحطات تزويد الوقود(٨).

ويذكر فيري أيضاً أنه إذا أريد للأجور والإرباح وكذلك الانتاج أن لا تنخفض فإن الصناعة بحاجة الى أسواق استعمارية. فقد تمكنت بريطانيا من مواجهة هذا التهديد لهيمنتها الاستعمارية وذلك بفرض الحصار على القارة الأوروبية من جميع الجهات. وأن ألمانيا واجهت هذه المبادأة بمنافستها الذاتية. وأن على فرنسا أن تعمل نفس الشيء(٩). أما Eugene Etienne الجزائري المولد والذي تسلم منصب وكيل قسم المستعمرات في وزارة البحرية خلال الأعوام (١٨٨٧ - ١٨٨٨) و (١٨٨٩ - ١٨٩٢) فقد ذهب الى أبعد من ذلك عندما أكد أن وراء العملية الاستعمارية هدف واحد فقط لا غيره وهو الهدف الاقتصادي. فبعد أن اطلع على احصائيات الصادرات الفرنسية للأعوام ١٨٧٦-١٨٨٦ والتي أوضحت بأنها قد انخفضت من ٤٥١٨ مليون فرنك الى ٤٢٨١ مليون فرنك تساءل: (... ماذا ستفعل بمنتوجاتك إذا لم يكن بمقدورك تصديرها؟) لذلك حث على إيجاد أسواق. ففي الكلمة التي ألقاها في البرلمان في مايو ١٨٩٠ فيما يتعلق بموضوع الحملة الفرنسية على داهومي قال:

(...انني اعتقد أنه إذا أخذنا بنظر الاعتبار الآن حركة التوسعات الاستعمارية العالمية وبنفس الوقت غلق الأسواق الأجنبية بوجهنا واردنا أن نفكر جدياً بأسواقنا...فإنه من الحكمة النظر الى المستقبل وذلك لأن نؤمن للصناعة والتجارة الفرنسية أسواقاً هي مفتوحة لها الآن في المستعمرات..)(١٠).

فضلاً عن ذلك فقد ذكرت بعض الدراسات بأن «الاعتبارات الاقتصادية لعبت دوراً حاسماً في التوسع الاستعماري الفرنسي خلال الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى». وتستطرد هذه الدراسات بأن الرأسماليين المتمثلين بأصحاب البنوك والصناعة قد تعاونوا فيما بينهم وشكلوا ما اطلق عليه بـ (الحزب الاستعماري) The Parti Colonial الذي استخدم أجهزة الدولة لضمان مشروعات اقتصادية في المستعمرات(١١) يهدف هذا البحث الى دراسة مدى صحة هذه الحجج، ويحاول أيضاً الكشف عن الخصوصيات التي امتاز بها الاستعمار الفرنسي خلال الفترة ١٨٧٠ - ١٩١٤ عن باقي الاستعمار الأوروبي وبخاصة البريطاني.

من أجل إيضاح ذلك، يجدر بنا أولاً دراسة خصوصيات المجتمع الفرنسي. ففيما يتعلق بتركيبة المجتمع الفرنسي أو بخاصة السكان فإنه بعد أن كانت فرنسا في عام ١٨٣١ ثاني أكبر دولة أوروبية بعد روسيا القيصرية من حيث السكان حيث بلغ عدد سكانها (٣٢ر٥) مليون نسمه مقارنة مع سكان بريطانيا البالغ (١٦ر٢) مليون نسمه(١٢)، أصبحت فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى من أقل الدول الأوروبية الكبرى عدداً. والجدول رقم (١)(١٣) يبين ذلك.

جدول رقم (١)

السنة	فرنسا		بريطانيا		المانيا	
	عدد السكان بالآلاف	نسبة الزيادة ٪	عدد السكان بالآلاف	نسبة الزيادة ٪	عدد السكان بالآلاف	نسبة الزيادة ٪
١٨٣١	٣٢ر٥٦٩	٣ر٥	١٦ر٢٦١	١٥ر٤	٢٩ر٧٦٨	-
١٨٤١	٣٤ر٢٣٠	٥ر١	١٨ر٥٣٤	١٣ر٩	٣٢ر٧٨٥	١٠ر١
١٨٥١	٣٥ر٧٨٣	٤ر٥	٢٠ر٨١٧	١٢ر٣	٣٥ر٩٠٠	٩ر٤
١٨٦١	٣٧ر٣٨٦*	٤ر٥	٢٣ر١٢٨	١١ر١	٣٨ر١٣٧	٦ر٢
١٨٧١	٣٦ر١٠٣**	-٣ر٤	٢٦ر٠٧٢	١٢ر٧	٤١ر٠١٠	٧ر٥
١٨٨١	٣٧ر٦٧٢	٤ر٣	٢٩ر٧١٠	١٣ر٨	٤٥ر٢٣٤	١٠ر٣
١٨٩١	٣٨ر٣٤٣	١ر٨	٣٣ر٠٢٨	١١ر١	٤٩ر٢٣٤	٩ر٢
١٩٠١	٣٨ر٩٦٢	١ر٦	٣٧	١٢	٥٦ر٣٦٨	١٤
١٩١١	٣٩ر٦٠٥	١ر٧	٤٠ر٨٣١	١٠ر٣	٦٤ر٩٢٦	١٥ر١

* ضم نيس وسافوي

* * خسرت فرنسا الألزاس واللورين وضمتهما المانيا لها.

ان سكان المانيا خلال الفترة ١٨٧١ – ١٩١١ ازداد بنسبة (٤٨٫٦٪) وبريطانيا بنسبة (٤٧٫٢٪) بينما كانت نسبة الزيادة في فرنسا لا تتعدى (٤و٩٪). أما الزيادة السنوية في السكان خلال الفترة ١٨٨١ – ١٩١١ فكانت في بريطانيا (٤١٫١٪) وفي المانيا (٤٥٫١٪) وفي بلجيكا (١٥٫١٪) بينما في فرنسا كانت (٢٤٫٠)[١٤] وهكذا فبعد أن كان نفوس فرنسا يشكل (١٥٫٧٪) من نفوس أوروبا في عام ١٨٨٠ أصبح بحلول عام ١٩٠٠ لا يشكل إلاّ (٩٫٧٪)[١٥] ولو أن سكان فرنسا كان قد ازداد بنفس النسبة التي ازداد بها البريطانيون بعد عام ١٨٥٠ لبلغ عدد الفرنسيين قبيل الحرب العالمية الأولى (٦٠) مليون بدلاً من (٣٩) مليوناً[١٦].

ويرجع انخفاض سكان فرنسا الى عوامل عديدة. فقد انخفضت نسبة زيادة الولادات الى الوفيات لكل عشرة آلاف نسمه من (٢٧) خلال الأعوام ١٨٨١ – ١٨٨٥ الى (١٢) والى (٣) فقط خلال الأعوام ١٨٩١ – ١٨٩٥ لترتفع الى (١٦) خلال الأعوام ١٨٩٦ – ١٩٠٠[١٧] فضلاً عن ذلك ارتفع عدد وقوعات الانفصال بين الأزواج، وازداد تأثير الدعاية خلال عقد الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر من أجل تنشئة عوائل صغيرة ورغبة بل قناعة الطبقة الوسطى والعاملة وحتى المزارعين في تكوين عوائل صغيرة وذلك لصغر مساحة الأرض التي يمتلكها كل منهم[١٨] بل كان يتم تدوين شرط عدم الإنجاب لأكثر من طفل واحد في وثيقة زواج المزارعين[١٩] تفادياً للتناقض القائم بين قانون نابليون الذي ينص على تقسيم الأرض بين الورثة جميعاً وبين العرف الجاري الذي يمنح الارث لشخص واحد[٢٠] وفي الواقع أن هذه (الفردية) التي اتصف بها الفرنسيون لا تقتصر على المزارعين فحسب بل أنها شملت الطبقات الأخرى التي كانت تريد أن تنعم عند الكبر بحياة هانئة[٢١] وقد اهتم الفرنسيون بهذه (الفردية) من دون الاكتراث بالنتائج المترتبة عليها وآثارها على المجتمع[٢٢].

أما فيما يتعلق بتوزيع سكان فرنسا على أساس الفئة العمرية فإن الجدول رقم (٢) يوضح أن سكان فرنسا لعام ١٨٨١ من الفئة العمرية ٤٥ عاماً فما فوق يشكلون (٢٨٫٥٪) أي ما مجموعه (١٠٫٧) مليون نسمه مقارنه بـ (١٨٫٨٪) أي (٤٫٩) مليون نسمه في بريطانيا. أما سكان فرنسا من هم بأقل من ٤٥ عاماً فإنهم كانوا يشكلون (٧١٫٥٪) أي (٢٦٫٩) مليون نسمه. بينما يشكلون في بريطانيا (٨١٫٢٪) أي (٢٤٫٨٪) مليون نسمه. ان هذا يعني أن سكان فرنسا كان يتجه نحو مرحلة الشيخوخة[٢٣]. فبحلول عام ١٩٠٠ كان (٣٥٫٦٪) أي (١٣٫٦) مليون نسمه من سكان فرنسا من الفئة العمرية التي تزيد عن ٤٠ عاماً[٢٤].

جدول رقم (٢)[٢٥]

الفئة العمرية	فرنسا		بريطانيا	
	عدد السكان بالملايين	النسبة٪	عدد السكان بالملايين	النسبة ٪
أقل من ١٤ عاماً	١٠	٢٦٫٧	٩٫٤	٣٦٫٥
١٥–٤٤ عاماً	١٦٫٣	٤٤٫٨	١١٫٦	٤٤٫٧
٤٥–٦٤ عاماً	٧٫٧	٢٠٫٨	٣٫٧	١٤٫٢
أكثر من ٦٥ عاماً	٣	٨	١٫٢	٤٫٦

ومن الآثار السلبية لعدم الإنجاب أيضاً هو أن فرنسا أخذت تعاني من نقص في الأيدي العامله في كافة مرافق الحياة حتى الزراعة[٢٦].

مما أصبحت محط جذب العمالة الأجنبية وبخاصة السويسرية والبولندية والبلجيكية والإيطالية[٢٧] والإسبانية[٢٨] فقد بلغ عدد الأجانب في عام ١٨٨١ مليون شخص شكل البلجيكيون وحدهم نسبة (٤٦٪) من المجموع الكلي[٢٩]. وأخذ العدد بالإزدياد في الوقت الذي أخذ الفرنسيون بمغادرة بلدهم. فقد بلغ عدد الفرنسيين الذين تركوا فرنسا خلال الأعوام ١٨٥١–١٩١٠ مليوني شخص، هاجر (٤٠٠) ألف شخص الى المستعمرات الفرنسية فقط[٣٠] وبخاصة الى شمال افريقيا لأن بقية المستعمرات لا تلائم لسكن دائمي[٣١].

وفيما يخص التركيب البيئي لسكان فرنسا فإن غالبيته ريفي. والجدولان رقم (٣)[٣٢] ورقم ٤[٣٣] يوضحان أن (٦٨٫٩٤٪) أي (٨٩ و٢٤) مليون من سكان فرنسا كانوا

جدول رقم (٣)

الأعوام	سكان فرنسا بالمليون	سكان الريف بالمليون	نسبة سكان الريف	الأعوام	سكان فرنسا بالمليون	سكان الريف بالمليون	نسبة سكان الريف
١٨٧٢	٣٦ر١٠	٢٤ر٨٩	٦٨ر٩٤٪	١٨٩٦	٣٨ر٥٠	٢٣ر٥٠	٦١ر٠٣٪
١٨٧٦	٣٦ر٩٠	٢٤ر٩٠	٦٧ر٤٧٪	١٩٠١	٣٨ر٩٦	٢٣	٥٩ر٠٣٪
١٨٨١	٣٦ر٦٧	٢٤ر٥٧	٦٥ر٢٢٪	١٩٠٦	٣٩ر٢٥	٢٢ر٧٠	٥٧ر٨٣٪
١٨٨٦	٣٨ر٢٠	٢٤ر٤٥	٦٤٪	١٩١١	٣٩ر٦٠	٢٢ر١٠	٥٥ر٨٠
١٨٩١	٣٨ر٣٤	٢٤ر٠٣	٦٢ر٦٧٪	–	–	–	–

جدول رقم (٤)

الأعوام	سكان الريف بالملايين	السكان الذين يعيشون على الزراعة		نسبة العاملين النشطين في الزراعة
		نسبتهم	عددهم بالملايين	
١٨٧٢	٢٤ر٨٩	٥١ر٣٪	١٨ر٥١	١٩٪
١٨٨١	٢٤ر٥٧	٤٨ر٤٪	١٨ر٢٣	٤٧ر٥٪
١٨٩١	٢٤ر٠٣	٤٥ر٤٪	١٧ر٤٤	٤١ر٤٪
١٩٠١	٢٣	غير متوفرة	–	٤٤ر٢٪
١٩١١	٢٢ر١٠	٣٨ر١٪	١٥ر٠٨	٤٠ر٩٪

يسكنون في الريف في عام ١٨٧٢. وأن (٥١ر٣٪) أي (١٨ر٥) مليون كانوا يمتهنون الزراعة. وعلى الرغم من التطور الصناعي الذي شهدته فرنسا منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر وعلى الرغم من (الهجرة الريفية الجماعية) rural exodus الذي شهدتها الفترة وبخاصة عقد الثمانينات بسبب الكساد الزراعي فقد ظل أكثر من نصف سكان فرنسا، (٥٥ر٨٪) أي (٢٢ر١٠) مليون فرنسي من أصل (٣٩ر٦) مليون نسمه، يسكنون الريف في عام ١٩١١. وظل أكثر من (١٥) مليون نسمه أو (٣٨ر١٪) من سكان فرنسا يعيشون على الزراعة قبل الحرب العالمية الأولى وهكذا ظل غالبية سكان فرنسا يسكنون الريف. بينما نرى أن (٤٠٪) من سكان المانيا كانوا يسكنون الريف[٣٥] وأن (٢٨٪) من السكان يعملون في الزراعة و (٨٪) في بريطانيا و (٢٢٪) في بلجيكا[٣٦] بينما بقيت الزراعة تشكل النشاط الرئيس للاقتصاد الفرنسي[٣٧]. وبذلك كانت فرنسا الدولة الأوروبية الكبرى الوحيدة التي اتسمت بهذه الميزة[٣٨]. فضلاً عن ذلك فقد بقيت نسبة اسهام الزراعة الى الانتاج الكلي عالية على الرغم من الانخفاض الذي طرأ عليها بسبب التطور الذي أصاب النشاط الصناعي والتجاري والإداري والجدول رقم(٥)

جدول رقم ٥

الأعوام	المعدل السنوي	الأعوام	المعدل السنوي
١٨٦٥–١٨٧٤	٥٤٪	١٨٩٥–١٩٠٤	٤٢٪
١٨٧٥–١٨٨٤	٥٠٪	١٩٠٥–١٩١٣	٤١٪
١٨٨٥–١٨٩٤	٤٥٪	–	–

يوضح ذلك[٣٩].

ويمكن إيعاز ذلك الى أن الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ قد أحدثت تغييرات في ملكية الأرض في فرنسا عندما قضت على النبلاء وعلى الكنيسة كأكبر قوتين اقتصاديتين واجتماعيتين وسياسيتين وأنهت امتيازاتهم.فصادرت أراضيهم وقامت بتوزيعها على المزارعين لكنها لم تحدث تغييراً جوهرياً في بنية وانظمة الزراعة. فظهر في فرنسا مرة أخرى طبقة أصحاب الاقطاعات الكبيرة منذ أوائل القرن التاسع عشر[٤٠]. ففي عام ١٨٨٢ بلغت مساحة الأراضي الزراعية التي تعود الى الملكية الخاصة (٤٥) مليون هكتار مقسمة الى قطع متباينة الأحجام كما في الجدول رقم (٦)[٤١] الآتي:

جدول رقم ٦

حجم القطعة	نسبتها من العدد الكلي للقطع	نسبتها من مساحة الأراضي الزراعية الكلية
أقل من هكتار	٣٨ر٢٪	١٣ر٥٪
١ – ٥ هكتار	٣٢ر٩٪	١٣ر٥٪
٥ – ٤٠ هكتار	٢٦ر٤٪	٣ر٥٪
أكثر من ٤٠ هكتار	٢ر٥٪	٥٥٪

ويتضح من الجدول أعلاه أن (٧١ر١٪) من العدد الكلي للقطع الزراعية لا تزيد مساحة الواحدة منها عن الخمسة هكتارات. وتشكل مجموع هذه القطع (١٣ر٥٪) من مساحة الأراضي الزراعية المملوكة من غير الدولة. بينما نجد أن (٢٨ر٩٪) من عدد القطع تحتل أكثر من (٨٦ر٥٪) من مجموع حجم الأراضي. بل يمكن القول أنه بلغ عدد القطع الزراعية التي يزيد حجم الواحدة منها عن (١٠٠) هكتار في عقد السبعينات من القرن الماضي (٤٩ر٢٤٣٪) والتي تشكل ربع مساحة الأراضي الزراعية الكليه[٤٢].

وفي عام ١٨٩٢ كان (٥ر٧) مليون شخص من مجموع (١٧) مليون فرنسي يمتهنون الزراعة يملكون أراضي زراعية. أي أن نسبة الذين يملكون الأرض من الذين يمتهنون الزراعة هي (٣٣ر٥٤٪). أما الباقون والذين يشكلون نسبة (٦٦ر٤٦٪) منهم أما وكلاء لاصحاب الاقطاعات أو يعملون كأجراء (يشكلون ثلث الذين

جدول رقم ٧

حجم القطع الزراعية	نسبتها
هكتار واحد أو أقل	٣٩٪
١- ٥ هكتار	٣٢٪
٥ - ١٠ هكتارات	١٤٪
١٠ - ٢٠ هكتار	١٥٪
٢٠ - ٥٠ هكتار	١٥٪
٥٠ - ١٠٠ هكتار	١٥٪
أكثر من ١٠٠ هكتار	١٥٪

يعملون في الزراعة[٤٣] أو مزارعون في الحقول[٤٤]. والجدول رقم (٧)[٤٥] يوضح حجم قطع الأراضي الزراعية ونسبتها.

يتضح من الجدول أعلاه أن (٨٥٪) من عدد المزارع أو القطع الزراعية التي لا يزيد مساحة الواحدة منها عن عشرة هكتارات بينما بلغت مساحة كل قطعة من القطع الزراعية التي تشكل (١٥٪) فقط من المجموع الكلي أكثر من (٢٠) عشرين هكتاراً.

ومن الجدير بالذكر أن عدد القطع الزراعية في فرنسا قد ازداد في حين تقلصت مساحتها. فقد ازداد العدد من (٢ر١٠) مليون في عام ١٨٢٦ الى (٢ر١٤) مليون عام

جدول رقم (٨)

حجم القطعة	نسبتها من العدد الكلي	حجم القطعة	نسبتها من العدد الكلي
أقل من هكتار	٩٧ر٣٧٪	٤٠ - ١٠٠ هكتار	٢ر١٤
١ - ١٠ هكتار	٨٩ر٤٥٪	أكثر من ١٠٠ هكتار	٥٢ر٠٪
١٠ - ٤٠ هكتار	٥٦ر١٣٪	-	-

١٨٨١. وتقلص حجم القطعة الواحدة من (٤ر٤) هكتار الى (٥ر٣) هكتار[٤٦]. وعلى الرغم من دخول فرنسا القرن العشرين فلم يطرأ أي تغير على هذا الوضع. والجدول رقم (٨) يوضح حالة الملكية في عام ١٩٠٨[٤٧].

ومن الجدير بالذكر أن معدل ملكية الأرض في بريطانيا في عام ١٨٩٢ كان (٤ر٢٦) هكتاراً. أما في ألمانيا فقد كان هناك (٥ر٢) مليون مزارع ملكية كل منهم تتراوح بين ٦ - ١٠٠ هكتار وفي عام ١٩٠٧ أصبحت ملكية كل واحد منهم أقل من (٢٠) هكتاراً[٤٨].

وفي الحقيقة أن هذا النمط من ملكية الأرض في فرنسا لم يؤد الى تطور الزراعة. فالذين يملكون قطع زراعية صغيرة كانوا يبيعون منتجاتهم في السوق شرط توفر فائض في الانتاج وبعد أن يحتفظوا لأنفسهم بقسم من المنتوج للمستقبل. بينما تتركز جهود أصحاب الملكيات الكبيرة الى سد حاجة السوق الداخلي من المنتجات الزراعية[٤٩]. فطالما كان المزارعون مكتفين ذاتياً فلم تكن لديهم فرصة لتوفير رأسمال من أجل تطوير زراعتهم وذلك باستثمارها في استخدام الأسمدة أو الآلات[٥٠]. فباستثناء الشمال حيث توجد ملكيات كبيرة تعتمد على انتاجها لتصريفه في الأسواق الداخلية، فإن الأراضي الزراعية في المناطق الأخرى كانت تعاني من نقص ليس في المكائن فحسب بل في الحيوانات. فقد دخلت المكائن في شمال فرنسا في عقد الستينات من القرن الماضي. بينما ظلت المناطق الأخرى من دون مكائن زراعية حتى العقد الأخير من القرن المذكور[٥١].

فضلاً عن ذلك أن الانتاج الزراعي لم يكن مزدهراً وبخاصة أن القسم الأكبر من الريف الفرنسي كان يعاني من نقص في الرأسمال والآلات والأدوات[٥٢]. ولم تستخدم الملكيات الزراعية الفرنسية المكائن التي استخدمت تقنيات القرن التاسع عشر إلا في عام ١٨٩٢. وما كان مستخدماً فيها هو المكائن التي استخدمتها بريطانيا في القرن الثامن عشر. ومع ذلك فلم يتم استخدام المكائن في الملكيات التي تقل مساحتها عن (١٠) عشرة هكتارات. وكانت (٧٤٦) ألف اقطاعية زراعية تتراوح مساحتها بين ١٠ الى ٤٠ هكتار تعاني من عدم وجود مكائن للحراثه والحصاد. أما الاقطاعيات التي تبلغ مساحة الواحدة منها (٤٠) هكتاراً فأكثر والبالغ عددها (١٤٧) ألفاً فكان يستخدم فيها (٥٢) ألف ماكنة للحراثة و (٥١) ألف ماكنة للحصاد. أي أن الطرق البدائية في الحراثه والحصاد لا زالت قائمة وتستخدم حتى في الاقطاعيات الكبيرة التي تبلغ مساحة الواحدة منها (١٠٠) مئة هكتار فأكثر والبالغ عددها (٢٩) ألف اقطاعية والتي كانت تعاني من نقص في الحاصدات التي كان يبلغ عددها (٢٣) ألفا[٥٣]. فضلاً عن ذلك كانت طرق المواصلات رديئة، وإن الآفات الزراعية

كانت تصيب المحاصيل[٥٤]. ولو أجرينا مقارنه بين حالة الزراعة في فرنسا وبين تلك التي في بقية دول أوروبا الغربية في مجال استخدام الاله والاسمدة والتخصص في زراعة المحاصيل أوجدنا أنها كانت متأخرة. ونجم عن هذا وجود قطاع زراعي كبير متأخر أثر بدوره في انخفاض الدخل القومي لكل فرد[٥٥]. وعلى الرغم من الإدراك أن قطاع الزراعة، لا زال يشكل نسبة كبيرة جداً من الاقتصاد الفرنسي وأن الصفة الاساسية له هو اقتصاد زراعي ، فإنه لم يلق دعماً حكومياً كبيراً من أجل رفع مستواه وبخاصة في الفترات التي شهدت ركوداً اقتصادياً. فلم تكن السياسة الحكومية ايجابية فيما يتعلق بالتعليم الزراعي أو تقديم التسهيلات النقدية المزارعين أو التعاونيات أو تسويق المنتجات الزراعية. فأصبح على المزارع أن يتكيف للتقلبات التي تطرأ في السوق وعليه أن يتحمل الخسارة الناتجة عنها. فالتكيف للسوق يعد أمراً صعباً بالنسبة للمزارع الذي يعاني من شحة في الرأسمال الذي يحتاجه كاحتياطي له وجهلاً في التقنية وعدم خبرة في التخطيط للمستقبل.يدرك قيمة النقود، إلاّ أن ذلك لم يعد كافياً لجعله رجل أعمال ناجح فالشرط الأساس لذلك هو وجود سوق لتصريف المحاصيل النقدية حتى يتمكن من زراعة ارضه حتى لو كانت مساحتها صغيرة. فعدم وجود مثل هذا السوق ترك المزارع من دون خيار سوى زراعة الحبوب الاساسية لاستهلاكه الشخصي سواء كانت ظروف التربة أو المناخ ملائمة أم لا. يضاف الى ذلك أن عدم تبني الحكومة سياسة زراعية ايجابية جعلت المزارعين الفرنسيين يترددون في استغلال الطلب المتزايد للمنتجات الزراعية والغذائية في بعض الدول التي تبنت الصناعة. فلم تتبنى فرنسا الإجراءات التي قامت بها الدانمارك في دعم منتجاتها الزراعية وذلك بإيجاد أسواق لتصديرها، علماً أن الدانمارك قامت بذلك بعد أن اقترضت اموالاً فرنسيه[٥٦]. لذلك يمكننا القول بأن انتاج القطاع الزراعي الفرنسي كان راكداً. ومما ساعد على بقاء هذا الوضع هو أن المزارع لم يكن جاهلاً وامياً وغير قادر على تغيير اسلوب حياته وطرق عمله والذي انعكس في قلة انتاجه الزراعي الذي لا يتعدى الاكتفاء الذاتي فحسب بل أنه لم تكن هناك أسواق لتصريف المنتجات الفائضة. بعبارة أخرى كانت فرنسا تعاني من نقص في عدد المدن. ففي عام ١٨٨١ كان عدد المدن البريطانية التي لا يقل عدد سكان

جدول رقم (٩)

العام	المدن البريطانيــة					المدن الفرنســية				
	لندن	ليفربول	مانشستر	برمنغهام	جلاسكو	باريس	ليون	مرسيليا	بوردو	طولوز
١٨٥٠	٢٦٨١	٣٩٧	٣٠٣	٢٤٢	٣٢٩	١٤٢٢	١٧٧	١٩٥	١٣١	٩٣
١٨٨٠	٤٧٦٧	٥٥٣	٣٤١	٤٠١	٥١١	٢٧٩٩	٣٧٧	٣٦٠	٢٢١	١٤٠
١٩٠٠	٦٥٨١	٦٨٥	٥٤٤	٥٢٢	٧٣٦	٣٦٧٠	٤٥٩	٤٩١	٢٥٧	١٥٠

الواحدة منها (٧٥) ألف نسمه (٣٠) مدينة، بينما كان عددها في فرنسا لا يتجاوز عن (١٢) أثنتي عشرة مدينة[٥٧]. فقد كانت باريس أصغر من لندن خلال القرن التاسع عشر، بل أن المدن الفرنسية ليون ومرسيليا وبوردو وطولوز كانت أصغر من المدن البريطانية ليفربول أو مانشستر أو برمنغهام أو جلاسكو والجدول رقم (٩)[٥٨] يوضح ذلك

فضلاً عن ذلك فإن نسبة كبيرة من سكان باريس في عام ١٩٠٠ كان لهم اقرباء مقربون يعملون في الزراعة[٥٩].

وفي الواقع، كان انتقال الفرنسيين من الريف الى المدينة بطيئاً وكانت نسبته حتى عام ١٩١١ ثلاثة بالمئة لكل عقد من الزمن[٦٠].

فضلاً عن ذلك أوضح احصاء عام ١٨٨٦ أن اكثر من (٨٠٪) من سكان فرنسا كانوا لا يزالون يعيشون في الأماكن التي ولدوا فيها. ولم يغير احصاء عام ١٨٩١ هذه النسبة كبيراً حيث كانت (٦ر٨٢٪) ويبدو أن السكن في المدن لم يجذب الفرنسيين بشكل كبير. فكانوا ينتقلون بالتدريج من القرية الى الضاحية وإلى المدينة[٦١]. فقد ارتفعت نسبة السكان الذين يسكنون مدناً نفوسها أكثر من (٢٠) ألفا نسمه من (٧٥ر٦٪) الى (٦ر١٠٪) خلال الأعوام ١٨٠١ - ١٨٥١. وبحلول عام ١٨٩١ ارتفعت النسبة الى (١ر٢١٪) أي (٠٨ر٨) مليون نسمه. وفي عام ١٩١١ أصبحت (٢٦٪) أي (٢٩ر١٠) مليون نسمه[٦٢]. فقد حدثت قبل الحرب العالمية الأولى ثلاث هجرات كبيرة من الريف الى المدينة بسبب عدم امتلاك الأرض وعدم وجود العمل والتي ادت الى الفقر. الأولى في الأعوام ١٨٦١ - ١٨٦٥ حيث نزح (٦٥٠) ألف شخص. والثانية خلال الأعوام ١٨٧٥ - ١٨٨١ حيث نزح (٨٤٠) الفاً وخلال الهجرة الأخيرة التي حدثت خلال الأعوام ١٨٩٦ - ١٩٠١ نزح (٦٥٠) الفا[٦٣].

ان حالة الزراعة هذه جعلت فرنسا تستورد كميات كبيرة

من المواد الغذائية. والجدول رقم (١٠) يوضح قيمة ما

جدول رقم (١٠)

العام	قيمة الاستيراد الكلي	قيمة استيراد المواد الغذائية	نسبتها من الاستيراد الكلي
١٨٥٠	٧٩٠ر٧	١٣١ر٤	١٦ر٥٨٪
١٨٥٥	١٥٩٤ر١	٤٨٦ر١	٣٠ر٤٨٪
١٨٦٠	١٨٩٧ر٣	٣٩٥ر٣	٢٠ر٨٢٪
١٨٦٥	٢٦٤١ر٨	٥٠٦ر٦	٢٠ر٠١٪
١٨٧٠	٢٨٥٧ر٤	٨٠٢ر٢	٢٨ر١٧٪

استوردته فرنسا من هذه المادة بملايين الفرنكات ونسبتها من قيمة الاستيرادات الكلية خلال الأعوام ١٨٥٠ - ١٨٧٠[٦٤].

فضلاً عن ذلك أخذت فرنسا بعد عام ١٨٨٠ تستورد الحبوب وبخاصة القمح لسد احتياجاتها. والجدول رقم

جدول رقم (١١)

الأعوام	المعدل السنوي	الأعوام	المعدل السنوي
١٨٧٠-١٨٧٧	٢٦٤	١٨٩٤-١٩٠١	٥٠٨
١٨٧٨-١٨٨٥	٧٨٥	١٩٠٢-١٩٠٩	٢٨٦
١٨٨٦-١٨٩٣	٧٦٨	١٩١٠-١٩١٤	٨٠٤

(١١) يمثل المعدل السنوي لقيمة استيراد القمح للأعوام ١٨٧٠ - ١٩١٤[٦٥].

من جهة أخرى بلغت قيمة استيراد فرنسا من المواد الغذائية بضمنها القمح (١٦٥٣) مليون فرنك عام ١٨٩١. وعلى الرغم من فرض فرنسا تعرفة كمركية عالية جداً في عام ١٨٩٢ فقد بقيت اقيام استيراد المواد الغذائية عالية. فبلغت (١٠٦٣) مليون فرنك في عام ١٨٩٣ وأصبحت بعد ذلك أقل من ألف مليون فرنك[٦٦].

ان تسوية الإراضي التي شرعتها الثورة الفرنسية بمصادرة اراضي الكنيسة والنبلاء المهاجرين والمشتبه بهم وبيعها أو توزيعها على المزارعين، قد عرقلت واضرت بالصناعة الفرنسية. فمن جهة عرقلت حركة العمل من الريف الى المدينة لأن تسوية الأراضي هذه شجعت المزارعين على شراء الأراضي بشروط مناسبة الأمر الذي أدى الى ازدياد آمال الاخرين الذي بقوا يعملون كمستأجرين Fermier أوالذين يشاركون مالك الأرض في المحصول Metayer أوعمال زراعيين لقاء أجر معين، كل هؤلاء قد ازدادت آمالهم في البقاء من اجل امتلاك الأرض. فقد كان اهم ما يشغل بالهم هو الحصول على الأرض. ومما زاد على ذلك هو أن ما عرف بـ (العصابات السوداء) كانت تقوم بشراء مزارع كبيرة ثم تبيعها الى المزارعين بعد أن تقسمها الى قطع صغيرة. وكان هؤلاء المزارعون يشترون هذه القطع بعد أن يرهنوها. لذلك كانت جميع مدخراتهم تذهب الى شراء الأرض[٦٧] وفي نفس الوقت لم تكن الحوافز لترك الريف والهجرة الى المدينة مغرية. وبذلك شكل هؤلاء خزيناً من العمالة الى الاقطاعيين الاثرياء وهذا جعل بدوره عملية توفير العمالة للصناعة في غاية الصعوبة. فضلاً عن ذلك. ان استمرار هيمنة الزراعة على الاقتصاد وازدياد حجم المزارعين في القطاع الزراعي وركود عدد سكان فرنسا، كل هذه العوامل عملت على كبح عملية (التصنيع) في فرنسا. ومما ساعد على ذلك أيضاً هو أن القوة الشرائية في فرنسا كانت منخفضة والحاجة لها ماسة. ويرجع سبب ذلك الى أن المزارعين كانوا مكتفين ذاتياً، حيث كانوا ينتجون معظم احتياجاتهم من المواد الغذائية وما فاض عن ذلك وهو قليل جداً فانه يباع في السوق بأعلي سعر ممكن[٦٨] لشراء ما يحتاجونه. أما العمال الزراعيون الذين بلغ عددهم في عام ١٨٩٢ مليونا ونصف بعد أن كانوا مليونين ونصف المليون عام ١٨٤٦[٦٩] والذين كانوا يتقاضون اجوراً لقاء عملهم، فانهم كانوا يوفرون أكبر ما يمكن من المال على امل شراء الأرض. وبذلك أخذت الأموال تستخدم في شراء الأرض بدلاً من استثمارها في الصناعة[٧٠]. وان الاسراع في عملية التصنيع تعتمد في الاساس على الاستثمار، واستثمار الأموال في الصناعة وبكميات كبيرة تؤدي الى احداث تحول في ظروف الانتاج وبالتالي الى تصاعد النمو في الاقتصاد. وبذلك يتضح أن انخفاض الايرادات والقوة الشرائية للفرنسيين قد أدى من جانب آخر الى تحديد السوق المحلي فضلاً عن عدم تشجيع الاستثمار في الصناعة.

لقد كان الانتاج الصناعي في فرنسا وحتى العقود الأخيرة من (القرن التاسع عشر لا زال (ريفياً) محلياً منسجماً مع الزراعة[٧١]. وفي الواقع إن الثورة الفرنسية قد اضرت بالصناعة كما أضرت بالزراعة. فقد كانت لها نتائجها المباشرة وغير المباشرة. وتمثلت النتائج غير المباشرة، وكما لاحظنا بتسوية

الأراضي التي أعاقت نمو السوق المحلي وعدم تكوين قوة عاملة صناعية وأخيراً تحويل الموارد المالية من الصناعة الى الزراعة. أما النتائج المباشرة فإن الثورة الفرنسية قد قطعت كافة علاقات فرنسا التجارية التي كانت قائمة قبل عام ١٧٨٩ مع العالم. ففقدت اسواقها الخارجية ومستعمراتها وبذلك وجهت ضربة قاصمة الى تجارتها واستثماراتها وتدهورت الأوضاع في الموانيء الفرنسية. ومع أن اسواق القارة الأوروبية بقيت مفتوحة أمام البضائع الفرنسية إلاّ أنها لم تكن بنفس درجة الاسواق الخارجية الأخرى. كما أن الحروب التي شهدتها القارة الأوروبية خلال الأعوام ١٧٩٢ – ١٨١٥ بين فرنسا من جهة والدول الأوروبية وبريطانيا من جهة أخرى كان لها أثر كبير على الصناعة الفرنسية. وإن الطبقة البرجوازية التي كانت هي المستفيد الوحيد من الثورة الفرنسية والتي يمكن أن يطلق عليها بـ «البرجوازية المالية» لم تكن راغبة في استثمار أموالها في الصناعة لأن مثل هذه العملية كانت محفوفة بالمخاطر فضلاً عن كونها غير مربحة. لذا ارتأت أن تستثمر أموالها في شراء الأراضي والعقارات. وان ازدياد احتياجات الحرب وتردي الأوضاع السياسية أثرت في تحديد انتاج السلع الاستهلاكية، في الوقت الذي استمرت عجلة التقدم الصناعي في بربطانيا من دون أن يكون للحرب الاقتصادية التي أعلنتها فرنسا ضد بريطانيا والمتمثلة بالنظام القاري أي تأثير عليها(٧٢).

لقد أوضحنا أن الاقتصاد الفرنسي لا زالت الزراعة تهيمن عليه وأن القوة الشرائية كانت بيد الطبقات الثرية والوسطى وأن أصحاب المشاريع الاقتصادية قد تأثروا بالوضع الاقتصادي القائم الذي جعلهم يبتعدون عن روح المغامرة والمجازفة ويبحثون عن حماية الحكومة من المنافسة الأجنبية حيث كانوا ينسحبون منذ الوهلة الأولى مفضلين العيش على رسوم الإيجار. وأن الأموال الفرنسية(٧٣). كانت تستثمر في السكك الحديد(٧٤) المضمونة من قبل الحكومة أو في خارج فرنسا لانها كانت مضمونة أولاً ولأن سعر الفائدة كان عالياً بدلاً من استثمارها في الصناعة الفرنسية. في حين كانت فرنسا تعاني من نقص في المواد الأولية وبخاصة الفحم وفحم الكوك. لذا كان عليها أن تستوردها وبخاصة من بريطانيا وهذا سيكلفها كثيراً، والجدول رقم (١٢) يبين قيمة استيراد فرنسا من المواد

جدول رقم (١٢)

العام	القيمة الكلية للاستيراد العام	قيمة استيراد المواد الأولية	نسبتها من القيمة الكلية
١٨٥٠	٧٩٠ر٧	٦١٨ر٥	٧٨ر٢٢٪
١٨٥٥	١٥٩٤ر١	١٠٣٢ر١	٦٤ر٧٤٪
١٨٦٠	١٨٩٧ر٣	١٤٤٣ر١	٧٦ر٠٦٪
١٨٦١	٢٤٤٢ر٣	١٤٨٧ر٥	٦٠ر٩٠٪
١٨٦٢	٢١٩٨ر٦	١٤٣٣ر١	٦٥ر١٨٪
١٨٦٣	٢٤٢٦ر٤	١٧٤١	٧١ر٧٥٪
١٨٦٤	٢٥٢٨ر٢	١٨٦٦ر٦	٧٣ر٨٣٪
١٨٦٥	٢٦٤١ر٨	١٩٧١ر٤	٧٤ر٦٢٪
١٨٦٦	٢٧٩٣ر٥	٢٠٩١ر٦	٧٤ر٨٧٪
١٨٦٧	٣٠٢٦ر٥	١٩٧١ر٧	٦٥ر١٤٪
١٨٦٨	٣٣٠٣ر٧	٢١١٥ر٧	٦٤ر٠٤٪
١٨٦٩	٣١٥٣ر١	٢١٧٣ر٧	٦٨ر٩٣٪
١٨٧٠	٢٨٥٧ر٤	١٧٦٦ر٦	٦١ر٨٢٪

الأولية ونسبتها من القيمة الكلية للاستيراد العام بملايين الفرنكات(٧٥).

وبما أن الصناعة البريطانية كانت في نفس الوقت تتقدم بشكل ملحوظ حيث استخدمت تقنيات انتاجية عالية الكفاءة قادت الى انتاج سلع بكلف قليلة غزت أسواق العالم وهددت أيضاً بالأسواق الفرنسية، كل هذه العوامل أثرت في موقف رجال الصناعة الفرنسيين. فبدأوا بالاهتمام في صناعة السلع الكمالية المترفة Luxury Commodities التي ترضي الأذواق الرفيعة للمستهلكين الأثرياء والتي تمتاز بأسعارها العاليه. وهذا يعني أن الفرنسيين أكدوا على نوعية السلع وليس على رخصها أو انخفاض كلفتها الانتاجية. واهتموا بأن تكون مصنوعة بمهارة يدوية عالية بدلاً من تقنية الاله. وحققت هذه السلع التي امتازت بالجودة شهرة واقبالاً كبيرين في خارج فرنسا. وبذلك أصبحت لموضات وأذواق باريس مكانة في العالم وبخاصة لدى أثرياء أوروبا وأمريكا. وهكذا حققت الها مكانة في سوق التصدير من أجل جذب الأموال وبخاصة من السياح، ولم يقتصر هذا على الصناعة التي تحتاج الى مهارة يدوية عالية فحسب بل اشتمل أيضاً على الصناعات التي تستخدم التقنية والاله. فتم التأكيد على الجودة والموضة والأناقة. فأخذ منتجوا الملابس المخاطة بالمكائن التركيز على الجودة سواء للأسواق الفرنسية أو خارج فرنسا. ولم تقتصر صناعة السلع الكمالية المترفه على الملابس الحريرية فحسب بل

على الملابس القطنية والصوفية وعلى الخمور وصناعة أدوات المائدة من (أطباق وملاعق وسكاكين...الخ) والخزف والزجاجيات والجلود والسراميك وصناعة الورق وعلى صناعات أخرى. والجدول رقم (١٣)(٧٦) يوضح أقيام السلع الرئيسية التي تم تصديرها الى الخارج للاعوام ١٨٤٦ - ١٨٦٩ بملايين الفرنكات ونسبة قيمة كل سلعة من مجموع أقيام الصادرات الفرنسية من البضائع المصدره لعام ١٨٦٩

جدول رقم (١٣)

السلع حسب أهميتها ١٨٤٦	قيمة الصادرات	السلع حسب أهميتها ١٨٦٩	قيمة الصادرات	نسبتها من الكلية للصادرات
المنتوجات الحريرية	١٤٧	المنتوجات الحريرية	٤٧٧	٢٩ر٠٨٪
المنتوجات القطنية	١٤٠	المنسوجات الصوفيه	٢٦٨	١٦ر٣٤٪
المنسوجات الصوفية	١٠٩	الخمور	٢٦١	١٥ر٩١٪
الخمور	٤٦	أدوات المائدة	١٨٠	١٠ر٩٧٪
أدوات المائدة	٢٨	الحرير	١٥٦	٩ر٥١٪
الجلود	٢٨	الجلود المصنعة	٩٩	٦ر٠٣٪
الكتان	٢٦	الملابس الأخرى	٨٤	٥ر١٢٪
الورق	٢١	الجلود المدبوغة	٨١	٤ر٩٣٪
الخزف والزجاج والسيراميك	٢١	السكر المصفى	٨١	٤ر٩٣٪
الملابس الأخرى	١٨	الأجبان والزبد	٨١	—
Madden	١٢	المنسوجات القطنية	٧٥	٤ر٩٣٪
الأدوات المعدنية	١٢	الحبوب	٧٠	٤ر٢٦٪
المواشي	١١	القطن	٦٤	٣ر٩٠٪
السكر المصفى	١١	براندي وكحول أخرى	٥٦	٣ر٤١٪
الغزول القطنية والصوفية	١٠	الخيول والمواشي الأخرى	٥٣	٣ر٢٣٪

والبالغة (٩ر١٦٣٩) مليون فرنك(٧٧).

يتضح من هذا الجدول أن نسبة قيمة الصادرات الفرنسية من الملابس والمنسوجات بكامل أنواعها والتي بلغت (٩٠٤) مليون فرنك من مجموع قيمة الصادرات الكلية لعام ١٨٦٩ قد بلغت (١٢ر٥٥٪). بينما كانت نسبة قيمة الخمور والكحول التي بلغت (٣١٧) مليون فرنك من مجموع قيمة البضائع المصدرة (٣٣ر١٩٪) بعبارة أخرى أن نسبة قيمة صادرات المنسوجات بكافة أنواعها والخمور والمشروبات الكحولية فقط من المجموع الكلي للصادرات الفرنسية من البضائع المصدرة لعام ١٨٦٩ قد بلغت (٤٥ر٧٤٪).

وهكذا يتضح أن فرنسا كانت مصدراً كبيراً لسلع معينة. وفي الواقع أن زيادة الدخل في بعض الدول وبخاصة في أوروبا وشمال أمريكا الناجمة عن التقدم الصناعي الذي شهدته كبريطانيا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال قد شجع الفرنسيين على تنمية تجارتهم مع هذه الدول بالدرجة الأولى. بل أنه شجعهم كثيراً على التأكيد على صناعة السلع التي تعتمد النوعية والذوق المطلوب من قبل الطبقات الثريه ليس في فرنسا فحسب بل في أوروبا وأمريكا الشمالية طالما أنه ليس باستطاعتهم امتلاك الصناعة القادرة على انتاج السلع الرخيصة ومنافسة الصناعة البريطانية وغيرها من الصناعات التي وطدت وجودها في الأسواق العالمية. وبهذه الطريقة يمكن القول أن الفرنسيين قد نجحوا في التكييف الى التقسيم العالمي للعمل. والجدول رقم (١٤)«٧٨» يوضح حجم

جدول رقم (١٤) بملايين الفرنكات

الأعوام	صادرات فرنسا الى الدول التاليه ونسبتها من الصادرات الكلية						واردات فرنسا من الدول الآتية ونسبتها من الواردات الكلية					
	بريطانيا		بلجيكا		الولايات المتحدة		بريطانيا		بلجيكا		الولايات المتحدة	
	قيمتها	نسبتها	قيمتها	نسبتها	قيمتها	نسبتها	قيمتها	نسبتها	قيمتها	نسبتها	قيمتها	نسبتها
١٨١٦-١٨٥٦ المعدل السنوي	٢٧٩ر٧	٢١ر٣٠	١١٥ر٣	٨ر٧٨	١٩٤ر٧	١٤ر٨٢	١٢٦ر٩	١٠ر٦٤	١٣٩ر٢	١١ر٦٢	١٣٥ر٢	١٢ر٣٣
١٨٥٧-١٨٦٦ المعدل السنوي	٦٩٤ر٣	٢٦ر٧٠	١٩٩ر٣	٧ر٦٢	١٦٦ر٧	٦ر٣٨	٤٥٩ر٦	١٩	٢٣٠ر٧	٩ر٥٤	١٦٥ر٧	٦ر٨٥
١٨٦٧	٩٠٧	٣٢ر٠٩	٢٥٥	٩ر٠٢	١٥٦ر٣	٥ر٥٣	٥٧٨ر٣	١٩ر١٠	٢٨٠ر٩	١٢ر٥٨	١١٠ر٩	٤ر٦٥
١٨٦٨	٨٧٨ر٥	٣١ر٤٨	٢٧١ر٧	٢٧١ر٧	٩ر٧٣	٤ر٥٠	٥٨٠ر٤	١٧ر٥٦	١٧ر٥٦	١٠ر٧١	١١٩ر٦	٤ر٥٢
١٨٦٩	٩٠٩ر٦	٢٩ر٥٨	٢٩٥	٩ر٥٩	١٩٢ر٩	٦ر٢٧	٥١٠ر٢	١٧ر٧٦	٣١٥ر٨	١٠ر٠١	١٧١ر٥	٥ر٥٣
١٨٧٠	٨٦٠ر٥	٢٠ر٧٠	٢١٠ر٨	١١ر٠٩	٣٠٦ر٩	١٠ر٩٥	٥٢٥ر٤	١٨ر٢٨	٢٧٢	٩ر٥١	٢١٧ر٦	٧ر١١

التجارة الفرنسية مع بريطانيا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية خلال الأعوام ١٨٤٧ - ١٨٧٠ بملايين الفرنكات.

ويتضح من هذا الجدول أن أكثر من نصف (٧٤ر٥٢٪) صادرات فرنسا كانت تذهب الى بريطانيا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية ولو أن الأخيرة قد انخفضت بشكل ملحوظ ويرجع سبب ذلك الى فرض حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ضريبة كمركية عالية على الواردات الأجنبية.

وفي الواقع أنه لم يطرأ تغيير جوهري على الاقتصاد الفرنسي وتركيبته مجتمعة بعد عام ١٨٧٠. فقد لاحظنا في الجداول ٣ و ٤و ٥ أنه على الرغم من الانخفاض الذي طرأ على المعدل السنوي لمساهمة الزراعة الى الانتاج الكلي الفرنسي (من ٥٤٪ الى ٤١٪) إلاّ أنها لا زالت تشكل نسبة كبيرة. وبقي اسهام الزراعة من الدخل القومي يتراوح بين ٣٠ - ٣٥٪(٧٩). بل أنه يمكن القول أن فرنسا قد ظلت طيلة القرن التاسع عشر بلداً زراعياً(٨٠). فلا زال أكثر من (٢٢) مليون فرنسي من أصل (٦ر٣٩ مليون) يعيشون في الريف في عام ١٩١١ أي أن نسبتهم كانت (٨ر٥٥٪) ولم يتجاوز نسبة سكان المدن من الفرنسيين للنصف إلاّ في عام ١٩٢٠(٨١).

أن هذا الانتقال البطيء دلالة على غياب ثورة صناعية حقيقية حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر وبقاء الجانب

الزراعي في حياة الفرنسيين لأن الزراعة لا زالت تستوعب أكثر من الصناعة[٨٢].

ومع أن (الثورة الصناعية) في فرنسا قد بدأت عندما تأسست الجمهورية الفرنسية الثالثة إلاّ أن هذا التطور كان بطيئاً وليس مطرداً كما هو الحال في الدول الأوروبية[٨٣]. فقد لعبت عوامل عديدة في تقييد عملية التصنيع. فالحوادث السياسية التي شهدتها فرنسا خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر اثرت في الصناعة. فحرب السبعين وحوادث حكومة باريس الثانية التي تبعتها والأعوام التالية التي اتسمت بالكآبة و القتم والتشكيك قد ادت الى تثبيط الحماس الوطني والذي لا يمكن بدونه القيام بأي عمل حتى في بناء المعامل. وأخذ الفرنسيون يشكون في أهمية وكفاءة حكومتهم ومؤسساتها الجمهورية بل وحتى في مصيرها[٨٤]. ولعبت العوامل الجغرافية الى جنب العوامل السياسة في عدم وجود ثورة صناعية كامله حتى العقد الأخير من القرن الماضي. فعلى الرغم من إكمال مد سكك حديد التي تأخر موعد انجازها بسبب الأحداث السياسة، فقد بقيت مشكلة تجهيز الصناعة الفرنسية بالوقود والطاقة، وقد اعاقتها بالنهايه. وعلى الرغم من اكتشاف مصادر جديدة من الفحم، إلاّ أن كلفة استخراجه كانت عاليه جداً فضلاً عن رداءة نوعيته. وكإيضاح للكلفة فإن معدل سعر استخراج الطن الواحد من الفحم في فرنسا كان (٦٣ر١٥) فرنك بينما كان السعر في المانيا (٢٥ر١٣) فرنك وفي بريطانيا (٢٥ر١١) فرنك[٨٥]. صحيح أن الانتاج الفرنسي من الفحم قد ازداد بشكل مطرد منذ عام ١٨٧٠،

جدول رقم (١٥) بملايين الاطنان المترية

الأعوام	فرنسا	بريطانيا	المانيا	روسيا	النمسا المجر	بلجيكا	الولايات المتحدة الأمريكية
١٨٧٠	١٣ر٣	١١٠ر٤	٣٤	٠ر٧٥	٨ر٦	١٣ر٧	١٠
١٨٨٠	١٩ر٤	١٤٧	٥٩ر١	٣ر٢	١٥	١٦ر٩	٦٤ر٩
١٨٩٠	٢٦ر١	١٨١ر٦	٨٩ر٣	٦	٢٦	٢٠ر٤	١٤٣
١٩٠٠	٣٣ر٤	٢٢٥ر٢	١٤٩ر٨	١٦ر٢	٣٩	٢٣ر٥	٢٤٤
١٩١٠	٣٨ر٤	٢٦٤ر٤	٢٢٢ر٣	٢٤ر٩	٤٧	٢٣ر٩	٣٥٦
١٩١٤	٤٠ر٨	٢٦٥ر٧	٢٧٩	٣٦ر٢	٤٧	٢٢ر٨	٤٥٥

كما هو مبين في الجدول رقم (١٥)[٨٦].

إلاّ أنه لم يكن استثنائياً مقارنه ببريطانيا أو المانيا لا بل وحتى بعض الدول الأوروبية الأخرى كالنمسا – المجر أو روسيا أو بلجيكا. فضلاً عن ذلك كان انتاج عامل مناجم الفحم في بريطانيا أكثر من انتاج العامل الفرنسي في نفس المناجم بنسبة (٣٠٪)[٨٧]. فلم يكن الانتاج الفرنسي من الفحم يكفي الطلب المحلي. وكانت فرنسا تستورد نصف انتاجها. ففي عام ١٨٧٢ بلغ مجموع ما استوردته فرنسا من الفحم (٨) ثمانية ملايين طن، وارتفع الاستيراد في عام ١٩١١ الى (٢١) واحد وعشرين مليون طن في حين بلغ انتاجها قرابة (٣٩) مليون طن. ولكن يجب التأكيد هنا أن الاعتماد الجزئي لفرنسا على استيراد الفحم لم يكن في ذاته عائقاً أمام التطور الصناعي. فألمانيا كانت تعتبر من اكبر مستوردي الفحم من بريطانيا حتى عام ١٩١٤. إلاّ أن المانيا كان لديها مناجم فحم غنية تستخدمها لتطوير صناعتها. واستخدمت الفحم المستورد بصورة رئيسية في الأماكن التي يمكن الوصول اليها بالوسائل النهرية السهلة. بينما لم يكن بمقدور فرنسا استخراج الفحم إلاّ من أعماق تتراوح بين ١٠٠٠ – ١٥٠٠ قدما فضلاً عن عدم وجود انهار فيها[٨٨]. وهكذا فإن المشكلة التي عانت منها فرنسا وحتى نهاية القرن التاسع عشر هي مشكلة النقص في الفحم، وطالما استمرت المشكلة فإنه يمكن القول بأن دور الصناعة الثقيلة كان متواضعاً. يضاف الى ذلك أن فرنسا اهملت جانباً مهما ومساعداً للصناعة وهو الطاقة الكهربائية التي كان بامكانها توليدها من مصادر المياه في المناطق الجبلية. فلو قارنا وضع الطاقة الكهربائية الفرنسية بما هو في المانيا أو سويسرا فإن توليد الطاقة الكهربائية الفرنسية تعتبر متأخرة. وقد قدر بأنه كان من الممكن توليد ثمانية (٨) ملايين قدرة حصانية. ففي عام ١٩١٣ امكن توليد (٧٥٠) ألف قدرة حصانية فقط. ومما لا شك فيه أن العامل السياسي يقف وراء ذلك. فاستخدام القوة المائية هي مهمة الحكومة بالدرجة الأساس[٨٩].

وعلى الرغم أن صناعة الحديد والصلب الفرنسية قد شهدت تطوراً إلاّ أن هذا التطور لم يكن يماثل ذلك التطور الذي حدث في ذات الصناعة البريطانية أو الالمانية

بل وحتى الروسية. والجدول رقم (١٦) يوضح ذلك[٩٠]

جدول رقم (١٦) بملايين الأطنان

العام	فرنسا		بريطانيا		المانيا		روسيا	
	الحديد	الصلب	الحديد	الصلب	الحديد	الصلب	الحديد	الصلب
١٨٧٠	١ر٢	٠ر٣	٥ر٩	٠ر٧	١ر٣	٠ر٣	٠ر٤	–
١٨٨٠	١ر٧	٠ر٤	٧ر٧	١ر٢٩	٢ر٥	٠ر٧	٠ر٤	--
١٨٩٠	٢	٠ر٧	٧ر٩	٣٥ر٨	٤ر١	٢ر٣	٠ر٩	٠ر٤
١٩٠٠	٢ر٧	١ر٦	٨ر٩	٤ر٩	٧ر٥	٦ر٧	٢ر٩	١ر٥
١٩١٠	٤	٣ر٤	١٠	٦ر٣	٩ر٥	١٣ر٨	٣	٣ر٥
١٩١٤	٤ر٦	٣ر٥	٨ر٩	٧ر٨	١٤ر٧	١٤	٣ر٦	٤ر١

يضاف الى ذلك أن

التطور في صناعة الحديد الفرنسية كان يرجع جزئياً للنشاط الصناعي الالماني والبلجيكي لأن المؤسسات الألمانية أصبحت مهتمة وبشكل كبير بمناجم الحديد الفرنسية. فقد ساهمت المعامل الالمانية والبلجيكية في فرنسا في انتاج القاطرات فعلى سبيل المثال بلغ عدد القاطرات التي تم انتاجها خلال الأعوام ١٩٠٦ - ١٩١٢(٥٣٥) قاطرة أي بمعدل (٢٨) قاطرة في كل عام. وبلغ عدد القاطرت التي انتجتها المعامل الفرنسية (١٣٧). أما المعامل الألمانية والبلجيكية فقد انتجت (١٤٠) قاطرة في الفترة ذاتها[٩٢]. وساهمت المؤسسات البريطانية من جانبها في صناعة السيارات في فرنسا. فكانت مؤسسة Dar-racq التي يملكها البريطانيون والذين لهم استثمارات مهمة في الصناعة الفرنسية تقوم بانتاج السيارات فضلاً عن ارسال شاصيات السيارات الى مصنعها في مدينة فلهام Fulham في بريطانيا حيث يتم بناء هيكل السيارات. ففي عام ١٩١٣، على سبيل المثال، استوردت بريطانيا (١٣٥١) سيارة كاملة و (٥٦٠١) شاصي فضلاً عن مكائن وأجزاء وبخاصة De Dion & Aster[٩٣]. فضلاً عن ذلك كانت تكاليف الوقود المستخدم في مصانع الحديد الفرنسية أكثر مما تدفعه مثيلاتها البريطانية والألمانية بنسبة تتراوح بين ٥٠ - ٦٠٪[٩٤]. لذا فإنه ليس من المستغرب أن نرى أن القسم الأكبر من حديد الاور Iron ore المستخرج من الجزائر كان لا يذهب الى فرنسا بل يتم شحنه الى بريطانيا حيث يتم تفريغه في ميناء ميدلزبوره Middlesbourgh في شمال بريطانيا حيث يتم صهره بالفحم المستخرج من مدينة درهام Durham القريبة[٩٥] في نفس الوقت قامت فرنسا باستيراد الحديد. ففي السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى اشترت فرنسا ٥٠ - ٦٠٪ من كمية اطنان الحديد التس استخدمتها لبناء السفن فضلاً عن قيامها بشراء سفن تم بناءها في بريطانيا[٩٦]، فالأمة التي كانت تهدف الى تحقيق الاكتفاء الذاتي يجب أن لا نتوقع أن يكون لها نقل بحري كبير.

ويتضح من الجدول رقم (١٧)[٩٧] أن مجموع ما نقله الاسطول البحري الياباني قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١١) كان أكثر مما نقله الاسطول البحري الفرنسي. ولم تطرأ زيادة ملحوظه على ما نقله الاسطول البحري الفرنسي. خلال الأعوام ١٨٧٠ - ١٩١١ (من ١ر٠٧ مليون طن الى ١ر٤٦

جدول رقم (١٧)

الأعوام	فرنسا		بريطانيا		المانيا		اليابان	
	مجموع النقل بالأطنان	نسبه الى النقل البحري العالمي	مجموع النقل بالأطنان	نسبه الى النقل البحري العالمي	مجموع النقل بالأطنان	نسبه الى النقل البحري العالمي	مجموع النقل بالأطنان	نسبه الى النقل البحري العالمي
١٨٧٠	١ر٠٧	٦ر٣	٥ر٦٩	٣٢ر٩	٠ر٩٨	٥ر٨	-	–
١٨٨٠	٠ر٩٢	٤ر٦	٦ر٩٨	٣٢ر٩	١ر١٨	٥ر٩	٠ر٠٩	٠ر٠٥
١٨٩٠	٠ر٩٤	٤ر٢	٧ر٩٨	٣٥ر٨	١ر٤٣	٦ر٤	٠ر١٥	٠ر٦١
١٩٠٠	١ر٠٤	٤	٩ر٣٠	٣٥ر٥	١ر٩٤	٧ر٤	٠ر٨٦	٢ر٣
١٩٠٥	١ر٣٩	٤ر٥	١٠ر٢٣	٣٤ر٨	٢ر٤٧	٨	١ر٢	٤ر٢
١٩١١	٨ر٤٦	٤ر٢	١١ر٧٠	٣٣ر٨	٣ر٠٢	٨ر٧	١ر٨	٥ر١

مليون طن) في حين طرأت زيادة كبيرة على مجموع ما نقله الاسطول البحري البريطاني (من ٥ر٦٩ مليون طن الى ١١ر٧٠ مليون طن) أو الألماني (من ٠ر٦٨ الى ٣ر٠٢ مليون طن).

ويوضح الجدول رقم (١٨)[٩٨] انخفاض نسبة السفن الفرنسية الداخله الى الموانيء الفرنسية خلال الأعوام ١٨٧٠ - ١٩١١ حيث انخفضت من (٣١ر٥٪) الى (٢٤٪) بينما ارتفعت نسبة السفن الاجنبية وبخاصة البريطانية من

جدول رقم (١٨)

الأعوام	نسبة السفن الأجنبية الداخلة في الموانيء الفرنسية			نسبة تفريغ حمولات السفن الاجنبية الداخله في الموانيء الفرنسية				نسبة السفن الفرنسية
	البريطانية	الأخرى	المجموع	نسبة السفن الفرنسية	البريطانية	الأخرى	المجموع	
١٨٧٠	٣٩ر٨	٢٨ر٧	٦٨ر٥	٣١ر٥	-	-	٦٧ر٩	٣٢ر١
١٨٨٠	٤٠ر٦	٢٩ر٤	٧٠	٣٠	-	-	٦٤ر٤	٣٥ر٦
١٨٩٠	٤٤	٢٤ر١	٦٨ر١	٣١ر٨	-	-	٦٧	٣٣
١٨٩٠	٤٠ر٦	٣٣ر٣	٧٣ر٩	٢٦ر١	٤٢ر١	٣٢ر٣	٧٤ر٤	٢٥ر٦
١٩٠٥	٣٥ر٢	٣٧ر٥	٧٢ر٧	٢٧ر٣	٣٦ر١	٣٧ر٢	٧٣ر٣	٢٦ر٧
١٩١١	٣٦ر١	٢٩ر٩	٧٦	٢٤	٣٦ر٦	٣٩ر٨	٧٦ر٤	٢٣ر٦

(٦٨ر٥٪) الى (٧٦٪). وحدث نفس الشيء فيما يتعلق

بنسبة تفريغ السفن الأجنبية في الموانيء الفرنسية حيث انخفضت نسبة تفريغ الحمولات الفرنسية في ذات الفترة من (١ر٣٢٪) الى (٦ر٢٣) بينما ارتفعت نسبة تفريغ حمولات السفن الأجنبية من (٤ر٧٤٪) الى (٤ر٧٦٪). وإذا كانت مساهمة صناعة الحديد والصلب للانتاج الوطني في عام ١٨٤٧ قد بلغت (٢ر١٪) (مقارنة بـ (٩ر١٧٪) لصناعة المنسوجيات) فإن هذه النسبة لم تتعدى (٢ر١٪) من الانتاج الوطني في عام ١٩١٠ (مقارنة بـ (٥ر١٦٪) لصناعة المنسوجات) وحتى لم تم اضافة جميع الصناعات التعدينية فإن اسهامها كان يعادل ثلث اسهام صناعة المتسوجات للانتاج الوطني(٩٩).

وفي الحقيقة ان اسباب غياب التصنيع الثقيل في فرنسا حتى العقد الأخير من القرن الماضي لا تقتصر علي استمرار هيمنة النشاط الزراعي على الاقتصاد وعلي نقص في الفحم والطاقة والتي أثرت بدورها في صناعة الحديد والصلب بل الى عوامل أخرى. فكما لاحظنا أن سكان فرنسا قد ازداد خلال الأعوام ١٨٧٠ - ١٩١٤ بشكل ضعيف جداً (من (١ر٣٦) الى (٦ر٣٩) مليون نسمه) وأن غالبية الفرنسيين كانوا يسكنون الريف ويمتهنون الزراعة. وانهم كانوا يهدفون الى تحقيق اكتفاء ذاتي لذلك لم تكن لديهم القوة الشرائية لشراء البضائع المصنعة وهذا مما أدى الى عدم تشجيع الصناعة وحتى بالنسبة الى الذين كانت لديهم قوة شرائية واستطاعوا جمع الأموال فإنهم لم يميلوا الى المضاربة أو المجازفة بل الى استثمار أموالهم هذه في مشاريع أكثر ضماناً كشراء الأراضي والدور أو اقراض الاشخاص. وبعد أن أخذت أسعار الأراضي في الانخفاض خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح الاقبال على شراء وبناء الدور كبيراً كبديل لذلك. وبما أن أصحاب العقارات أخذوا يحصلون على مبالغ كبيرة من الأموال لقاء ايجارهم دورهم بل وحتى مزارعهم وبخاصة بعد أن ازدادت رسوم الإيجارات الى ثلاثة أضعاف خلال الفترة ١٨٥٠ - ١٩١٣، فإن هؤلاء خصصوا نسبة كبيرة من عوائد عقاراتهم لبناء دور جديدة التي أصبحت اسلم الأشكال للاستثمار فضلاً عن أنها تضمن لهم مكانة اجتماعية عاليه(١٠٠).

وقد زاد عدد الفرنسيين الذين أخذوا يدخرون اموالهم في البنوك الوطنية. فقد وضع (٢١٪) من المزارعين أموالهم في البنوك الوطنية في عام (١٩٠٠)(١٠١) وبلغ عدد الفرنسيين من حاملي سندات الحكومة الفرنسية أو سندات السكك الحديد أو من الذين لديهم حسابات توفير في البنوك في عام ١٩١٤ عشرة ملايين فرنسي من أصل (٤٠) مليون تقريباً(١٠٢). يضاف الى ذلك ازداد حجم المبالغ المودعة في البنوك الفرنسية. فقد بلغ المعدل السنوي للادخار خلال الأعوام ١٨٧٥ - ١٨٩٣ (٢) مليارين من الفرنكات وازداد المعدل السنوي للأعوام ١٩٠٣ - ١٩١١ الى (٥ر٣) مليار فرنك، وشهد عام ١٩١١ زيادة كبيرة حيث بلغ المعدل السنوي للإدخار (٥ر٤) مليار فرنك وارتفع المعدل السنوي للادخار في الأعوام ١٩١١ - ١٩١٤ ليصل الى أكثر من (٥) مليارات من الفرنكات(١٠٣).

إلاّ أن أهم ما يميز فترة ما قبل الحرب هو غياب التعاون بين الصناعات وبين البنوك الفرنسية(١٠٤). ولم تلعب الأخيرة الدور الذي لعبته مثيلاتها من البنوك في المانيا حيث يتم استثمار غالبية رأسمالها في الصناعات الألمانية التي لم تكن تعاني من شحة الرأسمال بينما كانت الصناعات الفرنسية تعاني من هذه الشحة(١٠٥). ويمكن ايعاز ذلك الى عدة عوامل. فالكثير من الصناعات الفرنسية، وبخاصة صناعة المنسوجات كانت مكتفية ذاتياً وقادرة على تمويل نفسها من دون مناشدة المستثمرين(١٠٦). بل أن البنوك الصناعية الفرنسية، التي تقوم بتمويل بعض المشاريع، كانت تميل الى انهاء هذه العلاقة، بعكس البنوك الألمانية، وأن النظام المصرفي الفرنسي هذا لم يسهل ويشجع على تطور دائم في الكفاءة وفي التغير التقني(١٠٧) وفي الواقع، أنه على الرغم من أن الصناعة الفرنسية قد تطورت بعد عام ١٨٩٠ إلاّ أن هذا التطور كان بطيئاً. فاستخدام الالات والطاقة كان على نطاق ضيق جداً قياساً لما في بريطانيا أو ألمانيا. والإنتاج المحدود لا زال يحل محل الانتاج الواسع لأن فرنسا بقيت (بلداً لتجارة السلع التي تتطلب مهارة وفناً رفيعاً ولتجارة الورش الصغيرة والمصممين التي لا تستخدم

معظمها الطاقة)[١٠٨] وأن هذا النوع من الصناعة لا تستقطب مدخرات الآهالي كالأنواع الأخرى من الصناعات. وأن تطور الصناعات التي تعتمد على المخترعات العلمية الحديثه كالصناعات الكيماوية والكهربائية في فرنسا خاصة كانت تسير ببطيء شديد مقارنه بالدول المجاورة. ولم يتم استقطاب الناس لاستثمار مدخراتهم من أجل تطويرها. ويجب التأكيد هنا أن استخدام الصناعات الفرنسية تقنياتها الخاصة وتفضيلها المصانع صغيرة الحجم والورش الفردية جعل الفرنسيين يعملون بحماس قليل[١٠٩]. هذا وإن عدم اكتراث البنوك الفرنسية في الصناعة الفرنسية لم يقتصر على عدم استثمار الأموال فيها فحسب بل أن الاستثمارات الفرنسية في الخارج كانت تسير في اتجاه مضاد للصادرات الفرنسية[١١٠] فلم يفعل الرأسماليون الفرنسيون شيئاً من أجل تشجيع التجارة الفرنسية أو تخفيض تكاليف المنتجات المستوردة. ففي الوقت الذي بلغت نسبة الرأسمال الفرنسي المستثمر في روسيا (٢٥٪) (وهذا يعادل ثلث الرأسمال الأجنبي المستثمر في روسيا) تراوحت نسبة استيراد روسيا من المنتجات الصناعية الفرنسية (٤ – ٥٪) من المجموع الكلي الاستيراداتها[١١١]. بينما كانت نسبة

جدول رقم (١٩)

العـــام	فوائد السندات الفرنسية	فوائد السندات الأجنبية
١٨٧٨	١٢ر٤٪	٥٠ر٥٪
١٩٠٣	١٣ر٣٪	٢٠ر٤٪
١٩١١	٤٠ر٣	٦٢ر٤٪

استيراد روسيا من المانيا الى مجموع استيرادها الكلي تتراوح بين (٤٠ – ٥٠٪)[١١٢] إلا أن الأعوام القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى قد شهدت محاولات قام بها أصحاب البنوك الفرنسيين بضغط من الحكومة الفرنسية وجهات أخرى للربط بين منح القروض الفرنسية للدول الأجنبية وبين طلبات السلاح من الصناعات الفرنسية. وقد ظهر هذا جلياً مع روسيا[١١٣]. يضاف الى ذلك، أن معدل فوائد السندات الفرنسية سواء سندات المؤسسات الحكومية والمؤسسات الصناعية كانت منخفضة مقارنة بمعدل فوائد السندات الأجنبية[١١٤] كما يوضح الجدول رقم (١٩)[١١٥] ويبين الجدول، أيضاً أن معدل الفائدة على سندات المؤسسات الحكومية والصناعات الفرنسية الكبيرة أخذت تنخفض بصورة تدريجية حتى أواسط العقد الأخير من القرن الماضي ثم أخذت ترتفع بعد ذلك ولكن ليس المعدل الذي كان يأمله المستثمرون فضلاً عن ذلك، أن الدولة الفرنسية هي التي كانت توجه الاستثمارات الفرنسية أو في مشاريعها في داخل فرنسا حيث بلغ مجموع ما اقترضته لمشاريعها العامة خلال الأعوام ١٨٩٢ – ١٩٠٨ مليار و٩٠٠ مليون فرنك مقارنة بـ (٤ر١٤) مليار في بريطانيا أو (٣ر١٣) مليار فرنك في المانيا[١١٦].

وأخيراً فإن الأحداث السياسية الداخلية التي شهدتها فرنسا لم تشجع الفرنسيين على الاستثمار في الداخل. بل أكدت على حاجتهم الى الضمان والاستقرار[١١٧]. فالرأسماليون الفرنسيون هم أكثر الأوربيين حذراً. فأخذوا يبحثون عن سبل لاستثمارات مضمونة من دون مقامرة[١١٨]. فوجدوا ضالتهم

جدول رقم (٢٠)

أوروبا ١٩٠٠	حجمها	نسبتها	بقية العالم ١٩٠٠	حجمها	نسبتها	المجموع	أوروبا ١٩١٤	حجمها	نسبتها	بقية العالم ١٩١٤	حجمها	نسبتها	المجموع
روسيا	٧	٢٥	المستعمرات الفرنسية	١ر٥	٢٥ر٠	–	روسيا	١١ر٣	٢٥ر٨	المستعمرات الفرنسية	٤	٨ر٦	
الدولة العثمانية	٢	٧ر٢	أفريقيا (المستعمرات البريطانية) مصر	١ر٩ ١ر٢	٣ ٢	– –	الدولة العثمانية	٣ر٣	٧ر٣	أفريقيا	٣ر٣	٧ر٣	
إسبانيا والبرتغال	٤ر٥	١٦ر١	الولايات المتحدة وكندا	٠ر٨	٢ر٨٠	–	إسبانيا والبرتغال	٣ر٩	٨ر٧	الولايات المتحدة وكندا	٢	٤ر٤	
النمسا – المجر	٢ر٥	٩	أمريكا اللاتينية	٢	٧ر١٤	–	النمسا – المجر	٢ر١	٤ر٩	أمريكا اللاتينية	٦	١٣ر٣	(٣٠)
دول البلقان	٠ر٧	٢ر٥	آسيا	٠ر٨	٢ر٨٠	–	دول البلقان	٢ر٥	٥ر٦	آسيا	٢ر٢	٤ر٩	
إيطاليا	١ر٤	٥	–	–	–	–	إيطاليا	١ر٣	٢ر٩	–	–	.	
سويسرا وبلجيكا وهولندا	١	٣ر٤	.	–	–	–	سويسرا وبلجيكا وهولندا	١ر٥	٣ر٣		–		
بقية أوروبا	٠ر٨	٢ر٨	–	.	–	–	بقية أوروبا	١ر٥	٣ر٣				
مجموع الاستثمارات في أوروبا	١٩ر٩	٧١ر٤	مجموع الاستثمارات خارج أوروبا	٨ر١	٢٨ر٩	٢٨	مجموع الاستثمارات في أوروبا	٢٧ر٥	٦١ر١	مجموع الاستثمارات خارج أوروبا	١٧ر٥	٣٨ر٨	٤٥

أولاً في شراء سندات الحكومة الفرنسية أو السكك الحديد الفرنسية المضمونة من قبل الحكومة الفرنسية ثم أخذوا بعد ذلك بشراء السندات المالية الأجنبية المضمونة من قبل الحكومة الفرنسية أيضاً[١١٩]. وبذلك تركوا الصناعة الفرنسية (تتضور جوعاً من الرأسمال).

وهكذا كان جميع الرأسمال المصدر من فرنسا تقريباً يمثل قروض حكومة لأخرى[١٢٠]. وكانت القارة الأوروبية تعتبر من أهم مناطق استثمار الرأسمال الفرنسي حيث مد السكك الحديد فيها وافتتاح مناطق صناعية جديدة قد منحت الرأسمال الفرنسي الفرصة للاستثمار[١٢١] والجدول رقم (٢٠)[١٢٢] يوضح أن حجم الأموال الفرنسية التي تم استثمارها في هذه القارة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر بلغ (٩ر١٩)

مليار فرنك من مجموع الاستثمار الفرنسي البالغ (٢٨) مليار فرنك، أي أن نسبته الى المجموع الكلي للاستثمارات الفرنسية قد بلغت (١ر٧١٪). وأن ما استثمر في روسيا والدولة العثمانية لوحدهما قد بلغ تسعة مليارات فرنك أي بنسبة (٢ر٣٢٪) بينما بلغ حجم ما استثمرته فرنسا في مستعمراتها (٥ر١) ملياراً ونصف المليار فرنك أي أن نسبتها لا تتعدى (٣٥ر٥٪). ان حجم ونسبة ما استثمر في المستعمرات الفرنسية هو في الحقيقة أقل من حجم ونسبة ما استثمرته فرنسا من رأسمالها ثلاثة في المستعمرات البريطانية في افريقيا حيث بلغت قيمته ثلاثة مليارات من الفرنكات أي بنسبة (٧١ز١٠٪) وعلى الرغم من الانخفاض الذي حدث في حجم ونسبة الرأسمال الفرنسي المستثمر في أوروبا في العقد الأول من القرن الحالي وحتى الحرب العالمية الأولى حيث وصل الى (٥ر٢٧) مليار فرنك من مجموع (٤٥) مليار فرنك وبلغت نسبته (١ر٦١٪) إلاّ أن هذه النسبة لا زالت كبيرة جداً(١٢٣) ومع أن حجم ما استثمرته فرنسا في مستعمراتها وبخاصة في الجزائر ومستعمرتها القديمة في الهند الصينية(١٢٤) في هذه الفترة قد ازدادت حيث بلغت (٤) أربعة مليارات فرنك، والذي يرجع الى تدخل الحكومة عن طريق العقود أو ضمان معدلات الفوائد(١٢٥)، إلاّ أن نسبته لم تتجاوز (٨ر٨٪) من مجموع الاستثمار الفرنسي وهي نسبة ضئيلة(١٢٦). في حين ازداد استثمار فرنسا في روسيا والدولة العثمانية الى (٦ر١٤) مليار فرنك ويشكل هذا نسبة قدرها (٤ر٣٢٪) من المجموع الكلي للاستثمارات الفرنسية في الخارج حيث بلغت نسبة الأموال الفرنسية المستثمرة في روسيا وحدها (٢٥٪) وأن هذه النسبة الضئيلة من الرأسمال الفرنسي المستثمر في المستعمرات الفرنسية الى المجموع الكلي توضح شعوراً بعدم الاكتراث أو اللامبالاة بالتوسع الاستعماري السائد لدي الرأسماليين الفرنسيين أو البنوك الفرنسية.

ولا يقتصر غياب ثورة صناعية كاملة في فرنسا على الاسباب الآنفة الذكر بل أن هناك سبباً يتعلق بموقف الفرنسيين من الصناعة كمهنة فقد كان ينظر الى الأشخاص العاملين في المؤسسات الصناعية بأنهم طبقة خطره. فضلاً عن ذلك كانت التقييدات المفروضة على حرياتهم شديدة والبحث عن أوضاعهم وحتى أوائل القرن العشرين يكشف بأن حقوق أصحاب العمل عليهم كانت أثقل مما كان للاقطاعيين على اقنانهم في العصور الوسطى. وعلى الرغم أن الثورة الفرنسية قد منحت العامل الصناعي حرية اختيار العمل الذي يفضله إلاّ أنه أخضع الى تقييدات كثيرة حدت من حريته. فكان عليه أن يحمل وثيقة Livret يدون فيها اسمه ونوع وموقع العمل الذي اشتغل فيه. ومنع العامل الصناعي من تغيير عمله إلاّ بعد أن يسدد ديونه ويفي بتعهداته لرب العمل. ولما كانت العادة قد جرت على حصول العامل على قرض من صاحب عمله في الأوقات العصيبة فإنه ليس بمقدوره أن ينتقل الى عمل آخر. وفي حالة موافقة صاحب العمل فإن ما تبقى من الدين يثبت في الوثيقة ويطلب من رب العمل الجديد استحصاله وذلك باستقطاع نسبة معينه من أجرة العامل. ومن الجديد بالذكر أن هذه التقييدات قد اقتصرت على العامل الصناعي فقط واستثنت من ذلك العمال الحرفيين والمزارعين. وفي الحقيقة أن أصول هذه التقييدات ترجع الى عام ١٧٨١ واستمرت حتى بعد الثورة الصناعية. بل أن نابليون بونابرت قد شدد عليها خلال حكمه ١٧٩٩ - ١٨١٥. فلم يكتف بأن يمضي رب العمل على وثيقة العامل الصناعي عند تركه العمل بل طلب من محافظ المدينه أيضاً القيام بذلك في حالة انتقال العامل الصناعي الى مدينة أخرى. وقد دون بعض من أرباب العمل في الوثيقة انطباعاتهم السابقة عن سيرة عمل العامل الصناعي مما أضر بالأخير الذي أصبح من المتعذر عليه ايجاد عمل آخر. وفي عام ١٨٥٤ تم تشريع قانون تم التأكيد على ارباب العمل بضرورة الاصرار على طلب وثيقة العمل من العمال عند التعيين. وفي باريس طلبت الشرطه من أصحاب المصانع التأكيد على وثيقة العمل التي يجب أن تكون مصدقة من قبلها خلال اربع وعشرين ساعة. وهكذا قيدت سلاسل الشرطة إحدى أرجل العمال الصناعيين بينما قيدت سلاسل ارباب العمل الرجل الأخرى. وبقي هذا القانون معمولاً به حتى عام ١٨٧٠. إلاّ أنه لم يعد النظر الى العامل الصناعي في عام

١٨٩٠ بأنه شخص خطر ولكن تم التأكيد على ضرورة مراقبته بصورة جيدة[١٢٧].

ولم تكن الأجور في الصناعة عالية مع أن العمل كان محفوفاً بالمخاطر. وكانت النصيحة التي تسدى الى الشخص الذي صمم أن يعمل في الصناعة هو أن يكون حذراً في اختيار المصانع التي يبغي العمل فيها وأن الحكمة هي البحث عن عمل مضمون ولو كان الأجر قليلاً[١٢٨]. لذلك لم يتجاوز عدد العاملين في المؤسسات الصناعية التي تضم الواحدة منها أكثر من ٥٠٠ عامل من (٧٤٢) ألف عاماً في عام ١٩٠٦[١٢٩]. فضلاً عن ذلك كان العمال الفرنسيون أقل تنظيماً مقارنة ببريطانيا. ففي عام ١٨٩٢ كان ثلث عمال المناجم والحديد والصلب والهندسة ينتسبون الى الاتحادات حيث بلغ عدد الأعضاء المنتسبين (٤٠٠) ألف منتسباً وازداد في عام ١٩٠٦ ليصل الى (٨٣٦) ألف ولم يبلغوا المليون عند اندلاع الحرب العالمية الأولى[١٣٠].

وكانت النصيحة التي تسدى الى الشخص الذي يرمي الى كسب المال بسرعة هو العمل في تجارة المفرد وفي أعمال أخرى وتضمن ارباحاً على الدوام (وأنه ليس من غير المألوف مشاهدة بقاليين وعمال مخابز وتجار أخرين.. قد تقاعدوا بعد عمل استمر خمسة عشر عاماً وبعد أن حققوا ثروة لا بأس بها). فالفرنسيون فضلوا التجارة على الصناعة، فكانوا يرون

جدول رقم (٢١)

العام	مجموع السكان	الزراعة	الصناعة	التجارة والنقل	المهن الحرة والموظفون	أصحاب الأملاك والمؤجرون	آخرين من دون مهن
١٨٥٦	٣٦ر١	١٩	١٠ر٤	١ر٧	١ر٦	١ر٧	١ر٤
١٨٧٦	٣٦ر٩	١٨ر٩	٩ر٢	٣ر٩	١ر٩	٢ر١	٠ر٧
١٨٩١	٣٨ر١	١٧ر٤	٩ر٥	٥ر١	٢ر٥	٢ر١	١ر٣

بأن المخاطر محدودة في التجارة حيث يمكن أن يخسر التاجر البضائع التي يمتلكها فقط بينما المخاطر في الصناعة غير محدودة. فصاحب المصنع يمكن أن يخسر جميع رأسماله وأنه أمر لا مفر منه من أي أن تطور في الصناعه يصاحبه زيادة في المخاطر[١٣١].

من جهة أخرى توارث الفرنسيون تقاليد قادت الآباء الى ارسال ابنائهم الى العمل في الخدمة المدنية كبديل للعمل في المهن الحرة. وما أن ينخرطوا فيها حتى تنتقل من الاب الى الابن. والجدول رقم (٢١)[١٣٢] الذي يقسم مجموع سكان فرنسا على أساس مهنة رب العائلة خلال الأعوام ١٨٥٦ – ١٨٩١ (بالملايين) يوضح بأن عدد الذين يعتمدون في موردهم على الصناعة قد ارتفع بنسبة قدرها (٢ر٧٪) خلال الأعوام ١٨٧٦ – ١٨٩١ بينما ارتفع عدد الذين يعتمدون في موردهم على التجارة والنقل بنسبة (٥٨ر٣٪) وفي المهن الحرة والموظفين بنسبة (٢٩٪) خلال نفس الفترة.

جدول رقم (٢٢)

القطاع	١٨٥٦	١٨٧٦	١٨٩٦	١٩٠٦
الزراعي	٥١ر٧	٤٨ر٨	٤٤ر٨	٣٨ر٣
الصناعي	٢٦ر٨	٢٧ر٣	٢٩ر٢	٣٢ر٨
التجاري والإداري	٢١ر٤	٢٣ر٩	٢٨ر١	٢٨ر٩

وكان المفروض أن ينمو قطاع الصناعة في الاقتصاد الفرنسي بشكل كبير وأن يرافقه توسع في القطاعين الإداري والتجاري. إلاّ أن الجدول رقم (٢٢)[١٣٣] الذي يقسم الاقتصاد الفرنسي الى قطاعات ويحدد نسبة مساهمة كل قطاع من الاقتصاد يوضح انخفاضاً كبيراً في القطاع الزراعي من ٥١ر٧٪ الى (٣٨ر٣٪) وان القطاع التجاري والإداري قد ازداد أكثر من ضعف زيادة القطاع الصناعي خلال الأربعين عاما (١٨٥٦–١٨٩٦) وعلى سبيل المثال فقد تضاعف عدد المعارض

في منطقة Forez التي تضم المدينة الصناعية St.Etienne ومساحة زراعية كبيرة خلال القرن التاسع عشر من (٣٠٧) معرضاً في عام ١٨٠٩ الى (٧١٣) معرضاً في عام ١٩٠٩ وكانت معظم هذه الزيادة بعد عام ١٨٧٢. فضلاً عن ذلك ازدادت اعداد الأسواق الاسبوعية من (٢١) سوقاً في عام ١٨١٨ الى (٩٠) سوقاً في عام ١٩٠٩. وتضاعفت ايضاً اعداد محلات بيع النبيذ من (٤٠٥١) محلاً في عام ١٨٥٧ الى (٨٧٣٨) محلاً في عام ١٩٠٨. وفي باريس تضاعف عدد محلات البقالة التي تبيع بالمفرد خلال الأعوام ١٨٥٦ – ١٨٧٩. وهكذا كان التوسع التجاري ملحوظاً بل أنه شهد تكوين شكل جديد وعلى طرق حديثة حيث تم تكوين اسواق

أو جمعيات تعاونية Co-op Shop أو Co - operations وبدأ يظهر ما عرف بالمؤسسات السلسلية Chain Stores (وهي مؤسسات متماثلة تديرها وتملكها شركة واحدة) في فرنسا. وأخذت هذه المؤسسات ببيع الأحذية الى الأهالي مباشرة ثم ظهرت مؤسسات تبيع النبيذ والحليب والملابس والكتب. وكانت هذه التعاونيات أو المؤسسات السلسلية كلها تمول نفسها ذاتياً[١٣٤].

يتضح مما تقدم انه على الرغم من التطور الصناعي الذي شهدته فرنسا خلال الجمهورية الفرنسية الثالثه إلاّ أنه لم يكن يماثل ذلك التطور الصناعي الذي حدث في بريطانيا أو ألمانيا[١٣٥]. فلم يكن التطور كبيراً وهائلاً ولم تشهد الصناعة الفرنسية تغييراً كبيراً في التقنيات أو في بنيتها. فقد بقي الانتاج وأساليته يتطابق مع الطلب وأذواق المستهلكين. فاستمرت الاشكال القديمة للانتاج الحرفي والتنظيم ذي النطاق الضيق لصناعات السلع الاستهلاكية. فقد اوضحت احصائيات الصناعات والمهن أن معدل عدد العاملين في (٥٧٥) ألف (مؤسسة صناعية) فرنسية كان يبلغ (٥ر٥) عامل فبينما بلغ عدد المؤسسات التي كان يشتغل فيها أكثر من ألف عامل (١٥١) (مؤسسة). نلاحظ أن أكثر من (٤٠٠) ألف (مؤسسة) كان يشتغل في كل واحدة منها عامل أو عاملين. وأن (٨٠) ألف مؤسسة كان يشتغل في كل منها ثلاثة أو أربعة عمال. ومن مجموع (٥٧٥) الف (مؤسسة

جدول رقم (٢٣)

الأعـوام	العمالة الصناعية		نسبة الانتاج الصافي	
	السلع الاستهلاكية	السلع الانتاجية	السع الاستهلاكية	السلع الانتاجية
١٨٦١-١٨٦٥	٦٣ر٩	١٦ر٧	٦٤ر٦	١٤ر٥٪
١٨٩٦	٤٩ر٩	١٨ر١	٤٣ر٨	١٩ر٧٪
١٩٢١	٣٧ر٤	٢٤ر٩	٣٥ر١	٢٣ر٢٪

صناعية) بلغ عدد المؤسسات التي كان يشتغل فيها أقل من عشرة عمال (٥٠٠ر٥٣٤) مؤسسة[١٣٦]. وبما أن التركيبه الاجتماعية في فرنسا كانت قد حافظت على شكلها فإن طبيعة السوق قد سمحت ببقاء وانتعاش أشكال الصناعة السابقة. فبقيت هذه الصناعة أو صناعة السلع الاستهلاكية التي تتلائم مع أذواق الدخول العالية مزدهرة. لكن هذا لا يعني بأن عامة الفرنسيين كانوا قادرين على شراء مثل هذه السلع الباهظة الثمن، ولا يعني هذا أيضاً أن بقاء مثل هذه الصناعة كان يدل على حب الفرنسيين لمثل هذه السلع. فانتاج الاله أخذ يغزو بعض الصناعات. وهكذا اصبح في الصناعة الفرنسية قطاعات: الأول التقليدي الذي تهيمن (المصانع) التي اتصف انتاجها بأنه محدود أو ضيق. وتعتمد في الأساس على عضلات الانسان وعلى مهارته اليدوية، والقطاع الثاني هو الحديث الذي يستند على المصانع الكبيرة وعلى قوة عمل تتناسب مع احتياجات الاله على الرغم من العقبات التي واجهتها والتي تمثلت بالتكاليف الباهظة للوقود الذي تحتاجه وبطبيعة السوق[١٣٧]. ومع ذلك فإن الصناعة الحديثه أخذت تتطور تدريجياً سواء من حيث عدد العاملين في صناعاتها أو من حيث الانتاج. والجدول رقم (٢٣)[١٣٨] يوضح أن، عدد العاملين في صناعات السلع الاستهلاكية أخذ يتناقص خلال الأعوام ١٨٦١ - ١٩٢١ من (٩ر٦٣٪) الى (٤ر٣٧٪) بينما ارتفعت نسبة العمالة في صناعات السلع الانتاجية من (٧ر١٦٪) الى (٩ر٢٤٪) في نفس الفترة وانخفضت نسبة انتاج الصناعة التقليدية الى الانتاج الكلي خلال الفترة ذاتها من (٤ر٦٤٪) الى (١ر٣٥٪) في حين ارتفعت نسبة انتاج الصناعة الحديثة من (٥ر١٤٪) الى (٢ر٢٣٪).

ومع ذلك فإن نسبة انتاج الصناعة الاستهلاكية أو التقليدية لا زال تشكل وحتى بعد أوائل العقد الثاني من القرن الحالي نسبة كبيرة (١ر٣٥٪). وكما لاحظنا أن صناعة المنسوجات قد حافظت على مركز الصدارة في نسبة مساهمتها في الانتاج الوطني حيث بلغت (٥ر١٦٪) في عام ١٩١٠ مقارنه بـ (٢ر٢٪) لصناعة الحديد والصلب. فقد شهدت صناعة المنسوجات القطنية توسعاً كبيراً حيث ازداد استهلاك القطن الخام في فرنسا خلال الأعوام ١٨٦٩ - ١٩٠٩ من (١٢٤) مليون كيلو غرام الى (٣٤٦) مليون كيلوغرام[١٣٩] أي بزيادة قدرها (٢٧٩٪). وقد شهدت هذه الصناعة كبقية صناعة المنسوجات تحولاً تقنياً حيث استخدمت المكائن واعتمدت فرنسا كلياً على المكائن البريطانية في صناعة المنسوجات وبخاصة القطنية[١٤٠] وشهدت هذه الصناعة توسعاً

كبيراً. ففي عام ١٩١٢ بلغ عدد المغازل (٧ر٦) مليون مغزل وعدد الأنوال (١٤٠) ألف نول. لكن هذه الصناعة لا يمكنها

جدول رقم (٢٤) بملايين الجنيهات الاسترلينية

الأعوام	المملكة المتحدة	ألمانيا	فرنسا	بلجيكا	النمسا - المجر
١٨٧٥-١٨٧٩	١٩٫٠٣	-	١٢٫٣٧	١٫٤٤	١٫٩٣
١٨٨٠-١٨٨٤	٢٠٫٢٧	٩٫٠٠	١٤٫٦٨	١٫١٣	٢٫٣٠
١٨٨٥-١٨٨٩	٢٢٫٦٢	٨٫٧٥	١٣٫٩٢٨	١٫٠١	٢٫٠٤
١٨٩٠-١٨٩٤	٢٠٫٧٥	٨٫٠٠	١٢٫٢٨	٠٫٩٢	١٫٥٦
١٨٩٥-١٨٩٩	٢٠٫٢٨	٧٫٨٠	١٠٫٨٨	٠٫٧٠	١٫٦٢
١٨٩٩-١٩٠٤	٢٠٫٧٥	٨٫٨٢	٨٫٧٩	٠٫٥٨	١٫٨٩

أن تجاري صناعة المنسوجات القطنية الألمانية (١٠ر٥) مليون مغزل و (٢٣٠) ألف نول) أو البريطانية (٥٧ مليون مغزل و (٧٢٥) ألف نول)[١٤١]. وعلى كل حال فقد اشتهرت فرنسا بمنسوجاتها القطنية وبخاصة الأنواع الراقية من الموسلين Mus-lins المطبوع[١٤٢] أما من حيث صادرات المنسوجات القطنية الفرنسية الى الخارج فقد ازدادت ستة أضعاف خلال الأعوام ١٨٦٧ - ١٨٩٦[١٤٣]. وبلغت قيمة صادرات صناعة الأقطان

جدول رقم (٢٥)

الأعوام	مجموع الصادرات الفرنسية بملايين الجنيهات	قيمة الصادرات الى بريطانيا بملايين الجنيهات	نسبة الصادرات الفرنسية الى بريطانيا ونسبتها من الصادرات الكلية
١٨٨٥-١٨٨٩	١٣٫٩٢	٥٫٠٣	٣٩٫٧
١٨٩٠-١٨٩٤	١٢٫٢٨	٥٫٨٢	٤٧٫٣
١٨٩٥-١٨٩٩	١٠٫٨٨	٥٫٨٩	٥٤٫١
١٩٠٠-١٩٠٤	٨٫٧٩	٥٫٢٣	٥٩٫٤

المصدرة في عام ١٩١٣ خمسة عشر (١٥) مليوناً من الجنيهات الاسترلينية. استهلكت الدول الأوروبية وبخاصة بريطانيا نصفها[١٤٤].

ومع أن قيمة صادرات المنسوجات الصوفية قد شهدت تراجعاً كبيراً شأنها في ذلك شأن بقية الدول الصناعية الأخرى كما يوضح الجدول رقم (٢٤)[١٤٥] والتي يمكن ايعازها الى التحول التقني الذي حدث في هذه الصناعة. إلاّ أن المنسوجات الصوفية الفرنسية كانت أجود من المنتجات الصوفية البريطانية ليس فقط في اصباغها الجيدة بل في نقشات الأنسجة. لذلك لم تكن المنتوجات البريطانية قادرة على منافسة المنتجات الفرنسية في جميع المنسوجات الصوفية. ولم يكن الفرنسيون رواداً أو قادة في تصميم الأزياء والموديلات لصناعة الغزول الصوفية التي كانت تخص النساء خاصة فقط بل في الغزول المخلوطة. وكان البريطانيون يشترون نقشات الانسجة التي يصممها الفرنسيون منذ منتصف القرن التاسع عشر[١٤٦]. وقد لقت صناعة الغزول الصوفية تجارة رابحة حيث كانت الأسواق البريطانية تستهلك ما بين نصف الى ثلثي صادرات فرنسا من هذه المنتجات خلال الأعوام ١٨٨٥ - ١٩٠٤ والجدول رقم (٢٥)[١٤٧] يوضح ذلك، في حين أن الصادرات الى الدول الأوروبية انخفضت بشكل كبير بسبب فرض هذه الدول تعرفه كمركية عاليه. أما طلب المستعمرات الفرنسية لهذه المنتجات فقد كان قليلاً جداً لأنها لم تفضل ملابس الرجال الثقيلة أو لملابس النساء الراقية والأنيقة[١٤٨].

وأصبحت صناعة المنسوجات الحريرية تعتمد على الأسواق البريطانية أيضاً وحتى الحرب العالمية الأولى. فكان نصيب بريطانيا (٦٥٪) من مجموع قيمة الصادرات الفرنسية بينما كان نصيب الولايات المتحدة (١٥٪) والباقي لبقية دول العالم وطرأ تحول في صناعة الحرير الفرنسية من الانتاج المحلي اليدوي الى الانتاج الواسع الذي يستخدم الاله. ويرجع سبب هذا التحول الى منافسة الحرير الرخيص أو الحرير المخلوط بالمواد الأخرى والمصنوع من قبل الألمان والسويسريين الحرير الفرنسي في الأسواق الفرنسية والعالمية. فبعد أن كان حرير ليون مشهوراً أخذ يتراجع أمام هذا النوع من الحرير الذي يخلط معه القطن أو الحرير الصناعي مما جعل الفرنسيون يستخدمون الأخير منذ عام ١٨٩٠. وقد بلغت صادرات فرنسا من الحرير قبيل الحرب العالمية الأولى (٦٦٪) من انتاجها أو (١٦) مليون جنيه استرليني من المجموع الكلي للانتاج والبالغ (٢٤) مليون جنيه استرليني. وكانت بريطانيا تستورد من الحرير الفرنسي أكثر مما تحتفظ فرنسا لنفسها من هذه السلعة. أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد استوردت (١٥٪)[١٤٩] أي ما قيمته (٣ر٦) مليون جنيه استرليني. وبذلك يبلغ ما استوردته بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية من المنسوجات الحريرية (٨١٪) أي ما قيمته (١٩ر٦) مليون جنيه استرليني. من جهة أخرى شهدت بعض الصناعات التقليدية والاستهلاكية تطور كبيراً. فتقدمت صناعة الأحذية

وتجارتها بشكل كبير بحيث اقتصر التصدير على الدول

جدول رقم (٢٦)

الأعوام	القيمة الكلية لمجموع استيراد بريطانيا	قيمة الواردات البريطانية من فرنسا	نسبتها الى القيمة الكلية
١٨٧٠	٣٠٣٫٣	٣٧٫٦	١٢٫٣٩
١٨٧٥	٣٧٣٫٩	٤٦٫٧	١٢٫٤٨
١٨٨٠	٤١١٫٢	٤٢	١٠٫٢١
١٨٨٥	٣٧١	٣٥٫٧	٩٫٦٢
١٨٩٠	٤٢٠٫٧	٤٤٫٨	١٠٫٦٤
١٨٩٥	٤١٦٫٧	٤٧٫٥	١١٫٣٩
١٩٠٠	٥٢٣	٥٣٫٦	١٠٫٢٤
١٩٠٥	٥٦٥	٥٣١	٩٫٣٩

الصناعية. وكانت فرنسا تأتي بالمرتبة الأولى من الدول التي تصدر الأحذية الرجالية والنسائية الخفيفة الى بريطانيا[١٥٠]. وحافظت (معامل) انتاج الملاعق والسكاكين والالات الطبية الجراحية على خصوصيتها (صغرها وقلة عدد العاملين بها). ففي عام ١٩٠٦ بلغ عددها في فرنسا (٣٤٠٠)، منها ألف (معمل) في باريس وحدها[١٥١]. أما صناعة السكر التي تعكس الارتباط الوثيق بين الصناعة والزراعة الفرنسية فقد

جدول رقم (٢٧)

الدول	١٨٩٩	١٩١٣
بريطانيا	٪٢٩	٪٢١
أوروبا الغربية	٪٣٧	٪٤١
شمال أفريقيا	٪٦	٪٦
الدول الصناعية الأخرى	٪١	–
الدول شبه الصناعية	٪٦	٪٧٫٥
روسيا	٪١	٪١٫٥
الدول غير الصناعية	٪٢٠	٪٢٣

شهدت تقدماً هائلاً. ففي موسم عام ١٨٨٣ – ١٨٨٤ انتجت معامل السكر البالغ عددها (٤٨٣) ما مجموعه (٤٠٥٫٧٢٠) طناً بمعدل (٨٤٠) طناً لكل معمل. وفي موسم عام ١٩٠٠ – ١٩٠١ انتج (٣٣٤) معملاً أكثر من مليون طن بمعدل ثلاثة آلاف طن لكل معمل. وفي موسم عام ١٩١٢ –١٩١٣ ازداد هذا المعدل ليصل الى اربعة آلاف طن لكل معمل. ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن للحكومة أي تدخل في هذا التطور بل للقطاع الخاص[١٥٢].

ولم تقتصر الصادرات الفرنسية الى بريطانيا على السلع الآنفة الذكر بل كانت السلع الكهربائية تصدر أيضاً منذ الأعوام الأخيرة من القرن الماضي[١٥٣]. وفي الواقع، أصبحت فرنسا تعتمد على الأسواق البريطانية بشكل كبير والجدول رقم (٢٦)[١٥٤] يوضح قيمة ما استوردته بريطانيا من الصادرات الفرنسية ونسبتها من القيمة الكلية لاستيرادها منذ عام ١٨٧٠ وحتى عام ١٩٠٥. ويتبين من هذا الجدول أن المعدل السنوي لنسبة قيمة ما استوردته بريطانيا من فرنسا الى المجموع الكلي لقيمة الاستيرادات البريطانية من الخارج خلال الأعوام ١٨٧٠ – ١٩٠٥ قد بلغت (١٠٫٧٩٪) وهي نسبة اليست بالقليلة. وتشكل نسبة الصادرات الفرنسية الى بريطانيا الى المجموع الكلي للصادرات الفرنسية نسبة كبيرة كما يوضحه الجدول رقم (٢٧)[١٥٥]. ففي عام ١٨٩٩ بلغت النسبة (٢٩٪) من مجموع الصادرات الفرنسية. ومع أن هذه النسبة قد انخفضت الى (٢١٪) بحلول عام ١٩١٣ إلاّ أنها لا زالت تشكل نسبة كبيرة حيث تصل الى أكثر من الخمس. وتشكل بريطانيا وأوروبا الغربية معاً سوقاً مهمة للصادرات الفرنسية حيث بلغت النسبة (٦٦٪) في عام ١٨٩٩ وانخفضت بشكل طفيف في عام ١٩١٣ لتصل الى (٦٢٪) أما مجموع نسبة الصادرات الفرنسية الى الدول الصناعية وشبه الصناعية فقد بلغت (٨٠٪) في عام ١٨٩٩ وانخفضت الى (٧٧٪) قبل الحرب العالمية الأولى، وهكذا يتضح «أن فرنسا عاشت وتاجرت بالدرجة الأساس مع أوروبا»[١٥٦] أما صادرات فرنسا الى الدول غير الصناعية، ومنها مستعمراتها فإنها لم تتجاوز ربع الصادرات. وفي الواقع لم تكن المستعمرات الفرنسية اسواقاً تصديرية مربحة ويرجع ذلك الى ضعف القوة الشرائية لسكان المستعمرات. فقد كانت النسبة السنوية للصادرات الفرنسية الى المستعمرات خلال الأعوام ١٨٩٤ – ١٩٠٣ (١١٫٢٠٪) وارتفعت بشكل طفيف خلال الأعوام ١٩٠٤ – ١٩١٣ لتصل الى (١٢٫٦١٪). أما النسبة المئوية لاستيراد فرنسا من المستعمرات فقد ارتفعت بشكل طفيف أيضاً من (٩٫٨٦٪) الى (١٠٫٥٨) خلال نفس الفترة[١٥٧].

صحيح أن تجارة فرنسا مع مستعمراتها للفترتين ١٨٨٢ –

١٨٨٦ و ١٩٠٩ - ١٩١٣ قد ارتفعت نسبتها من (٧١ر٥٪) الى (٢ر١٠٪)، إلاّ أن هذه الزيادة تعتبر طفيفة جداً أذا قورنت بحجم ونسبة الزيادة الكلية للتجارة الفرنسية. فقد شهد حجم هذه التجارة زيادة كبيرة حيث ارتفعت من (٩ر١٠) مليون فرنك في عام ١٩٠١ لتصل الى حوالي (٢٠) مليار فرنك في عام ١٩١٠ أي أنها ارتفعت بنسبة (٨٤٪)[١٥٨]. فضلاً عن ذلك كانت فرنسا قد صدرت الى بريطانيا في عام ١٩١٠ على سبيل المثال من البضائع ما قيمته أكثر من ضعف ما صدرته الى مستعمراتها الافريقية، والى المانيا ما قيمته أكثر من (١٥٪) ما صدرته الى نفس المستعمرات. بينما كان استيراد فرنسا من هاتين الدولتين معاً يساوي تقريباً ثلاثة أ ضعاف قيمة ما استوردته من مستعمراتها في افريقيا[١٥٩].

وفي الحقيقة لم يشجع الفرنسيون تجارة المستعمرات خوفاً من أن تنافس الأخيرة تجارة البلد الأم. ولم يشجعوا صناعة المستعمرات لأنهم اعتقدوا أن ما تنتجه المستعمرات سينافس بضائعهم[١٦٠]. لذلك فرضوا تعرفة كمركيه عاليه في عام ١٨٩٢ وزيدت في عام ١٩١٠ي وبذلك أغلقت الأبواب بوجه بضائع المستعمرات وكان الهدف جعل المستعمرات أسواقاً للصناعات الفرنسية التي كانت بضائعها تدخل المستعمرات من دون فرض أي ضريبة عليها بينما كان يفرض على البضائع الأجنبية الداخله الى المستعمرات ضريبة كمركيه عاليه[١٦١]. وهكذا لم يحصل تكامل بين صناعات المستعمرات والصناعات الفرنسية كالذي كان بين الصناعات البريطانية وصناعات المستعمرات البريطانية[١٦٢].

وفي الوقت الذي قضى الفرنسيون على أية فرصة لاستثمار أموالهم في الصناعات في المستعمرات خوفاً من أن تنافس صناعات البلد الأم فإن الحكومة الفرنسية لم تشجع الرأسماليين على استثمار أموالهم في المستعمرات باستثناء شمال أفريقيا[١٦٣]. وعلى الرغم أن شركات خاصة قامت باستثمار أموالها في المواد الأولية في المستعمرات الفرنسية في الهند الصينية، إلاّ أنها كانت معدودة[١٦٤]. ولم تشجع الحكومة الفرنسية الاستيطان في المستعمرات، ومع أن عدد الفرنسيين الذي تركوا فرنسا خلال الأعوام ١٨٥١ - ١٩١٠ قد بلغ عددهم مليوني شخص إلاّ أن (٢٠٪) منهم استوطنوا في المستعمرات الفرنسية نصفهم استوطن في الجزائر. فضلاً عن ذلك لم يستفيد الفرنسيون من المواد الأولية المستخرجه من المستعمرات لصناعاتهم. فقد صدر الفرنسيون معظم الحديد المستخرج من المستعمرات الى بريطانيا ودول أخرى في الوقت الذي اعتبروا فقدان حقول الحديد في مقاطعة اللورين كارثة حلت بالصناعة الفرنسية ولم يقتصر التصدير على الحديد فقط، بل صدروا الفوسفات والزنك، فهل كانت هذه المواد الأولية متوفرة في فرنسا؟

يتضح مما سبق أن العامل الاقتصادي لم يكن الدافع للتوسع الاستعماري الفرنسي خلال عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة. فقد كشفت بنية المجتمع الفرنسي أن النشاط الاقتصادي الفرنسي لا زال زراعياً وأن قرابة نصف الشعب الفرنسي كان يمتهن الزراعة ويسكن الريف وأن الصناعة الفرنسية لا زالت متخلفة قياساً للصناعة البريطانية والألمانية. فلا زالت الصناعات الحرفية تشكل حيزاً كبيراً من الصناعة الفرنسية مع أنها في بعض الصناعات قد شهدت تطوراً كبيراً. وما يدل على ذلك أن اسواق تصريف البضائع الفرنسية لا زالت تتركز في الدول الصناعية في أوروبا وبخاصة بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. فلا زالت هذه الصناعة موجهة لأصحاب الدخول المرتفعة والأذواق الرفيعة لذلك لم تشكل المستعمرات الفرنسية سوقاً مربحة ليس فقط للصناعة الفرنسية. بل أيضاً للرأسمال الفرنسي الذي وجد من أوروبا ميداناً للاستثمار. وبذلك كشفت المستعمرات لدعاة التسوع الاستعماري الفرنسي مبالغتهم في أهمية المستعمرات للاقتصاد الفرنسي وكشفت أيضاً الموقف السلبي الذي اتخذه الرأسماليون والصناعيون بل وحتى الحكومة الفرنسية تجاه هذه المستعمرات.

وفي الواقع أن هناك عدة عوامل يمكن أن نطلق عليها بأنها سياسية هي الدوافع التي دفعت الجمهورية الفرنسية الثالثة الى تكوين امبراطورية استعمارية في افريقيا وآسيا وبخاصة بعد عام ١٨٧٩. فقد حصل تغيير في نظرة الحكومة الفرنسية تجاه المستعمرات. فقد أصبح في هذا العام Freycient رئيساً للوزارة

الفرنسية وأصبح J.jauregiberry وزيراً للبحرية. ولقد اعتقد الاثنان بأن المنافسة الاستعمارية قد بدأت وأن على فرنسا أن تشترك في هذا السباق وتستخدم كافة الموارد المتاحة لديها. وبذلك احدثا تبدلاً في التقليد الذي سارت عليه الحكومات الفرنسية السابقة والذي يؤكد على التدخل المحدود للحكومة في الشؤون الاستعماريه. ومن أجل تكوين امبراطورية فرنسية في افريقيا بعد الاستفادة من خبرة فرنسا الاستعمارية في هذه القارة والتي تعود الى ما قبل عام ١٨٧٠، استخدمت الحكومة الفرنسية الوسائل العسكرية لتحقيق الهدف السياسي وهو تكوين امبراطورية استعمارية فرنسية فباستخدام القوة يمكن تحقيق ذلك وبنفس القوة يمكن المحافظة عليها. وبذلك كان العسكريون هم الوسيلة لتحقيق هذه الامبراطورية. إلاّ أنهم كانوا تحت توجيه من قبل وزارة البحرية التي كانت فيها مجموعة من الضباط النشيطين والمتحمسين للتوسع الاستعماري يقودهم وزير البحرية. ولذا فإن وزارة البحرية وليس وزارة الشؤون الخارجية كانت هي المسؤولة عن التوسعات الاستعمارية وحتى نهاية القرن التاسع عشر. وكانت وزارة البحرية الفرنسية تخصص الأموال اللازمة للتوسعات الاستعمارية من دون الرجوع للبرلمان الفرنسي وأخذ موافقته. لقد كان الهدف من هذه التوسعات الاستعمارية سياسياً ليصبح فيما بعد أساساً للتطور الاقتصادي[١٦٥].

وأن أسباب التغيير في نظرة الحكومة الفرنسية تجاه التوسع الاستعماري عديدة فقد ظهرت في فرنسا خلال فترة البحث شخصيات سياسية وعسكرية وجغرافية كانت مؤمنة بأهمية المستعمرات السياسية لفرنسا وكرست عملها لتحقيق ذلك ومنهم Freycient و J. Ferry ودلكاسيه Delcasse [١٦٦] و E.Etienne [١٦٧] C.de Maistre[١٦٨] و Louis Brierede I Tsle [١٦٩] و Jean Jaureguiberry [١٧٠] و A.Maizon [١٧١] S.de Brazza [١٧٢] وآخرون. ولم يكن هؤلاء يمثلون حزباً سياسياً بما تعنيه الكلمة بل أنهم جماعة استعمارية كانت مصممة على التأثير في مستقبل فرنسا الاستعماري[١٧٣]. ولو لم تكن هناك مثل هذه الشخصيات وآخرون لاتخذت فرنسا مساراً آخر وكتب لها تاريخ مغاير للذي حدث بعد عام ١٨٧٠[١٧٤]. وكان يؤيد هذه المجموعة الاستعمارية رجال الصحافة وموظفي الدولة والجغرافيون والأكاديميون[١٧٥].

وبعد أن تلقت فرنسا هزيمة عسكرية على يد بروسيا في حرب السبعين وفقدت نتيجة لذلك مقاطعتي الألزاس واللورين. سادها شعور مناوىء لألمانيا. ومع أن فرنسا قد استعادت عافيتها بعد هذه الهزيمة فإنها لا زالت تشعر بالإذلال الذي الحق بها وأن عليها أن تثأر لكرامتها وتستعيد مكانتها وذلك بالإنتقام من المانيا بأسرع وقت ممكن وكان يتزعم هذا الاتجاه جورج كلمنصو G. Clemenceau و L. Gambetta [١٧٦] ومع أن الاتجاه الآخر الذي يرأسه فيري كان يرى بضرورة الانتقام من المانيا إلاّ أنه كان يحذر من اتخاذ أي اجراء متسرع قد يؤدي الى انزال كارثة أخرى بفرنسا لأنه اعتقد بأن أوتوفون بسمارك Ottovon Bismarck المستشار الألماني هو سيد القارة الأوربية خلال عقد الثمانينات من القرن الماضي. ولاجل تحويل أنظار الفرنسيين وطاقاتهم من الألزاس واللورين حتى يجنبهم في هذه المرحلة مخاطر كارثة أخرى مع المانيا ومن أجل أن تعرض فرنسا عن ما خسرته في حربها ضد بروسيا وبذلك تعيد فرنسا مكانتها الدول الأوروبية وتستعيد هيبتها، فقد دعا فيري والسياسيون الفرنسيون الذين جاؤوا من بعده الى قيام فرنسا باحتلال المستعمرات وبخاصة في افريقيا تلك القارة التي كانت قد شهدت قبل عام ١٨٧٠ توسعات فرنسية استعمارية ولم يكن هدف فيري ودعاة التوسع الفرنسيين من هذه التوسعات هو أن يتناسى الفرنسيون الانتقام من الألمان لهزيمتهم العسكرية في عام ١٨٧٠. بل أن هذه المستعمرات، حسب وجهة نظرهم، ستؤدي الى تعزيز قوة فرنسا ومتى ما تحقق هذا وحشدت فرنسا جميع امكانياتها فإنها ستكون مستعدة لمجابهة المانيا. لذلك لم يكن الاستعمار أو المستعمرات الفرنسية لأهداف اقتصادية بل لأغراض وطنية[١٧٧].

فضلاً عن ذلك كان الوضع الدولي وبخاصة في عهد هيمنة بسمارك على السياسة الأوربية ملائماً بل مشجعاً لقيام فرنسا بحركتها الاستعمارية. فبعد أن تم اعلان الاتحاد الالماني

من مقر فرساي، كان هدف بسمارك هو الحفاظ على هذا الاتحاد وتجنيب المانيا الحرب علي جبهتين وابعاد شبح الحرب عن القارة الأوربية. وبما أن مشكلة ضعف وانحلال الدولة العثمانية اصبحت احدى العوامل المؤثرة في العلاقات الدولية بل كانت بمثابة برميل البارود الذي يمكن أن ينفجر في أية لحظة فقد اقترح بسمارك تقسيم هذه الدولة بين الدول التي لها مصالح فيها وفيما يخص فرنسا فقد اقترح بسمارك أن تكون تونس من حصتها. وعندما انعقد مؤتمر برلين في حزيران عام ١٨٧٨ على اثر الحرب العثمانية - الروسية وتوقيع معاهدة سان ستيفانو عمل بسمارك على أن تحتل فرنسا تونس مقابل احتلال بريطانيا لمصر. وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى تم ذلك.

لقد كان الوضع الدولي ومكانة فرنسا وعلاقتها مع الدول الأوربية سبباً في اندفاع فرنسا في الحركة الاستعمارية. فخلال الأعوام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ كانت العلاقات الألمانية - الفرنسية جيدة وتعاونت الدولتان في الحقل الاستعماري وبخاصة ضد بريطانيا التي كانت منهمكة في مصر بعد احتلالها لها في عام ١٨٨٢. ووصل (الوفاق) الفرنسي الألماني ذروته أثناء انعقاد مؤتمر برلين الخاص بافريقيا. ولأن المستشار الألماني كان يرى أن من مصلحة المانيا أن ترى فرنسا منهمكة في هذا الصراع الاستعماري لأنه سيؤدي الى تحويل انظارها عن الحدود الفرنسية - الالمانية ويورطها في مشاكل استعمارية مع الدول الأوربية الأخرى مما يزيد من عزلتها، لذلك كان يشجع فرنسا في هذا الحقل(١٧٨).

وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر، تحسنت مكانة فرنسا الدولية. ففي عام ١٨٩٢ توصلت الى حلف عسكري مع روسيا وبذلك أنهت عزلتها الدولية التي فرضها بسمارك عليها. وبحلول عام ١٨٩٤ شهدت العلاقات الالمانية - الفرنسية تحسناً ملحوظاً مما شجع فرنسا على الانهماك في التوسعات الاستعمارية(١٧٩).

ولا يمكن فهم التوسع الفرنسي في شمال ووسط وغرب افريقيا من دون الإشارة الى المصالح الفرنسية في شمال وشرق القارة الأفريقية. فكانت فرنسا قد احتلت الجزائر في عام ١٨٣٠ بعد أن كانت قد منيت بهزيمة عسكرية في معركة واترلوا وارادت تحويل انظار الشعب الفرنسي من مشاكله الداخلية الى الخارج. وبسبب موقعهما الاستراتيجي بالنسبة للجزائر اصبحت تونس والمغرب في نطاق الاهتمام الفرنسي. فمن أجل حماية حدود مستعمرتها في الجزائر ولوضع حد للسياسات الايطالية في شمال أفريقيا احتلت فرنسا تونس في عام ١٨٨١(١٨٠). وعلى الرغم أن لفرنسا استثمارات ماليه في المغرب إلاّ أن فيري رفض احتلالها في عقد الثمانينات. لكن المنافسة الالمانية - الفرنسية في المغرب والفوضى والاضطرابات السياسية التي شهدها هذا البلد، اجبرت فرنسا علي احتلال المغرب(١٨١). ونشط التوسع الفرنسي الاستعماري في افريقيا الوسطى لأنها كانت تهدف الى فتح طريق بري الى السودان حيث كان الاعتقاد بأنها ستتمكن من تحويل مجرى نهر النيل هناك وبذلك يتم تهديد النفوذ البريطاني في مصر لأن فرنسا كانت تعتبر مصر بأنها جزء من ارث نابليون وأنها كانت تعمل علي طرد البريطانيين منها لاستعادة ما خسرته(١٨٢).

وهكذا فإن الاهتمام الفرنسي على الصعيد الرسمي لم يكن بدافع اقتصادي بل يمكن أن نطلق عليه (وطني). ولا يختلف موقف الرأي العام سواء الشعب الفرنسي أو ممثلوا البرلمان عن الموقف الرسمي، بل أنه يمكن أن نقول أن الفرنسيين وممثليهم كانوا في الغالب يحملون شعوراً وطنياً كبيراً ويتصف موقفهم من الشؤون الخارجية وشؤون المستعمرات باللامبالاة، إلاّ أنهم أصبحوا من دعاة التوسع الاستعماري عند حدوث أزمة وطنية. فالمنافسة الانكليزية - الفرنسية قد حولت الكثير من الوطنيين الى استعماريين، والصراع الفرنسي - الألماني بعد عام ١٩٠٤ حول البقية، وجعلهم متحدين كدعاة التوسع الاستعماري في الدفاع عن المصالح الفرنسية الاستعمارية(١٨٣). وهكذا فإن الاستعمار الفرنسي هو أعلى مراحل الوطنية(١٨٤).

ولم تكن تلك الخاصية التي اتصف بها الاستعمار الفرنسي فحسب بل امتاز بخصوصيات أخرى. فقد اخضع الفرنسيون المستعمرات وقضاياها لمصلحة فرنسا. فقد اعتبر الفرنسيون المستعمرات فرنسية فكانوا يتساءلون: (ألو لم تكن هي جزء من العائلة الكبيرة) أي الامبراطورية الفرنسية؟ (فالمستعمرات

هي فرنسا[١٨٥]. فضلاً عن ذلك كان الفرنسيون يرون بأن المستعمرة قد وجدت لتقوية البلد الأم، فرنسا، وأن على المستعمرة أن تقوى وتدعم نفسها لدرجة تكون خدمة مضافة الى فرنسا[١٨٦] ونتيجة لذلك فإن العلاقة بين فرنسا ومستعمراتها يجب أن تكون مطابقة لروح الحياة الفرنسية وهي بذلك تعكس حالة المركزية التي تؤكد عليها الإدارة الفرنسية. بينما نلاحظ أن الموقف البريطاني من المستعمرة هي أن يتم منحها أكبر قدر ممكن من الحرية. وهذا ما يرفضه الفرنسيون الذين كانوا حازمين في أن يقوم موظفون فرنسيون بحكم المستعمرة كأي ارض فرنسية ويكونون مسؤولين مسؤولية مباشرة عن كل شيء أمام الحكومة الفرنسية. بعكس البريطانيون الذين أكدوا على مبدأ اللامركزية ومنحوا حاكم المستعمرة الحرية التامة في التصرف. بعبارة أخرى امتازت السياسة الاستعمارية الفرنسية من دونها بالربط الوثيق بين الضم والتام والمركزية[١٨٧].

وباستثناء الجزائر، فإن الاستعمار الفرنسي لم يؤد الى ايجاد مستعمرات استيطانية وأن غالبية الفرنسيين الموجودين في المستعمرات الفرنسية يمثلون موظفين لأن من المبادئ العامة للسياسة الاستعمارية الفرنسية هي أن تكون جميع المناصب في المستعمرات بيد الفرنسيين فقط. أي أن تكون السلطة بيد موظفين فرنسيين ينفذون السياسة الفرنسية. وبذلك فإن هناك تنسيقاً في العلاقة المركزية بين فرنسا وكل مستعمرة. ففي أفريقيا الغربية الفرنسية. على سبيل المثال، كان الحكم مباشراً، فقد قسمت المستعمرة الى وحدات ادارية ثانوية بلغ عددها (٩٨) وحدة. ويرأس هذه الوحدات وحتى الوحدات الأصغر منها موظف إداري فرنسي. وفي افريقيا الاستوائية كان يطبق نفس النظام حيث قسمت الى (٤٤) وحدة قسمت بدورها الى (١٦٤) وحدة صغيرة يرأس كل واحدة منها فرنسي. بينما نلاحظ أن المستعمرات البريطانية في افريقيا كانت تتمتع بنوع من الحكم المحلي سواء باستخدام السكان الوطنيين في الوظائف أو تطوير المستعمرات حسب حاجتها الذاتيه. ففي نيجيريا على سبيل المثال، أنه على الرغم أن المقيمين البريطانيين كانوا هم الذين يقررون سياستها ويشرفون على ادارتها العامة، إلاّ أنه كان يشرف على جهاز الحكم العادي الشخصيات والمجالس المحلية التي تتمتع بصلاحية وضع الميزانية المحلية وفرض الضرائب.

فضلاً عن ذلك، فقد لاحظنا انفاً أن المكتب الاستعماري التابع الي وزارة البحرية كان مسؤولاً عن المستعمرات حتى عام ١٨٩٤، وبعد ذلك تم استحداث وزارة المستعمرات لتتولى هذه المهمة. وفي كلا الحالتين لم يكن للبرلمان الفرنسي أن تدخل في شؤون المستعمرات. وبعبارة أخرى. أن شؤون المستعمرات كانت تدار وتوجه من قبل ضباط عسكريين أو موظفين في الوزارة وهم الذين يتخذون القرارات الخاصة عند بروز القضايا الخاصة بالمستعمرات. وفي بريطانيا، فإن الوضع كان مغايراً تماماً، حيث أن البرلمان البريطاني القول الفصل في هذه القضايا.

وبما أن كل مستعمرة فرنسية كانت تحكم بصورة لا تختلف عن أي ارض فرنسية، فقد تمتعت هذه المستعمرات بحق التمثيل البرلماني في باريس. فقد منحت الجزائر في عام ١٨٧٥، على سبيل المثال، حق انتخاب ممثلين لهم من المستوطنين الفرنسيين[١٨٨] من جهة أخرى، كان الحاكم العام للمستعمرة الفرنسية هو الذي يضع الميزانية المالية الخاصة بالمستعمرة، إلاّ أن البرلمان في العاصمة الفرنسية كان يشرف عليها ويستلم التقارير المتعلقة بميزانية جميع المستعمرات، في حين كانت الصورة مغايرة في بريطانيا. فلم تكن للمستعمرات البريطانية تمثيل في مجلس العموم. ولا تحكم من قبل لندن ولا يستلم مجلس العموم تقارير مالية خاصة بالمستعمرات لأنها كانت تحكم نفسها بنفسها. أما وزارة المستعمرات التي أوجدت لاحقاً فلم تكن تتدخل بشؤون مستعمرات التاج إلاّ في حالة واحدة وهي عند حدوث أزمة مالية في المستعمرات. ولم تكن الأخيرة تسهم مطلقاً في الميزانية البريطانية. ولا تستلم بريطانيا أية معونات ماليه من مستعمراتها في حين كان كل ذلك يحدث في فرنسا[١٨٩].

ومن الخصوصيات الأخرى للاستعمار الفرنسي هو أن سياسته تجاه سكان المستعمرات وحياتهم كانت التدخل في كافة شؤونهم الداخلية وفي عاداتهم وتفكيرهم وخصوصيته.

فحاول الفرنسيون دراستها وفهمها(١٩٠). بينما لم يتدخل البريطانيون في هذه الأمور.

وأخيراً فأن الخصوصية الأخيرة التي امتاز بها الاستعمار الفرنسي – ولو أن الاستعمار الألماني يشاركه فيها الى حد ما – هو أنه كان استعماراً ثقافياً. فالمجتمع الفرنسي في نظر الفرنسيين كان متقدماً وأن الثقافة الفرنسية هي السائدة وأن من حق فرنسا أن تجبر سكان مستعمراتها علي ترك لغتهم وثقافتهم وعاداتهم وتبني اللغة والثقافة والعادات الفرنسية. وتعرف هذه العملية بالتمثيل الثقافي Cultural Assimilation فعندما جاء الجمهوريون الفرنسيون الى الحكم بعد حرب السبعين وبعد عام ١٨٧٩ دفعوا بعجلة التمثيل الثقافي. وتحدث الكثير من الفرنسيين (بمهة فرنسا الحضارية تجاه الشعوب الأقل تقدماً) فكانوا يرون (أن الموضوع هو ليس القيام بضم أراضي واسعة...أو زيادة الثروة العامة أو الخاصة. أن الهدف هو نشر مبادئ واسس حضارة احدى اقدم الأمم التي لها الحق أن تفتخر في أراضي كانت بالأمس بربرية. والهدف هو ايجاد عدة فرنسات قريبة أو بعيدة منا... وذلك بحماية لغتنا وعاداتنا وأفكارنا والمجد الفرنسي من المنافسة الشديدة للأمم الأخرى التي تنهج نفس الطرق والأساليب.(١٩١)

هوامش البحث

1- Silverman. D.P The Economic consequence of Annexation: Alsace - Lorraine and Imperial Germany 1871 - 1918 Central European History, vol. IV, 1971, PP. 34-53.

2- Cooke, J - J, New French Imperialism: The Third Republic and Colonial Expansion 1880 - 1910 (Plymouth, 1973) P.14.

3- Wolf. J.B, France 1814 - 1914 (New York, 1963) P.412.

4- Andrew, C.M & Kanya - Forstner, A. S The French Colonial Party: Its Composition, aims and Influence, The Historical journal, Vol. XIV, No-1, 1971, P - 99, Cooke, Op, Cit. P.10.

5- Quoted in Roberts, S.H. The History of French colonial Policy 1870 - 1925 (London, 1963) PP. 11 - 12.

6- Chamberlin, M. E. The New Imperialism (The Historical Association, London, 1970) P. 4 ; Brown, M. B. The Economics of Imperialism (London, 1974)PP. 185 - 188.

7- Woolf, L. Economic Imperialism in The Theory of Imperialism, edited by D. K. Fieldhouse (London, 1969) P. 166.

8- Quoted in Pollard, S & Holmes C. Documents of European Economic History, vol. II, Industrial and National Rivalary 1870 - 1914 (London, 1972) PP. 169 - 170.

9- Wilson, C. The Economic Role and Mainsprings of Imperialism in Colonialism in Africa 1870 - 1960, edited by L.H. Gann & Duignan. Vol. IV (Cambridge University Press, 1975) P. 72.

10- Queted in Roberts , Op, Cit. PP. 17 - 21.

11- Abrams, L & Miller. D.J. Who were the French colonialists? A reassessment of the parti Colonial 1890 - 1914. The Historical journal, Vol XIX (1976) PP. 685 - 725, Jackson, J.H. Clemenceau and the Third Republic (London, 1962) P. 59.

12- Mitchell, B.R. & Deare, P. Abstract of British Historical Statistics (Cambridge University Press, 1971) P.6.

13- Chapman, G. The Third Republic of France, The First Phase 1871 - 1894 (london 1962) P. 78; Mitchell, Op. Cit, P.6.

14- Chapman, Op, Cit. P. 371.

15- Roberts, J. M, Europe 1880 - 1945 (London, 1970)P. 26.

16- Kemp,T. Economic Forces in French History (London, 1971) P.295.

17- Nere, J. The French Republic in The New Cambridge Modern History, Vol, XI, Material Progress and World - Wide Problems 1870 - 1898, edited by F.H. Hinsley (Cambridge University Press, 1976) PP. 308 - 90.

18- Woodward, L. Prelude to Modern Europe 1815 - 1914 (London, 1972) P. 63.

19- Chapman, Op. Cit. P. 80.

20- Kemp, T. Industrialization in Nineteenth - Century Europe (Edinburgh, 1971) PP. 48, 57, 59; Woodward, Op. Cit. P. 63.

حول موضوع الارث انظر:

Zeldin, T. France 1848 - 1945, Vol. I (Oxford University Press, 1973) PP. 143 - 5.

21- Woodward, Op. Cit. P.63.

22- Kemp, Economic Forces in French History, PP. 276 - 7.

23- Chapman, Op. Cit, P. 63.

24- Roberts, Europe 1880 - 1945, P. 143.

25- Chapman, Op. Cit. PP. 79 - 80.

26- Roberts, Europe 1880 - 1945, P. 32; Zeldin, Op. Cit, P. 173.

27- Schider, T. "Political and Social Development in Europe" in The New Cambridge Modern History, Vol. XI, P. 247.

28- Pollard, Op. Cit, Vol. II, PP. 6-7.

29- Clapham, Op, Cit. P.79.

30- Ibid, PP.79 - 80.

31- Woodward , Op. Cit. P.63.

32- Clapham, J. H. Economic Development of France & Germany 1815 - 1945 (Cambridge University Press, 1966), P. 159; Kemp, Economic Forces in French History, P. 297.

33- Kemp, Economic Forces in French History, P. 297.

34- Ibid, P. 227.

٣٥- الجدول الآتي يوضح التركيب الاجتماعي لسكان المانيا للأعوام ١٨٧١ - ١٩١٠.

الأعوام	مجموع السكان	نسبة سكان الريف	نسبة سكان المدن
١٧٨١	٤١,٩٠,٠٠٠	٦٣,٩	٣٦,١
١٨٨٠	٤٥,٢٣٤,٠٠٠	٥٨,٩	٤١,٤
١٨٩٠	٤٩,٤٢٨,٠٠٠	٥٧,٥	٤٢,٥
١٩٠٠	٥٦,٣٦٧,٠٠٠	٤٥,٦	٥٤,٤
١٩١٠	٦٤,٩٢٦,٠٠٠	٤٠	٦٠

Clapham, Op, Cit. P. 278.

36- Roberts, Europe 1880 - 1945, P. 36.

37- Nere, Op, Cit. P. 307.

38- Clapham, Op, Cit. P. 159.

39- Kemp, Economic Forces in French History, P. 291.

40- Chapman, Op, Cit. P. 92.

41- Zeldin, Op, Cit. P. 148.

42- Ibid.

43- Woodward, Op, Cit. P.65.

44- Clapman, Op, Cit. P. 165.

45- Zeldin, Op, Cit. P. 184.

46- Ibid, P. 146.

47- Clapham, Op, Cit. P. 165.

48- Roberts, Europe 1880 - 1945, P. 32.

49- Kemp, Economic Forces in French History, PP. 227 - 8; Woodward. Op, Cit. PP. 62, 228 - 9.

50- Kemp, Economic Forces in French History, P. 233.

51- Zeldin, Op, Cit. P. 183.

52- Pollard, Op. Cit. Vol II, PP. 4 - 6.

53- Clapham, Op. Cit. PP. 171 - 2; Kemp, Economic Forces in French History, P. 229.

54- Clapham, Op. Cit. P.112.

55- Kemp, Economic Forces in French History, P. 228.

56- Ibid, PP. 232 - 5.

57- Chapman, Op, Cit. PP. 83, 92, 112 - 3.

58- Palmer, R.R., Atlas of world History (New York, 1975)P. 194.

59- Woodward, Op, Cit. PP. 62 - 3.

60- Clapham, Op, Cit, P. 232; Roberts, Europe 1880 - 1945, P.28.

61- Chapman, Op, Cit, PP. 371 - 2.

62- Ibid. P. 159.

63- Zeldin, Op, Cit. P. 172.

64- Kemp, Economic Forces in French History, P. 214.

65- Chapman, Op, Cit. P.357.

66- Ibid. P. 366.

67- Zeldin, Op, Cit. PP. 133, 137.

68- Ibid, P. 132.

69- Ibid, P. 170.

70- Kemp, Industrialization in Nineteenth Century Europe, PP. 48, 52; Zeldin, Op, Cit. P.147.

71- Chapman, Op. Cit. P.90.

72- Industrialization in Nineteenth Century Europe, PP. 52, 58.

٧٣- يوضح الجدول الآتي حجم توفير الفرنسيين من الأموال في البنوك خلال المدة ١٨٥٠ – ١٨٧٠

الأعوام	حجم التوفير بملايين الفرنكات	عدد دفاتر التوفير	معدل التوفير لكل دفتر بالفرنكات	عدد الدفاتر لكل ألف شخص
١٨٥٠	١٣٤٫٩	٥٦٥٩٩٩٥	٢١٨	١٦
١٨٥٢	٢٥٤٫٤	٧٤٢٨٨٩	٣٤٠	٢١
١٨٥٤	٢٧١٫٦	٨٦٥٤٧٨	٣١٣	٢٤
١٨٥٦	٢٧٥٫٣	٩٣٦١٨٨	٢٩٤	٢٦
١٨٥٨	٣١٠٫٥	١٠٤٢٢٠٥	٢٩٧	٢٩
١٨٦٠	٣٧٧٫٣	١٢١٨١٢٢	٣٠٩	٣٤
١٨٦٢	٤٢٤٫٢	١٣٧٩١٨٠	٣٠٧	٣٧
١٨٦٤	٤٦٢٫١	١٥٥٤١٥١	٢٩٧	٤٢
١٨٦٦	٥٢٨٫٩	١٧٤٨٩٤٤	٣٦٠	٤٧
١٨٦٨	٦٣٣٫٢	١٩٧١٥٢٣	٣٢١	٥٢
١٨٧٠	٦٣٢٫٢	٢٠٧٩١٤١	٣٠٣	٥٨

Kemp, Economic Forces in French History, P. 216.

٧٤ – شهد عقد الاربعينات من القرن الماضي تطوراً كبيراً في مد السكك الحديدية، في فرنسا فقد ازدادت أطوالها كما يلي:

الأعوام	الطول/كم	الأعوام	الطول/كم
١٨٤١	٥٧٣	١٨٤٥	٨٨٠
١٨٤٢	٦٠٠	١٨٤٦	١٣٢٢
١٨٤٣	٨٢٩	١٨٤٧	١٨٣٢
١٨٤٤	٨٣١	–	–

Ibid, P. 140.

75- Ibid, P. 214.

76- Ibid, P. 216.

77- Ibid, P. 215.

78- Ibid, PP. 214 - 5.

79- Zeldin, Op, Cit, PP. 173 - 4, 188. Ibid, PP. 174 - 5, 650

لم يطرأ تحسن ملحوظ على الزراعة بل على العكس فقد شهدت

تدهوراً كبيراً ادت الى فرض تعرفة كمركيه عاليه في عام ١٨٩٢ عرفت بقانون التعرفة الكمركيه لـ Meline وكان لهذا القانون اربع نتائج. الأولى هي أنه تم الإبقاء على الزراعة كما كانت عليه سابقاً. فظلت تستخدم نفس الطرق من دون تحديثها وظلت نسبة كبيرة من العمالة مرتبطة بالأرض. بعبارة أخرى أبقت فرنسا أرضاً للمزارعين. والنتيجة الثانية هي أن هذا القانون ابقى المزارعين بعيدين عن التحديث والتطوير ولم يستطيعوا التكييف مع نتائج التطور الصناعي الذي شهدته فرنسا خلال العقد الأخير من القرن الماضي وما بعده. فكان من المفروض أن يتزامن مع فرض التعرفه الكمركيه استثمار أموال وتطبيق تقنية جديدة في الزراعة. وعلى الرغم من صدور قانون في عام ١٨٩٧ يتضمن دعم الدولة للزراعة إلاّ أنه كان ضعيفاً ولم يكن عاملاً لتطوير الزراعة. أما النتيجة الثالثه لقانون فرض التعرفة الكمركيه وقانون دعم الدولة للزراعة هو أنه شجع المزارعين على الاعتقاد بأن تحسين الانتاج الزراعي هو من مسؤولية الدولة فقط. أما النتيجة الأخيرة، فإن قانون التعرفة الكمركيه قد أدى الى ابطاء عملية التصنيع في فرنسا. ومن الجدير بالذكر أن نسبة التعرفة الكمركيه في فرنسا وبخاصة على المواد الغذائية كانت أعلى نسبة في دول أوروبا الغربية لكنها مساوية لما في النمسا - المجر حيث بلغت ٢٩٪ أما في ايطاليا والمانيا فقد بلغت ٢٢٪ وفي سويسرا ١٥٪ وفي السويد ٢٤٪

Ibid PP. 174-5,650.

80- Woodward, Op, Cit. P. 64.

81- Clapham, Op Cit. P.232.

كان ربع سكان فرنسا يسكنون المدن في عام ١٨٥١، أي أن ٢٥٪ من سكان فرنسا كانوا قد انتقلوا من الريف الى المدن خلال السبعين عام (١٨٥١ - ١٩٢٠).

82- Woodward, Op, Cit. P. 103.

83- Thomson, D. Democracy in France since 1870 (Oxford University Press, 1964) P. 45.

84- Clapham, Op, Cit. P. 233; Thomson, Op, Cit. P. 106.

85- Clapham, Op, Cit. P. 238.

يورد تايلر احصائية عن سعر الطن الواحد المستخرج من الفحم في بعض الدول الأوروبية وكما يلي:

بلجيكا	١٢ر٨ شلناً	المانيا	١٠ر٥ شلنا
فرنسا	١٢ر٧ شلناً	بريطانيا	٨ر٧٣ شلناً.

Taylor, A. J. P. The Coal Industry in The Development of British Industry and Foreign Competition 1875 - 1914, edited by Derek H. Aldcroft & (London, 1968) P.44.

86- Clapham, Op, Cit. P. 281; Mitchell & Deane, Op, Cit. PP. 115 - 6; Taylor, A.J.P. The Struggle for Mastery in Europe 1848 - 1918 (Oxford University Press, 1971). P. XXIX; Wood, A, Europe 1815 - 1945 (London, 1972) P. 491.

87- Taylor, The Coal Industry, P. 45.

88- Clapham, Op, Cit. PP. 233 - 4.

89- Ibid, P. 235.

90- Ibid P. 285; Mitchell & Deane, Op, Cit. PP. 131 - 3, 136- 7; Taylor, The Struggle for Mastery in Europe, P. XXX; Taylor, The coal Industry, PP. 37 - 71; Wood, Op. Cit. P.491.

91- Clapham, Op, Cit. P. 238.

92- Ibid, P. 243.

93- Saul, S.B. The Engineering Industry in The Development of British Industry and Foreign Competition, P. 223.

94- Clapham, Op, Cit. P. 238.

95- Ibid, P. 239.

96- Ibid, P. 245.

97- Ibid, P. 256; Aldcroft, D.H. The Mercantile Marine in The Development of British Industry and Foreign Competition P. 327.

98- Aldcroft, Op, Cit. PP. 329, 362 - 3.

99- Zeldin, Op, Cit. P. 72.

100- Ibid, PP. 59 - 60.

كانت أموال أصحاب العقارات في عهد لويس فيليب (١٨٣٠ - ١٨٤٨) موزعة كما يلي: ٤٣٪ في الأراضي والدور (ثلثين في باريس والباقي في المدن الفرنسية الأخرى)، ١٨٪ في سندات الدولة والتي هي الأضمن بعد الإراضي والدور، و ١٥٪ قروضاً الى الأشخاص ٧ر٣٪ أسهماً في الشركات و ٥ر٤٪ اسهماً في بنك فرنسا.

101- Ibid, P. 181.

102- Feis, H., Europe: The World's Banker (New York, 1965) P. 35.

103- Ibid, PP. 23 - 4, 35 - 6.

104- Andrew, C.M. & Kanya - Forstner, A.S . French Business and the French Colonialists, The Historical Journal, Vol XIX, No. 4, (1976) P. 981.

105- Cobban, A. , A History of Modern France, Vol. 3 (Penguin Books. 1972) P. 72; Andrew & Kanya - Forstner, Op, Cit. P.982.

106- Feis, Op, Cit. P. 36.

107- Ibid, P. 43.

108- Clapham, Op. Cit, P. 258.

109- Feis, Op, Cit. P.34.

110- Andrew & Kanya -Forstener, Op, Cit. P. 982.

111- Long, J. France - Russian Relations during the Russians Japanese War. Slavonic and East European Review, Vol XXV, 1974, PP. 215 - 9; Andrew - Kanya - Forstner. Op. Cit, P. 982.

١١٢– بلغت قيمة ما استوردته روسيا من المنتجات المصنعة خلال الأعوام ١٨٨٤ – ١٩٠٤ (١٨٠) مليون فرنك، وكانت صادرات فرنسا الى روسيا خلال الأعوام ١٩٠٢ و ١٩٠٣ أقل بكثير من صادرات المانيا أو بريطانيا الى روسيا والجدول الآتي يوضح ذلك.

الدولة	١٩٠٢	١٩٠٣
فرنسا	٨١ر٥٠٠ر٠٠٠ روبل	١٠٤ر٠٠٠ر٠٠٠روبل
المانيا	٤٠٦ر٥٠٠ر٠٠٠روبل	٤٦٨ر١٠٠ر٠٠٠روبل
بريطانيا	٢٨٩ر٠٠٠ر٠٠٠روبل	٣٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠روبل

العامر، يقظان سعدون، معاهدة الحلف الالماني – الروسي الفاشلة لسنة ١٩٠٤، دراسات في التاريخ والآثار، العدد ٧، ١٩٩٠، ص ١٢٧ – ١٢٨.

113- Long. Op. Cit. PP. 215 - 20; Andrew & Kanya - Forstner, French Business and the French Colonialists, P. 982.

العامر، المصدر السابق، ص ١٢٥ – ١٢٩.

114- Feis, Op. Cit. P. 37.

115- Ibid, P. 36.

116- Ibid. P. 37.

117- Kemp. Economic Forces in French History, P. 301.

118- Cairncross, A. K. Did Foreign Investment Pay in The Theory of Capitalist Imperialism, P.155.

119- Feis, Op. Cit. P.38.

ارتفعت قيمة سندات الأوراق الماليه للاستثمارات الماليه الفرنسية وكما يلي:

١٨٧٤ ١٠٠٠ مليون دولار ١٩٠٠ ٥٦٠٠ مليون دولار

١٨٨٥ ٣٥٠٠ مليون دولار ١٩١٣ ٨٧٠٠ مليون دولار

Brown, The Economics of Imperialism, P. 171.

120- Ibid, P. 173.

121- Kemp, Industrialization in Nineteenth Century Europe. P. 70.

122- Feis, Op, Cit. P. 51; Brown, M. B. Imperialism in Our Era in Spheres of Influence in the Age of Imperialism Published by the Bertrand Russell Peace Foundation (Nottingham, 1972) P. 67; Cohen, B.J. The Question of Imperialism, The Political Economy of Dominance and Dependenece (London, 1974) P. 65.

١٢٣– كانت الاستثمارات الفرنسية في روسيا تشكل ٣٣٪ من مجموع الاستثمارات الاجنبية في روسيا، وتركزت هذه الاستثمارات الفرنسية في الصناعات التعدينية والمناجم وفي التسليح.

Falkus, M.E. The Industrialization of Russia 1700 - 1914 (London, 1972) P. 71.

وقد بلغت الاستثمارات الروسية عشية الحرب العالمية الأولى قرابة (٥٠٠) مليون باوند استرليني من السندات الروسية وبفائدة تتراح بين ٤ – ٥٪.

Cairncross, Op. Cit. P. 155.

أما الاستثمارات الفرنسية في الامبراطورية العثمانية فتتمثل بحصة فرنسا في ديون الحكومة العثمانية التي حددها مرسوم محرم الذي صدر في عام ١٨٨١ والذي تضمن انشاء مجلس الدين العثماني. للتفاصيل انظر:

Blaisdell, D.C. European Financial Control in the Ottoman Empire (New York, 1966) PP. 90 - 108.

أما حصة فرنسا في مجلس الدين العام فقد ازدادت بمرور الزمن حيث بلغت ٩ر٣٨٪ في عام ١٨٨١ لترتفع الى ٩ر٤٤٪ في عام ١٨٩٨، أما في عام ١٩١٢ فإنها وصلت الى نسبة ٥ر٥٨٪

Feis, Op, Cit. P. 319.

124- Cameron, R.E. France and Economic Development of Europe 1880 - 1914 (Princeton, 1961) P. 486; Wilson, Op. Cit. P. 74; Cohen, Op, Cit. P. 64; Kenwood and Loughead, The Growth of the International Economy 1820 - 1890 (London, 1971) P.46.

125- Fieldhouse, D.K. Economics and Empire 1830 - 1914 (London 1973) P. 60.

126- Longer, W.L, Critique of Imperialism, Foreign Affairs.

Vol, XIV, October, 1935, PP. 102 - 3; Cobban, Op, Cit, Vol, 3, P. 72.

127- Zeldin, Op, Cit. PP. 198 - 9.

128- Ibid, P. 90.

129- Ibid, P. 210.

130- Woodward, Op, Cit. P. 100.

131- Zeldin, Op, Cit. PP. 95 - 6.

132- Ibid, P. 104.

133- Ibid, P. 106.

134- Ibid, PP. 106 - 7.

١٣٥- ازداد انتاج أفران صهر المعادن الفرنسية على سبيل المثال، ستة أضعاف خلال الأعوام ١٨٧٠ - ١٩١٠. إلاّ أن الزيادة في المانيا كانت عشرة أضعاف.

Thomson, Op. Cit. P. 45.

136- Clapham, Op, Cit. P. 258; Zeldin, Op, Cit. .P.57.

137-Kemp, Economic Forces in French History, PP. 247 - 57.

138- Ibid, P. 294.

139- Clapham, Op. Cit. PP. 246 - 7.

140- Ibid, P. 242; Singsworth, E.M & Blackman, J. M. The Woollen and worsted Industries in The Development of British Industry and Foreign Competition, P. 193.

141- Clapham, Op. Cit, P. 248.

142- Tyson, R.E. The Cotton Industry in The Development of British Industry and Foreign Competition, P. 104.

143- Zeldin, Op, Cit. P. 69.

144- Clapham, Op Cit. PP. 248 - 9.

145- Sigworth & Blackman, Op. Cit. P. 140.

146- Ibid, P. 145.

147- Ibid, P. 141.

148- Clapham, Op, Cit. PP. 251 - 2.

149- Ibid, PP. 252 - 5.

150- Head, P. Boots and Shoes, in The Development of British Industry and Foreign Competition, P. 161.

151- Clapham, Op, Cit. P. 241.

152- Thomson, Op, Cit. P. 67.

153- Byatt, I.C.R, "Electrical Products" in The development of British Industry and Foreign Competition, P. 247.

154- Value of total Imports from and of total exports to the various Foreign Countries and British Possessions, Mitchell & Deane, Op, Cit. PP. 283 - 4. 304 - 5; Statistical Absrtract for the United Kingdom in each of the last fifteen years from 1878 - 1892, Accounts & Papers (C. 7143), 1893. Vol. LXXXVI. PP. 48 - 51.

155- Brown, Imperialism in Our Era, P. 84.

156- Feis, Op, Cit. P. 49.

157- Cohen, Op. Cit. P. 61.

158- Brunschwig, H. French Colonialism 1871 - 1914. My ths and Realties, translated by W.G. Brown (New York. 1966) P. 89; Andrew & Kanya - Forstner, French Business, P. 983.

159- Wolf, L. Empire and Commerce in Africa (New York. 1920) P. 330.

160- Andrew & Kanya - Forstner, French Business, P. 984.

161- Brunschwig, Op, Cit. P. 92.

162- Robinson, R. Introduction in Ibid, P. VIII.

163- Roberts, The History of French Colonial Policy, P. 635.

164- Feis, Op. Cit. P. 56.

165- Newbury, C. W. The Development of French policy on the Lower and Upper Niger 1880 - 98, Journal of Modern History, Vol. XXXI, No. 1, 1959, PP. 16 - 26; Betts, R. F. Assimilation and Association in French Colonial Theory 1890 - 1914 (New bury 1961) P. 90. New bury, C.W & Kanya - Forstner, A.S. French Policy and the Scramble for Africa, Journal of African History, Vol, X, 1964, PP. 253 - 75; Wilson, Op. Cit. PP. 74 - 5.

١٦٦- وكيل قسم المستعمرات ١٨٩٣ ووزير المستعمرات ١٨٩٤ - ١٨٩٥.

١٦٧- جزائري المولد أصبح وكيل قسم المستعمرات في وزارة البحرية للأعوام ١٨٨٧ - ١٨٨٨ و ١٨٨٩ - ١٨٩٢.

١٦٨- عسكري قام بحملة من جنوب الجزائر حتى بحيرة تشاد عام ١٨٩٢.

١٦٩- الحاكم العسكري للسنغال ١٨٧٦.

١٧٠- وزير البحرية ١٨٧٩ - ١٨٨٣.

١٧١- جغرافي قام بمهمات لاكتشاف الكونغو عام ١٨٩٠.

١٧٢- جغرافي توجه الى الكونغو خلال الأعوام ١٨٧٥ - ١٨٧٨ وعام ١٨٧٩ حيث وقع معاهدات وحصل على امتيازات في عام ١٨٨٠ ورجع الى فرنسا عام ١٨٨٢ حيث صادق البرلمان الفرنسي على ما حققه وخصص الأموال اللازمة لتنفيذ ما توصل اليه.

Lucas, Sir Charles, The Scramble and France - German National Problems in The Scramble for Africa: Causes And Dimensions of Empire, edited by R.F. Betts (Massachusetts, 1972) P. 22; Stengers, J. The Scramble Effect of French African Activity in Ibid, PP. 65 - 6.

173- Betts, Assimilation and Association, P. 90; Kruger. A, Hobson, Lenin and Schumpeter on Imperialism, Journal of History of Ideas, 1955, P. 257. Cooke, Op, Cit. P. 19; Andrew & Kanya - Forstner, The French colonial Party, P. 126.

174- Cooke, Op, Cit. P. 174.

175- Jackson, Op, Cit. P. 59; Burry, J. P. T. Gambetta and the Making of the Third Republic (London, 1973) PP. 328 - 65; Andrew & Kanya - Forstner, The French Colonial Party P. 127.

176- Jackson, Op. Cit. P. 59.

177- Taylor, A.J.P. Bismarck's Accidental Acquistion of African Empire in The Scramble for African, P. 31; Jackson, Op, Cit. P. 59; Cooke Op, Cit. PP. 10 - 11, 172 - 3.

178- Lucas, Op, Cit. P. 21.

179- Jackson, Op, Cit. P. 59.

180- Fieldhouse, The Theory of Capitatit Imperialism P. 190.

181- Wilson, Op, Cit. PP. 74 - 5.

182- Taylor, Bismarck's Accidental Acquistion of African Empire, PP. 31 - 2.

183- Andrew & Kanya - Forstner, The French colonial Party, P. 101.

184- Gann & Guignan,, Op Cit. P. 114.

185- Betts, Assimilation and association, P. 20.

186- Roberts, History of French Colonialism, P. 636

187- Ibid, P. 637.

188- Betts, Assimilation and Association, P. 20.

189- Roberts, History of French Colomialism, P. 651.

190. Ibid, P. 653.

191- Betts, Assimilation and Association, PP. 29 - 31.

التحديات الصليبية في غرب الوطن العربي خلال القرن الخامس الهجري ودور العلماء الأندلسيين في التصدي لها

د. ابراهيم القادري بوتشيش
أستاذ تاريخ المغرب و الأندلس
جامعة مولاي إسماعيل بمكناس
– المغرب –

ما إن يعكف الباحث على التنقيب في مسيرة التاريخ العربي، حتى يعثر على سيل من الفترات العصيبة التي ألّمت بالأمة العربية ، وفيض من التحديات الأجنبية التي حاولت أن تعصف بقيمها، وسعت إلى تقزيم دورها وتذويب هويتها بيد أنه لا بد أن يجد ثوابت بارزة ميزت مسار تاريخ هذه الأمة، ومن أبرز تلك الثوابت أن أمتنا ظلت على مرّ الأزمنة والأحقاب، تواجه هذه التحديات بجرأة وصمود تمخض عنهما تحقيق النصر والغلبة في نهاية المطاف.

ومن نافلة القول أ المؤرخين العرب في العصور الوسطى تعرضوا في ثنايا مصنفاتهم لذكر هذه التحديات وأخبار متنوعة عن وسائل التصدي لها، عبر إشارات متناثرة يكفي تجميعها لتكوين صورة واضحة، لكنهم لم ينصفوا – فيما نرى – الدور الريادي الذي قام به العلماء لمجابهة التحدي الصليبي الذي كان يجثم على صدر الأمة العربية في كل وقت وحين.

انطلاقاً من هذه الإشكالية سنتطرق في هذه الدراسة المتواضعة لنموذج من التحديات الصليبية التي تعرضت لها أمتنا العربية في جناحها الغربي (الأندلس) ابان القرن الخامس الهجري لنبرز دور علماء تلك الحقبة في التصدي لها، والحيلولة دون استفحال الشرخ الذي أصاب العرب آنذاك في غرب الوطن العربي ومشرقه على السواء.

تستلزم القاعدة المنهجية أن نعرض في البداية لأوضاع الأندلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، لتتجلى لنا صورة التمزق الذي كان ينخر جسد الشعب العربي في هاته المنطقة الغربية، ولنقف على أشكال التحدي الصليبي الذي بلغ ذروته آنذاك، حتى يتبيّن لنا بوضوح شموخ الدول الذي اضطلع به العلماء لرفع تلك التحديات.

إذا كانت التحرشات الصليبية في مشرق الوطن العربي خلال القرن الخامس الهجري، قد احتدت لتسفر عن احتلال بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، فإن التحدي الصليبي بالأندلس لم يكن يقل خطورة عنه.

وقبل عرض أشكال وصور التحرشات النصرانية في هذا البلد، نرى ضرورة الوقوف على أوضاعه المتفاقمة التي مهدّت وساعدت على تجدّر الخطر النصراني.

سياسياً، لم تكن الأندلس خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري (٨٨م) في وضعية تحسد عليها. فالخلافة الأموية جسّدت آخر تجربة وحدوية، وكان سقوطها إنذاراً بظهور عصر الطوائف أو ما تسميه بعض المصادر[١] بـ (أيام الغرق) التي أصبحت فيها الأندلس نهباً لكل مغامر آنس من نفسه القوة، ولا غرو فقد تقاسمتها شرذمة من المتربصين بالسلطان، ممن استبدوا بنواحيهم، فأسسوا كيانات مهترئة وصل عددها الى ثلاث وعشرين دويلة[٢].

ولدينا شهادة معاصرة تؤكد حالة التمزق الذي بلغ أوجه في هذه المرحلة إنها شهادة الفقيه ابن عبد البر[٣] الذي عايش أحداث ذه الحقبة فكتبب بهذا الخصوص قائلاً: «وانقطع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب على موضع ملكه واستعبد أهله، وكثر فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف اليهم أضعاف ما كان المسلمون يأخذون منهم اليوم».

ويورد الأمير عبدالله بن بلكين[٤] أخر أمراء غرناطة، الذي يعتبر وثيقة هامة بحكم معاصرته للأحداث، نصاً يشير الى هذا المعنى، مضيفاً ما يعكس الأزمة السياسية السائدة آنذاك: «وبقي الناس لا إمام لهم، فتنافسوا على الدنيا، وطمع كل واحد في

الآخر، وكذلك لا يصّح أمر بين نفسين، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة». ولعل اتخاذ ألقاب خلافية متعددة من طر ف أمراء الأندلس يعكس عمق هذه الأزمة(٥).

علاوة على ذلك، لم تتوفر الدويلات الطائفية على أبسط مقومات الدولة، إذ اتسمت بأسسها الهشة، وافتقرت الى قاعدة تضمن لها كياناً سياسياً صلباً له وجود اجتماعي مستقل، كما أن صغر مساحتها وقلة عدد سكانها، وطبيعة حكومتها الأتوقراطية، وعدم توفرها على قوة عسكرية للدفاع عن حدودها(٦)، كل ذلك جعل منها كيانات رخوة شبيهة بالدولة الإقطاعية(٧)، لذلك ظلت عاجزة عن انجاز أي دور وحدوي. كما اتسمت بالضعف والوهن حتى «ذلّ الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الاسلامية»(٨)

يضاف الى ذلك أن هذه الدويلات أغرقت نفسها في صراعات دموية زادت من هشاشتها، وهو ما عبّر عنه أحد المؤرخين(٩) تعبيراً رائعاً بقوله: «وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات».

استمرت هذه الحالة المؤسفة ما يربو عن الثمانين سنة، كلها تفكك خطير، وانحلال سياسي واجتماعي عميق. وظل التنافر لغة التخاطب السائدة بين ملوك الطوائف الذين تناسوا مسؤولياتهم القومية، بل فضّل معظمهم الاستعانة بالممالك النصرانية حفاظاً على عروشهم الواهية. لذلك لم يتورعوا عن سفك الدماء ومقاتلة إخوانهم العرب. يقول ابن الكردبوس(١٠) في هذا الصدد: «وكان أسرّ شيء عن الفنش فتنة تقع بين الولاة «إشارة الى أمراء الطوائف» من المسلمين، فيعين هذا على هذا، وهذا على هذا، فيستجلب بذلك أموالهم طمعاً من أن يعحزوا فيظفر بملك الجزيرة كلّها».

لم يكن هذا الواقع السياسي المهترئ سوى انعكاس أمين للوضع الاقتصادي المتدهور الذي أفرزته اعتداءات الفونسو، الذي شكل قوة ضغط على ملوك الطوائف، حتى جعلهم حسب تعبير دوزي(١١) «في المعصرة» وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق سنّ ضرائب سنوية PARIAS(١٢)، ازدادت مقاديرها بشكل مروع الى درجة أن بعضهم عجز أن أدائها(١٣) فكانت جولاته العسكرية تعود كل مرة محملة بالضرائب(١٤)، وظل الأمر على هذا النحو حتى قدوم المرابطين(١٥).

خلفت هذه السياسة الجبائية نتائج متناقضة على المستوى الاقتصادي: ففي الوقت الذي امتلأت خزائن الفونسو، بموارد ضافية (حوالي ٤٠ كلغ من الذهب كل سنة)(١٦)، تفاقمت الوضعية الاقتصادية بالأندلس، وازدادت تدهوراً وانهياراً.

وساهمت الحروب بين الإمارات الإقطاعية في إنهاك الزراعة ونهب المحاصيل. عبّر عن ذلك ابن بسام(١٧) بقوله: «فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة، لأن جملة غلاتهم وجميع اعتمالاتهم تتلف بأيدي تلك الطواغيت». كما أن عمليات السلب والنهب التي قامت بها القوى النصرانية بين الفينة والأخرى، أسفرت عن خسائر فادحة(١٨). يضاف الى ذلك كثرة المغارم التي ثبطت همة المزارعين «فضعف الاعتمار وخليت الديار»(١٩).

ومما زاد الطين بلة أن أهل الذمة، وخاصة اليهود استبدوا بالسلطة والنفوذ، وهيمنوا على المناصب العليا في الإمارات الطائفية، مما أثار حفيظة الرعية(٢٠).

حدث هذا في الوقت الذي تعاظم شأن النصارى، وجنحت ممالكهم نحو التوحد، مدعمين من قبل الكنيسة البابوية والرهبان الكولونية، لذلك وجهوا كل طاقاتهم نحو دويلات وهو ما عبّر عنه الفونسو، بقوله: «ولكن الرأي كل الرأي تهديد بعضهم ببعض، وأخذ أموالهم أبداً حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت(٢١). وقد تمخض عن هذه الخطة سقوط مدينة طليطلة(٢٢) الذي جاء ضربة قاصمة للدويلات الطائفية، ودليلاً واضحاً على عجزها في وقف الزحف الصليبي المتفاقم.

من البديهي أن تساعد هذه الأوضاع المتردية على احتداد شوكة الصليبيين، إذ أصبح الفونسو، إذا استعرنا تعبير أحد الباحثين(٢٣) «من أكبر الوجوه» التي ستضاعف الزحف المسيحي. ولعلّ تلقيب نفسه بذي الملتين(٢٤) IMPERETOR TOTIUS يزكي هذا المعنى. وتنهض

تحدياته العسكرية حجة على عزمه استرجاع الأندلس برمتها. وحسبنا أنه دوّخ الإمارات الطائفية التي شقتها جيوشه من الشمال الى الجنوب حتى وصلت الى فرضة المجاز من جزيرة طريق تحت سمع أمراء الطوائف وبصرهم[٢٥]، بل إن هؤلاء فضلوا ملاطفته بالأموال والهدايا، والإنغماس في ملذاتهم «بشرب الخمور واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان»[٢٦]، دون أي محاولة لإقامة جبهة متحدة لمواجهة الخطر المشترك[٢٧]. وتشهد الرسالة التي بعثها ألفونسو، الى يوسف بن تاشفين قبيل موقعة الزلاقة على هذه الوضعية المتردية[٢٨].

وتبلور التحدي الصليبي في المواقف التي تبنتها البابوية في هذا الصراع ففي سنة ٤٧٦هـ (١٠٦٣م) قرّر البابا الاسكندر الثاني منح الغفران لكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في الأندلس[٢٩]. وفي نفس السياق اتفق مع ملك قشتالة فرناندو الأول أن يصدر بركته البابوية لكل من يستجيب لهذه الرغبة الصليبية، فهبّ كثير من فرسان غرب أوروبا للمشاركة فيها طمعاً في النهب والحصول على المغانم.

ولما عقد البابا أوربان الثاني مؤتمر «كليرمون» لإذكاء حماس الأمم النصرانية من أجل خوض غمار الحروب الصليبية أراد «برنارد» ومعه عدد من الأساقفة الإسبان التوجة الى المشرق لإفراغ طاقتهم القتالية، لكن البابا حرّم عليهم ذلك، ووجههم للقيام بهذه المهمة في الأندلس التي كانت لا تقل في نظره أهمية عن أراضي المشرق[٣٠]، وبذلك اصبحت «خط الصدام الأول»[٣١] في هذه الحروب، تحت اشراف روما التي أصبحت توجهها كما توجه حروبها في الأراضي المقدسة[٣٢].

وتجلت الروح الصليبية كذلك في دساتير بعض الدول المسيحية ولا عزو فقد تضمنت القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال، قانوناً ينص على أن الذين يموتون في سبيل النصرانية يصبحون أعضاء في طبقة النبلاء، وأن صفة النبل ترفع عن كل شخص يفرّ الى أراضي المسلمين(٣٣).

في هذا المناخ ازداد تحدي الممالك النصرانية، فابن الخطيب(٣٤)، يذكر أن ألفونسو، عرض عليه انصاره بعد احتلال طليطلة أن يلبس التاج، فأرجأهم الى أن يستولي على قرطبة، بل «طمع في الاستيلاء على الجزيرة كلها»(٣٥).

إلى جانب الفونسو، ظهرت شخصية عسكرية أخرى زادت من متاعب عرب الأندلس ألا وهي شخصية القائد الكنبيطور الذي رغم أنه كان لصّاً محترفاً[٣٦]، وقد تمكن من قيادة جماعة من الفرسان المغامرين، وأذاق الأندلسيين الهزائم المرة، حتى أن ابن بسام[٣٧] وصفه بأنه كان «عقالاً وداء عضالاً له في الجزيرة وقائع». وقد راودته أحلام استرجاع الأندلس برمتها[٣٨].

نستخلص مما تقدم، أن الأندلس عرفت خلال القرن الخامس الهجري تحدياً صليبياً قلّ نظيره في مسار تاريخ غرب الوطن العربي، فما هو موقف العلماء من هذا التحدي؟

لقد برزت مواقف العلماء بوضوح تجاه التحديات الصليبية، وإن لم تكن منسجمة بكيفية تامة، فقد استغلوا فرصة إلقاء دروسهم ومحاضراتهم للحض على الجهاد، وإذكاء الحمية الدينية والأنفة الاسلامية. كما تجلت مواقفهم أيضاً من خلال السفارات والوساطات بين أمراء الطوائف ودعوتهم للتصدي للخطر الصليبي، أو من خلال مساهمتهم في إسقاط الحكام المتخاذلين أو المشاركة الفعلية في معارك الجهاد والإستشهاد فيها.

وعلى العموم يمكن معرفة مواقف العلماء من خلال الأدوار التي اضطلعوا بها لمجابهة التحديات الصليبية والتي يمكن رصدها على الشكل التالي:

١- دور العلماء في الوعظ والدعوة لتوحيد الجبهة العربية الاسلامية من أجل الجهاد.

لا جدال في أن النزاعات التي شجرت بين أمراء الطوائف، وما تلاها من مواقف متخاذلة، كان لها وقع سيء على نفسية بعض العلماء الذين بادروا الى الدعوة لنبذ الخلافات بغية تشكيل جبهة عربية متراصة قادرة على قطع دابر الصليبيين، والتصدي لمشاريعهم التوسعية.

وقد بدأت هذه الدعوة التوحيدية منذ سقوط طليطلة سنة ٤٨٧هـ، وتزعمها العلامة الفقيه أبو الوليد الباجي (٤٠٣ - ٤٧٤هـ) الذي جال بلاد الأندلس طولاً وعرضاً،

داعياً الى وحدة الصفوف، ومحذراً من عواقب التفرقة والنزاع[٣٩].

وتتضارب المصادر حول ما إذا كان هذا العالم قد قام بمبادرته من تلقاء نفسه أم أن حاكم بطليوس المتوكل بن الأفطس قد ندبه الى ذلك، فابن الأبار(٤٠) يؤكد الرواية الأخيرة بقوله: «ولما عظم عيث الطاغية» أدفونش بن فردنلند، وتطاول الى الثغور، ولم يقنع بضرائب المال، انتدب للتطوف على أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي يندبهم الى لمّ الشعث ومدافعة العدو وكلهم يصغي الى وعظه». بينما ذهب مؤرخون آخرون[٤١] إلى تبني الرواية الأولى، فأكدوا أن الباجي قام بدعوته التوحيدية الوعظية من تلقاء نفسه. ونحن نرجح هذه الرواية نظراً لإجماع المؤرخين عليها، ولكونها أقرب الى سياق المنطق التاريخي.

ومما يسترعي الانتباه أن دعوة الفقيه الباجي بدأت مباشرة بعد عودته من المشرق العربي، مما يعكس وحدة الظاهرة في التاريخ العربي، والظروف المشتركة التي استلزمت التصدي للخطر الصليبي في مشرق الوطن العربي ومغربه.

ورغم أن جهوده لم تسفر عن نتيجة عملية، فقد نجح على الأقل في وضع أمراء الطوائف أمام الأمر الواقع، وأشعرهم بمسؤولياتهم القومية وضرورة نبذ خلافاتهم وتوحيد كلمتهم لمجابهة الخطر النصراني. يقول المقري[٤٢] بهذا الخصوص: «ولما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشى بينهم في الصلح وهم يجلّلونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستبردون نزعته، ولم يفد شيئاً، فالله تعالى يجازيه عن نيته».

إلى جانب أبي الوليد الباجي، برز دور العلامة المحدث أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني الذي يجسد بحق أنموذج الشجاعة والجرأة والروح النقدية الحرة المستقلة التي أبان عنها بعض العلماء الأندلسيين تجاه حالة التمزق والتشرذم الذي عرفته الأندلس في عصر الطوائف حتى أن موقفه هذا كان وراءه اغتياله[٤٣].

ولا يساورنا شك في أن رحلته الى المشرق العربي جعلته يقف على مفاسد المجتمع الاسلامي، وعلى الأزمات التي كانت تعصف به، والتمزق الذي كان ينخره، فعاد يحمل في نفسه همّ الدعوة للوحدة ورصد صفوف الأمة العربية — الاسلامية.

وبمجرد عودته، التقى بالعامة أبي الوليد الباجي(٤٤)، وهو لقاء يجعلنا نفترض أن بعض مواضيعه دارت حول مسؤوليتيهما في القيام بدور الوعظ، ونصح أمراء الطوائف لتوحيد شبه الجزيرة الأندلسية وهزم التطلعات الصليبية.

ويخيل إلينا أن سقوط بشتر BOBASTRO كانت الحدث الأكثر تأثيراً في نفسه، فقد تألم للمذابح والمآسي التي أصابت مسلمين الأندلس، فبعث الى المعتضد رسالة تفيض بالغيرة والحماس يحضه فيها على جهاد الكفرة وتحرير المدينة[٤٥].

والملاحظ أنه دعّم رسالته باستشهادات قرآنية ليضفي المشروعية الدينية على جرأته وصراحته. لكن ذلك لم يحل دون دفع الثمن غالياً، فقد امتعض المعتضد لما جاء في الرسالة، فقتله بيده[٤٦]، وهو مثال صارخ للتضحيات التي قدمها بعض العلماء خدمة للقضايا القومية ومجابهة التحدي الصليبي.

ومن العلماء الذين قاموا بنفس الدور كذلك عن طريق الدعوة للوحدة واستنهاض الهمم، الفقيه ابن عبد البر، نجل الفقيه الكبير أبي عمر يوسف بن عبدالبر النمري (ت ٤٦٣ هـ). ورغم أسلوب التقية الذي نهجه ومساندته لجرائم المعتضد[٤٧] فإن بعض كتاباته جاءت زاخرة بالدعوة الى الوحدة ورص صفوف عرب الأندلس أمام الزحف الصليبي[٤٨]. ولا غرو فقد جاء في إحدى رسائله: «ورد كتابك يحض على ما أمر الله تعالى من الألفة واتفاق الكلمة وإطفاء نار الفتنة وجمع شمل الأمة في هذه الجزيرة[٤٩]».

وتقوم رسالة ثانية كتبها على لسان أهل بشتر قرينة أخرى على دوره في الدعوة لوحدة الأندلس لمجابهة الخطر النصراني إذ جاء فيها: «ولو كان شملنا منتظماً وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً لما طاش لنا سهم ولا سقط لنا نجم... فتنبهوا تنبهو وقاتلوهم في أطرافكم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغوركم قبل أن يجاهدوكم في دوركم[٥٠]».

٢- دور العلماء في فضح أمراء الطوائف ومعارضتهم لتقاعسهم عن ردّ الأطماع الصليبية.

لعلّ أهم عالم جسّد بحق هذا الدور الفقيه أبو محمد علي بن حزم أحد فطاحلة علماء القرن الخامس الهجري، فعلى خلاف بعض العلماء الذين تبنوا مبدأ الواقعية وعدم الجرأة للتعبير عن معارضتهم للنظام الطائفي على الأقل حتى ظهور يوسف بن تاشفين، كان ابن حزم أكثر افصاحاً في معارضته المطلقة واللامشروطة لدول الطوائف. بل طعن في شرعية النظام الطائفي معتبراً كل أمير «محارب لله تعالى وساعٍ في الأرض بفساد»(٥١)، كما أدان عصر الطوائف فوصفه بعصر الفتنة والغلبة(٥٢)، بل عبدّ جميع الأموال المتداولة في هذا العصر غير شرعية كذلك(٥٣).

وبما أن اليهود كانوا قد استولوا على المناصب العليا في الدويلات الطائفية، وصاروا أصحاب الأمر والنهي، فقد صبّ عليهم جام غضبة وهاجمهم بعنف، وحسبنا أنه أفرد كتاباً لمجادلة اليهودي ابن النغريلة(٥٤).

٣- دور العلماء في إقناع ملوك الطوائف بالإستنجاد بالمرابطين لردّ الخطر الصليبي.

كانت معارضة العلماء لأمراء الطوائف ونظامهم القطري العاجز عن ردع الأطماع الصليبية معارضة خجولة اكتفت بالتلميح أحياناً وبالصمت أحياناً أخرى، وذلك بسبب انقسامهم على أنفسهم، وعدم امتلاكهم قوة عسكرية لتغيير الأوضاع(٥٥). غير أن عاملين ساهما في بروز معارضتهم بشكل قوي وصريح. يتمثل العامل الأول في عدم قدرة أمراء الطوائف على تشكيل جبهة موحّدة لردّ الخطر النصراني. بينما يتجلى العامل الثاني في ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة السياسة، فضلاً عن المساندة الشعبية التي أصبح يتمتع بها الأمير المرابطي.

انطلاقاً من هذه النظرية الجديدة، بدأ العلماء يبذلون قصارى جهدهم لإقناع حكام الأندلس بضرورة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين لمواجهة سياسة الفونسو، التوسعية، خصوصاً بعد أن صار هذا الأخير يلوّح باحتلال الأندلس كلها، فأكدوا لهم أن الأمير المرابطي أصبح يشكل الاختيار الوحيد لانقاذ الأمة العربية الإسلامية، وأن أي فشل في البحث عن مساندته سيؤدي حتماً الى محو الوجود العربي بالأندلس(٥٦).

في هذا المنحى أورد صاحب التكملة في ترجمة أبي عبدالله محمد بن حسين بن محمد ابن عريب الأنصاري. (ت بعد عام ٥٠٨هـ) أنه «سكن سرقسطة، وتجوّل كثيراً في بلاد الأندلس والعدوة.. وكان وجيهاً عند الملوك متردداً عليهم(٥٧) وهو نص يكشف النقاب عن محاولاته الرامية الى إقناع أمراء الأندلس بالدخول تحت طاعة يوسف بن تاشفين لمواجهة الأطماع الصليبية.

وبعد دخول يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس، أصبح دور العلماء في إقناع أمراء الطوائف بالتخلي عن إمارتهم لصالح الأمير المرابطي أكثر أهمية،خاصة أن القوى الصليبية كانت لا تزال تتربص الدوائر بالمسلمين في الأندلس. لذلك بدأ العلماء يقومون بدور الوساطة بين يوسف وأمراء الطوائف. وفي هذا الصدد تخبرنا المصادر أن الأمير عبدالله حاكم غرناطة بعث العالمين ابن القليعي والقاضي ابن سهل ليبلغاه نجاحه بصفته حاكماً على هذه الإمارة(٥٨) ولما سمع أن يوسف وصل الى سبته في طريقه الى قرطبة بعث القاضي ابن سهل المذكور بمعية باديس بن واروي لاستقباله والترحيب به(٥٨) مكرر.

غير أن دور الوساطة الذي قام به العلماء لتحقيق وحدة الدولة العربية بالأندلس لم يجد الآذان الصاغية، مما جعل هؤلاء يصعدون الموقف، ويتخذون إجراءات أكثر نجاعة وحزماً، وذلك بإصدار فتاوى ليوسف بن تاشفين تسمح له بإسقاط الحكام المتخاذلين، وغزو الأندلس وتوحيدها كخطوة ضرورية وحاسمة لمجابهة التحديات النصرانية.

٤- دور العلماء في إسقاط امراء الطوائف العاجزين عن ردع الخطر الصليبي.

اتخذ هذا الدور شكلين: إما العمل في الخفاء لمساعدة يوسف بن تاشفين في الإطاحة بأمراء الطوائف، وإما إصدار

فتاوى علناً تجيز غزوهم وإسقاط حكمهم.

بخصوص الجانب الأول، تذكر إحدى الروايات أن العلامة القاضي ابن سهل بُعث رسولاً من طرف حاكم غرناطة الى يوسف بن تاشفين، فاستغل هذه الفرصة لإخبار الأمير المرابطي بانقسام جيش إمارة غرناطة، وانهيار معنوياته. وفي نفس الوقت أبلغه بترحيب سكانها به لتخليصهم من جبروت حاكمهم[٥٩]. كما أن الفقيه أبا جعفر بن القليعي عبد الى المغرب ليحرض يوسف على الإيقاع بملوك الطوائف[٦٠]. بيد أن أكثر العلماء سعياً للإطاحة بهذا الأمر كان هو الفقيه أبو بكر بن مسكن الذي يقول عنه الأمير نفسه في مذكراته أنه اتصل بيوسف بن تاشفين وأغراه بغزو إمارته[٦١].

وفي نفس السياق، لم يتوان عالم آخر هو الفقيه ابن حسان عن العمل في خفاء للإطاحة بأمير بطليوس ابن الأفطس الذي كان قد ولاه شؤون دولته[٦٢].

كما أن بعض العلماء لعبوا دوراً هاماً في إسقاط المعتمد بن عباد، فبعد تردّد يوسف بن تاشفين عن خلعه بسبب العهد الذي كان قد قطعه عليه، ألحّ عليه الفقهاء بإزاحته عن الحكم هو وغيره من ملوك الطوائف، إذ ورد على لسانهم: «فبادر بخلعهم ونحن بين يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد المسلمين الى الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالى[٦٣].

أما عن الجانب الثاني بإصدار فتاوى لتنحية أمراء الطوائف، فالفقيه العلامة أبو بكر الطرطوشي يقدم نموذجاً رائعاً لهذا الإفتاء[٦٤]. وبما أن أمر الأندلس كان قضية لا تخص عرب الأندلس فحسب بقدر ما كانت قضية تهم العرب كافة، فإن فتاوى أخرى صدرت من علماء مسلمين من المشرق كذلك وفي طليعتهم الإمام الغزالي الذي أفتى بأن إعفاء امراء الطوائف «والإبقاء عليهم لا يتوصل معه الى واجب الجهاد»[٦٥]

ونظراً لما تكتسيه الفتاوى من خطورة لكونها تعطي التبرير الشرعي لكل مبادرة سياسية، فإن إقدام العلماء على إصدار مثل هذه الفتاوى لتمرير مخططات الأمير المرابطي تعكس مدى مساهمتهم في إسقاط أمراء الطوائف ودق مسمار نعشهم وتمهيد السبيل ليوسف بن تاشفين لاجتياح الإمارات الطائفية المترهلة، وضمها نهائياً كخطوة أولى لاستئصال شأفة الخطر النصراني دون إراقة دماء كثيرة[٦٦]، كما يرجع إليهم الفضل في إضفاء الصبغة الشرعية الدينية على دخول المرابطين الأندلس وتوحيدها لمواجهة جحافل الجيوش الصليبية بعد أن برروا ذلك بتعامل أمراء الطوائف مع النصارى، وإثقال كاهل الرعية بالضرائب وتقديمها بسخاء لألفونسو[٦٧].

٥- مشاركة العلماء في الجهاد والاستشهاد لردّ الأطماع الصليبية.

فضلاً عن الأدوار السابقة الذكر آثر بعض العلماء الاستشهاد والموت في ساحة المعارك لقطع دابر القوى الصليبية. وحسبنا أن بعضهم شارك مشاركة فعلية في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)، فرزقوا الشهادة مثل الفقيه يعلى المصمودي الذي يذكر عنه ابن عبدالملك[٦٨] أنه دخل الأندلس غازياً صحبة قاضي الجماعة أبو مروان المصمودي «فأكرمهما الله بالشهادة في وقيعة الزلاقة على النصارى» ومنهم من بقي على قيد الحياة وذاق حلاوة النصر كابن القصيرة الذي تجشم عناء الصمود في الصفوف الأمامية للمعركة، ولم يصب إلاّ بجراحات خفيفة، بل انفرد بذكر روايته حول المعركة، والتي تعد من الروايات النادرة والطريفة التي وصلت الينا على لسان شاهد عيان[٦٩]. ومن العلماء الذين كانت تحدوهم الرغبة في خوض غمار هذه المعركة لولا أن الظروف لم تسعفهم، نذكر علي بن عبدالله بن حمود المكناسي[٧٠] وأحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن الحداد[٧١].

نفس الشيء يقال عن علماء أخرين ذاقوا طعم الشهادة في معركة ألبورت سنة ٥٠٨هـ مثل يحيى بن محمد الأموي[٧٢]، وأحمد بن ثابت بن عبدالله العوفي[٧٣] بينما تحتفظ المصادر بأسماء العديد من العلماء الذين استشهدوا في معركة قتندة سنة ٥١٤هـ لمنع زحف القوى الصليبية، وفي طليعتهم أبو علي بن الحسن الصدفي السرقسطي الذي كان يشار اليه بالبنان لسمو منزلته في العلم، وعلو كعبه في المسائل الدينية[٧٤]، وكذلك عبد الرحمن بن فتح اللخمي[٧٥] ومحمد بن يحيى بن

عبدالله بن زكريا)[٧٦] كما لم يتقاعس علماء آخرون عن الذب عن عروبتهم وقوميتهم حينما كانت حركة الاسترداد في أوجها إبان مرحلة ضعف المرابطين. وفي هذا الصدد يخبرنا الذهبي[٧٧] أن الفقيه العامة الرشاطي «استشهد عند دخول العدو المرية في جادى الآخرة سنة ٥٤٢هـ. كما يورد ابن الابار[٧٨] في ترجمة الفقيه جعفر بن محمد بن يوسف أنه استشهد بشنتمرية سنة ٥٤٦هـ دفاعاً عن العروبة والإسلام ضد القوى الصليبية.

وثمة سيل من أسماء العلماء الذين حملوا رسالة الجهاد لكسر شوكة القوى الصليبية والتصدي لها بجرأة وحزم. وقد اقتصرنا علي النماذج الآنفة تجنباً للإطالة. وتلك قرينة أخرى على الدور الطلائعي الذي اضطلعوا به للدفاع عن الأمة العربية.

خلاصة القول أن العلماء الأندلسيين لعبوا خلال القرن الخامس الهجري دوراً ريادياً في التصدي للأطماع الصليبية التي حاقت بالأمة العربية في جناحها الغربي. وقد أسفر هذا الدور عن قطع دابر القوى الصليبية ورفع التحدي عن المنطقة بمساعدة المرابطين. كما أسهم في توحيد الأمة العربية الإسلامية، ورفع معنوياتها بعد معركة الزلاقة التي كانت تمهيداً للمعارك المظفرة التي خاضتها أمتنا ببسالة وعلى الخصوص معركة حطين الخالدة.

الهوامش

١- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار عبادي. طبعة مدريد ١٩٧٨ ص٧٨.

٢- عن أمراء الطوائف والأسرات التي حكمت مختلف المدن الاندلسية، انظر: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥١ ج١ ص٨٦ وما بعدها.

٣- القصد والأم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم. طبعة القاهرة ١٣٥٠هـ ص٣٥.

٤- كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال، طبعة القاهرة ١٩٥٥هـ ص١٨.

٥- المراكشي: المعجب. طبعة البيضاء ١٩٧٨ تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي. (الطبعة ٨) ص١٠٥ وقد أورد شعر أبي الحسن بن رشيق مستهزئاً بهذه الألقاب الخلافية:

مما يزهدني في ارض اندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملة في غير موضعها ... كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

٦- بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، طبعة تطوان ١٩٨٧، ص٨٨، ١٠٣، ١٠٤.

٧- عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. طبعة القاهرة ١٩٦٩، ص٤١٨.

٨- ابن الكردبوس: م. س. ص٧٧. وانظر في نفس المعنى: القلقشندي: صبح الأعشى. القاهرة (د.ت) ج٥ ص٢٤٨-٢٤٩.

٩- ابن الخطيب: أعمال الاعلام - القسم الخاص بالأندلس - تحقيق بروفنسال. طبعة بيروت ١٩٥٦. وللمزيد من التفاصيل حول صراعات أمراء الطوائف انظر: عنان: م.س. ص٣٥ وما بعدها.

١٠- تاريخ الأندلس ص٨٢.

11- Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu'a' la conguéte de l'Andolousie Par les Almoravides. Leyde 1932. T3 P.118.

12- Fossier: Enfance d'Europe: Aspects économiques et Lociaut, Paris 1982, P254.

١٣- ابن بلكين: أ.س. ص٧٦.

١٤- ابن خلدون: كتاب العبر - تحقيق خليل شحادة طبعة. بيروت ١٩٨١، ج٦، ص٢٤٨.

١٥- القلقشندي: م.س. ج٥ ص٢٤٩ - ابن الكردبوس: م.س. ص٧٧.

16- Fossier: Op. Cit. P. 127.

١٧- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس، طبعة. ليبيا - تونس ١٩٨١ ق٢ م١ ص٢٥٤.

18- Fossier: Op. Cit. P. 254.

١٩- ابن الخطيب: م.س. ص٢٤٤.

٢٠- ابن الكردبوس: م.س. ص٧٨ - ابن بسام: م.س. ق١ أ ٢. ص٧٦٦.

٢١- ابن بلكين: م.س. ص٧٣.

٢٢- ابن بسام: م.س ق ٤ م١ ص١٦٣.

23- CALMETTE: Histoired d'Espagne. Paris 1947. P.80.

24- Dozy: Op. Cit. P 121.

٢٥- ابن أبي زرع: روض القرطاس. الرباط ٩٧٣ ٠.ص١٤٣.

٢٦- ابن الكردبوس: م. س. ص٧٧.

٢٧- عبّر الأمير عبدالله بن بلكين عن ذلك في مذكراته بقوله: «فنحن لم يُعِنْ بعضنا بعضاً على الرومي، انظر: التبيان ص١٦٦.

٢٨- انظر: نص الرسالة عند الحلبي: كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل: تحقيق أكرم عثمان. طبعة بغداد، ١٩٨٠، ص٧٦.

٢٩- جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية. الترجمة العربية. طبعة ليبيا - تونس ١٩ ج، ص٨٨٨.

٣٠- أشباخ: تاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين. الترجمة العربية. طبعة تونس - ليبيا ١٩٧٨. ص١٢٤.

٣١- سعدون نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين. طبعة بيروت ١٩٨٥ ص١٠٣.

32- Descola: Histoire de l'Espagne chrchénne. P.107.

٣٣- أشباخ: م.س. ص٢٤٩.

٣٤- أعمال الأعلام - القسم الأندلسي ص٢٤٤.

٣٥- مؤلف مجهول: الحلل الموشية: ص٣٨.

٣٦- عبد الرضا الراشد: علاقات دول الطوائف في الأندلس بالمرابطين (بحث مرقون) ص٧٧.

٣٧- الذخيرة، ق٣م ١ص٩٥.

٣٨- نفسه ص٩٩. وينقل هذه الرواية: «حدثني من سمعة يقول وقد قوي طمعه ولجَّ به جشعه: على رذريق فتحت هذه الجزيرة ورذريق يستنقذها».

٣٩- السامرائي: الدعوة لتوحيد الأندلس في أيام الطوائف مجلة زانكو السليمانية. نيسان ١٩٧٧ ص٨٢-٨٣.

٤٠- الحلة اليسراء. تحقيق حسين مؤنس. طبعة القاهرة ١٩٦٣. ج٢ ص٩٨.

٤١- انظر: النباهي: قضاة الأندلس (المرتبة العليا). طبعة بيروت ١٩٨٠. ص٩٥. ابن الشباط: تاريخ الأندلس (المنشور تاريخ ابن الكردبوس ص٤٦ - ابن بشكوال: العلة ق١ ص٢٠٠ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٤٠٨.

٤٢- نفع الطيب ج٢ ص٧٧.

٤٣- بن عبود: م.س. ص١٧٥.

٤٤- عياض: ترتيب المدارك ج٣ ص٨٢٥.

٤٥- انظر نص الرسالة في الذخيرة ق٢ ج١ ص٨٤-٨٩.

٤٦- نفسه ص٨٣.

٤٧- بن عبود: م.س. ص١٧٩.

٤٨- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين. طبعة بيروت ١٩٦٢. ص١٧٧.

٤٩- ابن بسام: م.س. نقلاً عن السامرائي: م.س. ص٨٧.

٥٠- احسان عباس: م.س. ص١٨١.

٥١- ابن حزم: رسالة التلخيص. نشرت مع رسائل أخرى ضمن كتاب الرد على ابن النغريلة اليهودي. تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت (د.ت) ص١٧٣.

٥٢- جمهرة أنساب العرب. طبعة القاهرة (د.ت) تحقيق عبد السلام عمر هارون ص١٠٢.

٥٣- ابن حزم: رسالة التلخيص ص١٧٥ وفيها يقول: «وبرهان ذلك أنني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهماً حلالاً ولا ديناراً طيباً».

٥٤- نشر هذا الكتاب تحت عنوان «الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى، انظر هامش (٥١).

٥٥- بن عبود: م.س. ص١٨٦.

٥٦- نفسه ص ١٨٨.

٥٧- ابن الانبار: التكملة ج١ ص٤١١.

٥٨- ابن بلكين: م.س. ص١١٦.

(٥٨ مكرر) نفسه ص ١٤٦.

٥٩- نفسه ص١٤٦.

٦٠- إبراهيم خليل السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الاسلامية. طبعة بغداد ١٩٨٥. ص١٥٧.

٦١- نفسه ص١٢٨.

٦٢- نفسه ص ١٧٢ - ١٧٣.

٦٣- ابن الكردبوس: م.س.ص١٠٧.

٦٤- ابن خلدون: م.س. ج٦ ص ٢٤٩.

٦٥- ابن بلكين: م.س. ص١٦٣ - ابن الخطيب: م.س. ص٢٥٠ - ابن خلدون: م.س.ص ٢٤٩ . ويوجد نص الفتوى التي أفتى بها

الغزالي في رسائل أبي بكر بن العربي التي نشرها دنيدش عبد اللطيف عصمت في: دراستها «دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا» . طبعة بيروت ١٩٨٨. ص٢٠٠ وما بعدها.

٦٦- بن عبود: م.س. ص ١٩٨.

٦٧- ابن بلقين: م. س. ص: ٧٣، ٧٥، ٧٦.

٦٨- الذيل والتكملة. تحقيق محمد بن شريفة. طبعة بيروت ١٩٢٤. ٨ق٢. ص ٤٢٥.

٦٩- انظرها عند: ابن بسام: م. س ق٢ أ١ ص ٢٤١-٢٤٤.

٧٠- ابن القاضي: جذوة الاقتباس. طبعة الرباط ١٩٧٣. ق٢ ص٤٦٧ وانظر كذلك: ابن الزبير: صلة الصلة. قسم الغرباء ص٥٥٤.

٧١- ابن عبد الملك: م.س سنة ٨ ق ٢ ص٤٥٢.

٧٢- ابن الانبار: المعجم في أصحاب أبي علي الصفدي. نشره فرانسيسكو گوديرا وزايدين. طبعة مدريد ١٩٨٥. ص٣٠٩.

٧٣- ابن الأنبار: التكملة ج١ ص٢٩.

٧٤- ابن عطية: فهرست ابن عطية. تحقيق محمد ألو الأجفان ومحمد الزاهي. بيروت ١٩٨١. ص٧٥ - ابن بشكوال. م.س.ج١ ص١٤٤. الضبي: بغية الملتمس ص ٢٥٤ - ابن الأبار: م.س.ج١ ص٣١ - ابن عجيبة: أزهار البستان (مخطوط) ورقة ٣٠.

٧٥- الضبي: م.س. ص٣٥٧ - ٣٥٨.

٧٦- ابن بشكوال: م.س.ج٢ ص٥٤٢.

٧٧- تذكرة الحفاظ ج٤.

٧٨- التكملة ج١ ص٢٤٢.

المصادر والدراسات المستعملة في البحث

أولا المصادر:

١- ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (بلنسية ٥٩٥ - تونس ٦٥٨هـ): التكملة لكتاب الصلة ج١. نشره «الفريد بل» وابن أبي شنب. طبعة الجزائر ١٩١١.

٢- كتاب الحلة اليسراء. ج٢ طبعة القاهرة ١٩٦٣ (ط١) تحقيق حسين مؤنس.

٣- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي نشره فرانسيسكو كوديرا وزايدين طبعة مدريد ١٨٨٥.

٤- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبدالله (توفي حوالي سنة ٧٤١هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس. طبعة الرباط ١٩٧٣، دار المنصور للطباعة.

٥- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني (ت٥٤٢هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق٢ م١ - ق٣ م١، ق٤م١. تحقيق إحسان عباس. طبعة ليبيا - تونس ١٩٨١.

٦- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (٤٩٤هـ-٥٧٨هـ): كتابه الصلة. القسم الأول نشره وصححه السيد عزت العطار الحسيني. طبعة بغداد- القاهرة ١٩٥٥.

٧- ابن بلكين، الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (ولد سنة ٤٤٧ وعاصر المرابطين). كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال. طبعة القاهرة ١٩٥٥ - دار المعارف.

٨- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (قرطبة ٣٨٤هـ- ٤٥٦هـ). جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام محمد هارون. طبعة القاهرة (ط٤) (د.ت) دار المعارف.

٩- الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى. تحقيق إحسان عباس. طبعة ١٩٦٠.

١٠- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (لوشة ٧١٣- فاس ٧٧٦هـ): أعمال الإمام - القسم الأندلسي - تحقيق بروفنسال. طبعة بيروت ١٩٣٦ (ط٢) دار المكشوف.

١١- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (تونس ٧٣٢هـ - القاهرة ٨٠٨هـ). تاريخ ابن خلدون. تحقيق خليل شحادة ج٦. طبعة بيروت ١٩٨١دار الفكر.

١٢- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٧٠٨ - ٧٨١هـ). وفيات الأعيان. ج٢ تحقيق إحسان عباس. طبعة بيروت (د.ت) دار صادر.

١٣- ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم بن الثقفي الجياني (توفي بغرناطة سنة ٧٠٨هـ). كتاب صلة الصلة (قطعة من المجلد الثاني) نشرها بروفنسال طبعة الرباط ١٩٣٨ - المطبعة الاقتصادية.

١٤- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف النمري القرطبي (ت سنة ٤٦٣هـ): القصد والأمم في التعريف بأنساب العرب والعجم. نشره حسام الدين القدسي. طبعة القاهرة ١٣٥٠هـ.

١٥- ابن عبد الملك، أبو عبدالله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي (ت عام ٧٠٣هـ):

الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة. السفر ١ ق٢ تحقيق

محمد بن شريفة. طبعة بيروت (د.ت) وكذلك السفر ٨ ق٢ لنفس المحقق. طبعة الرباط ١٩٨٤.

١٦- ابن عجيبة، أحمد بن محمد المهدي الأنجري التطواني (ت عام ١٢٢٤هـ): أزهار البستان في طبقات الأعيان. مخطوط الخزانة الحسنية رقم ٤١٧.

١٧- ابن عطية، ابو محمد عبد الحق المحاربي الأندلسي (٤٨١-٥٤١هـ): فهرست ابن عطية: تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي. طبعة بيروت ١٩٨٠ (ط١) دار الغرب الاسلامي.

١٨- ابن القاضي، أحمد بن محمد ندأبي العافية المكناسي (٩٦٠-١٠٢٥هـ). جذوة الاقتباس. ق٢. طبعة الرباط ١٩٧٣. دار المنصور للطباعة.

١٩- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري (ت عام ٥٧٣هـ): تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط أحمد مختار العبادي. طبعة مدريد ١٩٧١.

٢٠- الحلبي، شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد (ت عام ٧٢٥هـ): كتاب التوسل الى صناعة الترسل تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف. طبعة بغداد ١٩٨٠. دار الحرية للطباعة.

٢١- الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني (دمشق ٦٧٣-٧٤٨هـ). تذكرة الحفاظ. ج٤. طبعة حيدر آباد والدكن ١٣٣٤هـ (ط٢).

٢٢- الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره (ت ٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس تحقيق كوديرا، طبعة مدريد، ١٨٨٤، نسخة أخرى من طبعة القاهرة ١٩٦٧.

٢٣- عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت سنة ٥٤٤هـ): ترتيب المدارك وتقريب الممالك. تحقيق أحمد بكير محمود. طبعة بيروت ١٩٦٥، ج٤.

٢٤- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت سنة ٨٢١هـ): صبح الأعشى. الجزء ٥. طبعة القاهرة (د.ت).

٢٥- المراكشي، عبد الواحد (ت سنة ٥٨١هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي. طبعة البيضاء ١٩٧٨ (ط١).

٢٦- مؤلف مجهول (عاش في القرن ٨هـ): كتاب الحلل الموشية: تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة طبعة البيضاء، ١٩٧٩ - دار الرشاد الحديثة.

ثانياً: الدراسات الحديثة

٢٧- إبراهيم خليل السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية طبعة بغداد ١٩٨٥ - دار الحرية للطباعة.

٢٨- الدعوة الى توحيد الأندلس في أيام الطوائف. مجلة زانكو السليمانية نيسان ١٩٧٧، ص ص ٧٩-٩٧.

٢٩- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين. طبعة بيروت ١٩٦٢ (ط١).

٣٠- زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الأسلامي ج١. الترجمة العربية - القاهرة ١٩٥١.

٣١- سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين. طبعة بيروت ١٩٨٥.

٣٢- شارل أندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية. ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة. طبعة تونس - ليبيا ١٩٧٨.

٣٣- محمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري. طبعة تطوان ١٩٨٧. مطبعة النور.

٣٤- محمد عبد الله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. طبعة القاهرة ١٩٦٩ (ط٢)

٣٥- يوسف اشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة عبد الله عنان طبعة القاهرة ١٩٥٨ (ط٢).

٣٦- عبد الجليل الرضا الراشد: علاقات دول الطوائف في الأندلس بالمرابطين (بحث أطروحة مرقون).

ثالثاً: الدراسات الافرنجية.

37- CALMETTE (Joseph): Histoire d'Espagne. Ed. Paris 1947.

38- Descola (Jean): Histoire de L'Espagne Chretienne. ed. Robert Leffont.

39- Dozy (Erneiht): Histoire de Musulmans d'Espagne Jusqu'a' la conquéte de L'Andalousie Par les Almoravides. T3. Lyde 1932.

40- Fossier (Robert): Enfance de L'Europe: Aspects économiques et Lociaux. T.1: L'homme et ton éspace. Ed. Paris 1982. P.U.F.

بحوث التاريخ العربي الإسلامي

كتابة تاريخ عام للعرب
أهميتها وبعض مشاكلها

أ.د . صالح أحمد العلي
المجمع العلمي العراقي

تحديد التاريخ:-

نقصد في حديثنا هنا بالتاريخ دراسة نشاط الإنسان الذي يعيش في المجتمع وتطور هذا النشاط في الماضي. فاساسه الانسان في المجتمع، ولا يدخل فيه احواله الطبيعية المتصلة بذاته مما لا علاقة له بالمجتمع، كما أنه لا يدخل فيه ماضي كثير من جوانب الكون كالأرض، والفيزياء والكيمياء، إلاّ بقدر ما لها علاقة بالإنسان في المجتمع، وبصرف النظر عن مستوى ذلك المجتمع من الازدهار والنمو والضمور والركود.

والتاريخ الذي نبحثه هو ما نعتقد بصحته من المعلومات التي ذكرتها المصادر عن الحوادث فمعلوماتنا عنه غير مباشرة، وإنما عن طريق المصادر التي قد تكون غير دقيقة أو غير شاملة، تتطلب نقد المصادر لمعرفة ما يراه الصحيح منها، ومحاولة معرفة ترابطها وتقدير سليم لأهميتها وآثارها على مجرى الحوادث في زمنها وفي الأزمنة التالية فهو عملية عقلية يسهم فيها الباحث بقسط اساس واسع لتقديم الصورة التي يراها عنه الماضي.

العرب ولغتهم:-

أما العرب فلهم قدم في التاريخ وامتداد في الرقعة ورد ذكرهم بالنص في عدد من النقوش البابلية والآشورية التي اطلقت اسمهم على أهل الجزيرة الساكنين في اطراف دولهم. ولا بد أن توفر المعلومات الإضافية سيكشف أن وجودهم أقدم وامتدادهم أوسع مما أشارت اليه المصادر.

ان ابرز ما تميز به العرب واجتمعوا فيه هو لغتهم التي أشاد القرآن بنزوله فيها ﴿**قرآناً عربياً**﴾ (يوسف، ١٢، طه ١١٢، فصلت ٣، الشوري ٧، الزخرف ٣). ﴿**غير ذي عوج**﴾ الزمر ٢٢٨ ﴿**بلسان عربي مبين**﴾ (الشعراء ٣٩٥، النحل ١٠٢)، وانظر (الأحقاف ١٢)، وهي لسان قوم الرسول (ص) ﴿**وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم**﴾ (ابراهيم ٤) وهي تخص عشيرة معينة، ولكنها تقابل العجمة ﴿**لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾ (النحل ١٠٣).

واللغة العربية السليمة المبينة التي نزل فيها القرآن الكريم فيها خصائص من المفردات وتركيب الصرف والنحو كانت سائدة في أرجاء جزيرة العرب، ولم تحجب سيادتها وجود لهجات محلية قد تخالفها في معاني بعض المفردات والصرف والنحو، ولكن هذه الخلافات فرعية وقليلة نسبياً وضيقة الانتشار، فهي لا تحجب وحدة العرب في لغتهم.

شبه جزيرة العرب مهد العرب:-

ان الاحوال الجزيرة الجغرافية والمعلومات القليلة المتوفرة عن تاريخها تظهر أنها لم تكن منطقة جذب ولم تخضع لحكم دولة أجنبية هيمنت فيها وفرضت عليها نظماً وانماطاً حضارية خارجية. كما أن عدد الأغراب الذين استوطنوا فيها قليلون واقتصر استقرارهم بالدرجة الأولى على بعض المراكز في اطرافها الساحلية وكانوا أقل من أن يؤثروا في أهلها من سمات عامة تتجلى لا في لغتهم فحسب. وأنه أيضاً في نظمهم السياسية والاجتماعية والدينية، علماً بأن كل هذه تعرضت لتطورات داخلية محدود يصعب توضيح معالمها الكامله بسبب قلة المصادر.

تغطي هضبة جزيرة العرب صحارى شاسعة بعضها خال من السكان وبعضها تقوم فيه ديار قبائل بدويه قد تنتقل موسمياً ضمن ديارها، غير أن فيها مناطق تتوفر فيها المياه وتنمو الزراعة والصناعة والحياة الاقتصادية وتتطور الحياة الحضرية وأنظمة الحياة الاجتماعية والسياسية والفكر. واجلى الأمثلة في ذلك اليمن التي تؤيد المكتشفات المتفرقة من آثارها مدى تطورها. وكذلك اليمامه ومكه والمدن والمناطق الساحلية في شرقي الجزيرة التي تظهر المكتشفات الأثرية القليلة فيها، وأشارات الجغرافيين الاغريق والرومان والمعلومات التي وردت في الكتب العربية عنها على تطور حضري واجتماعي، نمو في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ان هذه الأقاليم المتطورة تقع في صميم شبه جزيرة العرب. ولم تكن لها علاقات

واسعة مؤثرة بالحضارات الخارجية، ولذلك فإن تطور الحضارة فيها لم يقض أويضعف اسمها العربية. ولذلك فلا مناقشة في اعتبارها عربيه، وتشملها دراسة تاريخ العرب العام.

أقاليم اطراف الجزيرة: هل تدخل في كتابة التاريخ:-

أما الأقاليم الواقعه في الأطراف الشمالية والشرقية من شبه جزيرة العرب، وهي التي يطلق عليها البعض بلاد الهلال الخصيب، بما في ذلك العراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام. وكذلك أهل شمالي أفريقيا وشرقيها فإن لها صلات قوية بسكان شبه جزيرة العرب، إذ لا يفصلهما حاجز جغراقي معرقل، وأوجه الشبه بينهما واسع يتجلى في تشابه لغاتهم في مفرداتها وقواعد تركيبها وآلهتها المعبودة ونظم حياتهم الاجتماعي وما يتصل بذلك من أفكار سياسية غير أن معلوماتنا الواسعة نسبياً عنها تظهر لها تاريخاً واضح المعالم في تطوراته الحضارية والسياسية وتفاعل واسع مع حضارات الشعوب الخارجة عنها. وهذا المبرر الذي حمل عدداً من كتاب التاريخ على أفراد تاريخهم عن تاريخ العرب. وبذلك أثاروا مشكلة جديرة بالبحث هي بداية تاريخ العرب، وهل تكون من بداية تاريخ هذه الأقاليم التي في الأطراف أم أنه يبدأ مقتصراً على تاريخ أهل الجزيرة وحدهم.

المعيار: اللغة أم الدم:-

ومشكلة كتابة تاريخ عام للعرب يواجهها تحديد امتداده، فقد ذكرنا أن القرآن الكريم جعل (اللسان الى اللغة المعيار الأساسي لتميز العرب والسمة البارزة لهم).

وهذا المعيار يقترن بالدم في عهوده الأولى قبل الاسلام وبعيده، لان شبه جزيرة العرب لم تكن منطقة جذب، واحتفظ أهلها بكيانهم الحنفي الى حد كبير فكان المتكلمون العربية محتفظين بنقاوة دمهم الى حد كبير فكان واحتفظوا بهذه السمة واعتزوا بالدم في العهود الاسلامية الأولى، غير أن تلاحم العروبة والاسلام وتطورات الحياة اثارت قضية جديرة بالدراسة والحسم، وهي أن العرب المعتزين بلغتهم وانتمائهم العرقي امتدوا بعد الإسلام الى مناطق واسعة من اواسط آسيا شرقاً الى البيريس غرباً وخف حتى كان يختفي تمسكهم بالدم والعرق، وأصبح أكثرهم يعتز بانتمائه الجغرافي الى المدينة أو الاقليم، وإلى ارتباطه الاجتماعي من أهل العلية أو الحرفة أو المذهب..واحتفظت العربية بمكانتها الراسخة في فرائض الدين والانتاج الفكري، وعن طريق القرآن والاسلام تشبعوا بالمعلومات والأفكار التي تميز بها العرب الأولون، ومجدوا رجالات العرب وانجازاتهم التي حققوها عن طريق خدمتهم بدولة الاسلام وفكره فهل يقتصر بحث التاريخ العام على تتبع من له لغة ودم عربيان ينعكسان في المجتمعات التي تكون العربية فيها لغة الأم، دم يمتد الى المجتمعات التي جعلت العربية لغة الفكر، ومجدت عن طريقها شعورياً أو لا شعورياً العرب لقد كانت هذه القضية مصدر ارباك في الأزمنة الحديثة خاصة حين علا صوت الغلاة من القومية عند العرب، واخطر منه عند غير العرب حين أرادوا سحب ارائهم الى التاريخ ليقلصوا دور العرب وديمومة مكانتهم المتميزة.

حياة أهل الجزيرة قبل الاسلام والتفكك السياسي:

ان المعلومات التي وصلتنا عن أحوال شبه جزيرة العرب وتطورها في الماضي السحيق نزرة قليلة ومرجع هذه القلة قد يرجع الى أنها معدومة في الأصل، أو الى قلة البحوث والجهود في كشف الآثار التي اقتصرت حتى اليوم على مناطق محدودة منها في اليمن والبحرين وبعض المناطق الساحلية في بلاد الإمارات العربية المتحدة، غير أن الإشارات القليلة في المصادر الأجنبية والمعلومات التي أوردها المؤلفون العرب المسلمون تشير أنه طوال تاريخها لم تظهر فيها دولة بسطت سلطانها على كل أرجائها ووحدتها سياسياً، وإنما كانت مفككة تظهر فيها دويلات مدن أو عشائر قد يتعاظم سلطان بعض رؤسائها فيخضعوا من حولهم ويبسطوا عليهم سلطاناً يختلف نفوذه وسعة امتداده، ولكنه مؤقت سرعان ما ينهار بعد وفاة الرئيس أو من يرثه من أولاده واحفاده، لتعود كل مجموعة أو عشيرة متمتعة باستقلالها في ديارها التي تقيم فيها وترعى ماشيتها. ومثل هذه الأحوال تخلق حالة حرب دائمة وتعرض الأمن للخطر، إلاّ أن «الحروب» وأيام العرب والمعارك كانت محدودة وقليلة، وكان بجانبها ادراك العرب أهمية السلم وعملهم على اشاعته بضبط النفس والمحالفات واستخدام الدين لتعزيزه بالأشهر الحرم وتثبيت تقاليده.

وكانت للعرب قبل الإسلام روابط عامة تجمعهم. وأبرزها اللغة

الواحدة بمفرداتها وقواعد تركيبها في النحو والصرف وما تنقله من أمثال وحكم ومأثورات وشعر. يضاف الى ذلك أنه ساد بينهم عدد من الأفكار الدينية المتشابهة من آلهة وبيوت مقدسة وشعائر وطقوس «وكلها تكون بذرة وحدة تميزهم عن غيرهم وكوسم بالعربية، ولكنها لم تكن واحدة عامة، ولا كانت عميقة واسعة الأثر، فظلت تقاليد العشائر ملوعة، والمنافسات بينها مستعرة، وحياتها مهددة، وكان كيانهم الاجتماعي قائم على أساس «القوم» الذي قد تكون حدوده الواضحة في الجماعة التي يرتبط أفرادها بروابط مشتركة ماسكه تؤمن لهم الحياة مجتمعين، ويكون عددهم تبعاً لامكانات تأمين الحياة والقدرة على الدفاع وصد الاخطار المهددة وهي أكثر انطباقاً على المستقرين في المستوطنات من قرى ومدن كثيراً ما يتكون لكل منها من عدة مجموعات صغرى «اسر وعشائر وقبائل» وابرز ما يربط كل مجموعة هو السكن المشتركة وما يتصل بها من روابط اجتماعية وترابط سياسي.

ان انحصار العرب في جزيرتهم والضآلة النسبية لدورهم في خارجها. وتفككهم، ومشاحناتهم جعل دورهم العالمي ضئيلاً وهامشياً، وبرر ما وسمه به المؤلفون العرب من أنهم «جاهليون» بمعنى مفككين سياسياً وعقائدياً رغم ما لهم من تقدم في اللغة والشعر وتقدير الكلم الطيب والأخلاق الانسانية الفاضلة، واسهام أهل بعض مناطقهم في انماء الحياة الحضرية ومؤسساتها.

الاسلام وأهميته في تاريخ العرب:-

كان مجيء الاسلام حدثا فاصلاً في تاريخ العرب والبلاد الأخرى فقد احدث في العرب تبديلات اساسية شاملة فقد ثبت فيهم عناصر الوحدة في عقائدهم وأفكارهم الدينية ومثلهم الاخلاقية والسلوكية ووحدهم في ظل دولة واحدة تؤمن بعالمية رسالتها، واعدهم لترك عزلتهم التي قوقعتهم في جزيرتهم وأخرجتهم الى ميدان العالمية الرحب ونشطت فيهم الدوافع القوية للعمل الفردي والعام. وكان كل ذلك أساس وحدة حضارية بمختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والفكرية وكانت مثله عامة للجميع باختلاف مشاربهم ومستوياتهم، وبذلك رسم مجتمعنا لكافة أفراده مجال العمل المادي والفكري ضمن نطاق انساني وعالمي.

تلاحم العروبة والاسلام:-

كانت الدعوة الاسلامية منذ بدايتها دينية في الأساس تدعو الى أفكار وعقائد دينية محدودة المعالم قائمة على الوحدانية وما يتصل بها من صفات الخالق وأعماله، وهي عالمية عامة للجميع، ولكنها وثيقة الصلة بالبشر لأن العقائد مرتبطة بالإنسان، ومن هنا أكد الاسلام منذ البداية على أهمية الفرد من الانسان واعتبره اللبنة الاساسية في الكيان الجديدة وتثبيته ومن هنا أكد الاسلام على الانسان الفرد ودوره ومسؤولية في التوجه العقائدي والروحية، وطالبة بأن يسلك وفق قواعد اختطها ورأى فيها صلاحه، فهو المسؤول عن أعماله **﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿ومن يعلم مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** ويوم القيامة يحاسب الانسان على أعماله في الدنيا، وبذلك اقرا الأساس الاستمرارية التاريخية لحياة البشر التي لا تقتصر على هذه الدنيا وإنما تمتد الى الحياة الآخرة.

أثر أحوال العرب في تنظيم الدولة:-

ارتبط الاسلام منذ بدايته ارتباطاً وثيقاً متلاحماً مع العرب، فاللغة التي نزل فيها القرآن الكريم هي العربية **﴿بلسان عربي مبين﴾ ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾**.

والدعوة الاسلامية كانت في أولها في مكة، وهي أهله عرب يكاد يكون خالياً من الأعاجم والصحابة الأولون السابقون في الاسلام كلهم تقريباً من العرب ولما هاجر الى المدينة أمن بدعوته العرب من أهلها، وكانت مكة مركز لتجارة نشطة، والمدينة مركز نشطت فيه الزراعة إلاّ أن كلاً منها كان شأن المدن الآخرى في شبه جزيرة العرب، فنظم على أسس قبلية.

وقد راعى الرسول (ص) هذه الأوضاع المتغلغة) في صميم تنظيم الأفراد والمجتمعات ولم يدع الى اجتثاثها وإنما عمل على تنسيقها مع متطلبات نشر الاسلام وتنظيم المجتمع وترسخ الدولة وتجلى ذلك في تنظيمه مجتمع المدينة حيث جعل كل عشيرة وحدة على ربعتهم يتعاملون فيما بينهم ويفكون عانيهم بالمعروف وازداد أثر التنظيم القبلي في الدولة الاسلامية بعد توسعها في الحجاز والجزيرة العربية حيث أبقى التجمعات القبلية بتنظيمها

ورؤسائها فكان الجيش الذي حشده الرسول (ص) لفتح مكة متظماً على الأسس القبلية، وأبقى من اسلم من رؤسائهم القدماء في مراكزهم، ويروى أنه قال خياركم في الجاهلية خياركم من الاسلام، ويروي البخاري انبياء ٨، ١٤، ١٩، مناقب ٢٥، تفسير سورة ١٢، مسلم، الفضائل ١٦٨.

امتداد الاسلام ودولته في شبه جزيرة العرب:-

بعد فتح مكة امتداد الاسلام وتوسعت دولته فشملت شبه جزيرة العرب، ولما ولي أبو بكر الخلافة قضى على حركات الردة والانشقاق، وبذلك تم ضم كل الجزيرة الى الاسلام وتوحد العرب في ظل دولة تبسط سيادتها وسيطرتها عليهم، ولم يتوان الخليفة أبوبكر ومن تلاه من الخلفاء من جمعهم في جيوش تقدمت لتوسيع الدولة التي للاسلام وكلمة الله فيها هي العليا، وبذلك أصبح الاسلام يعبر عن وحدة العرب لأول مرة ويبرز تاريخهم المتميز ودورهم الواسع في تاريخ الانسانية.

قامت الدولة الجديدة باسم الاسلام، وتمت الفتوح لاعلاء كلمة ومثله وافكاره ونظمه ودعوته عالمية منفتحة للناس كافة بصرف النظر عن أصولهم ومكاناتهم ومعتنقون ومتساوون في الحقوق والواجبات وعليهم أخذ نفس النظرات والأفكار وأداء نفس الواجبات وإداء نفس الفرائض، وهو يتعامل بالدرجة الأولى مع الإنسان ويبيح بقاء الأديان الأخرى ما عدا الوثنية إلاّ أنه كان في المراحل قائماً على العرب ومبادؤه متلاحماً معهم.

مكانة العرب في الدولة:-

وللعرب مكانة متميزة في الدولة الجديدة، ففيهم بدا الاسلام وتوضحت معالمه، وبلغتهم نزل القرآن، ومنهم كان المؤمنون الأولون به، وبرجالهم قامت الدولة وتثبتت وتوسعت وامتدت وصينت حدودها.

واستقر الأمن والسلام في ارجائها ومن العرب كان الخلفاء وكبار القادة ورجال الإدارة في المراكز الرئيسة، ومنهم كان أكثر المستشارين، والموجهين ممن لهم الدور الأكبر في صياغة السياسة العامة وتوجيهها وتنفيذها.

أخذت الدولة بنظر الاعتبار عمق جذور التنظيم القبلي في العرب، فنظمت الامصار، وهي المراكز التي شيدتها في العراق (الكوفة والبصرة) وفي مصر (الفسطاط) وفي بعض المناطق الأخرى الموصل والجزيرة لإقامة المقاتلة العرب وإدارة الأقاليم.

لو اسس قبيلة فكانت لكل منهم خطة تقيم فيها افرادها من العشيرة وعليهم عريف يشرف على شؤونهم الإدارية وتنظيم الجيش ونشر السلم وترتيب ديوان العطاء وتدعم هذا التنظيم كافة المراكز الأخرى التي كانت تقيم فيها المقاتلة العرب.

ذكرنا ابرز ما يميز العرب هو لغتهم التي أصبحت بمجيء الاسلام لغة القرآن والفرائض الاسلامية ولغة الخلفاء والمهيمنين على الإدارة وكذلك لغة المقاتلة وغيرهم من العرب في الأمصار، وقد امتد استعمالها بعد استقرار الدولة الى غير العرب وخاصة المقيمين منهم في الأمصار (الموالي).

والعاملون في الإدارة (الكتاب) وكذلك التجار ورجال الأعمال وخاصة في الأمصار وبذلك لم تعد حكراً للعرب، وظهر من الأعاجم من يتقنها ويدرسها ويؤلف فيها، ونقلت اليها كتب كثيرة، فأصبحت لغة الفكر في كافة المراكز المزدهرة دون أن تقتصر على الأمصار الأولى. ورافق هذا التطور تناقض تمسك العرب بأصولهم القبلية فأصبح الناس يعنون بذكر ارتباطاتهم في مواضع سكناهم من المدن ومحالها أو حرفهم، وقد حدث هذا التطور بالتدريج وأصبح عاماً في كافة المراكز الحضرية وانحسرت النسبة الى العشائر في مناطق محدودة من الصحراء وقليل من سكان المدن. وعزز هذا التطور مكانة العروبة والإسلام ولم تفلح الأفكار الشعوبية المتحدية لمكانتهما من أن تجلب اليها اعداداً كبيرة ويكون لها أثر عميق في صرف التيار العام المتمسك باللغة العربية والإسلام.

الخلافة رمز الوحدة:-

وكانت الخلافة الواحدة التي يظل سلطانها الدولة من أبرز مظاهر الوحدة وتثبيتها وإشاعة الاستقرار فيها والخليفة هو صاحب السلطة العليا، لا يمار في مكانته ويكاد المفكرون العرب ممن يبحثون النظم السياسية يجمعون على ضرورة وجود خليفة واحد في الدولة وأن الثورات السياسية المتعددة التي لها من العربية أسماء كانت تقتصر دعواتها على شخص الخليفة القائم وليس على منصبه الذي اكتسب على مر الأيام سمة شبه قدسيه يسرت لكثير

من الخلفاء الضعفاء البقاء في مناصبهم رغم أخطاء كثير منهم كانت عاملاً في ضعف الاسناد الشعبي للثائر وفشل حركاتهم.

الاهتمام بتناقل الأخبار قديم وواسع عند العرب:-

تظهر الاخبار والمكتشفات الاثرية القليلة التي وصلتنا أن العرب القدماء كانوا يعنون بتناقل اخبارهم ومآثرهم، وأن كثيراً من ملوك الدويلات التي ظهرت فيهم كانوا يدونون أعمالهم ومآثرهم ليعرفها الناس وينفذ ما فيها من أوامر، وقد سجل شعراؤهم أخبار كثير من الحوادث كما تناقل الرواة أقوال حكمائهم في كثير من صفاتهم، ولعل أبرز مظاهر لادراكهم الفكرة التاريخية وتتابعها الزمني هو عنايتهم بالأنساب التي لا تقتصر على ذكر الرجال وعلاقاتهم النسبية، وإنما تمتد الى ذكر بعض الأحداث التي اسهمت فيها العشائر ورجالها. والطبيعي أن معلوماتها متفرقة مقطعة، تنقل شفاها فتتعرض تفاصيلها لتحويرات تباعدها عن الدقة وإن كانت صحيحة في الأساس.

ولما جاء الاسلام أبقى الاهتمام بالتاريخ وأنماه، فقص القرآن عدد من الأمم والأنبياء وأشار الى مصائرهم، وذكر أسباب تقدم الأمم أو اضمحلالها، وظلت العناية بأخبار الماضين والأنساب، فلما تمت الفتوح وحدث الاستقرار وتتابعت الحوادث الداخلية ظهر كثير ممن تتبع أخبارها، وشجعت الدولة القصاصين على سرد أخبار الماضين بما يجلب اهتمام الناس وينمي فيهم معرفة التاريخ.

الاهتمام بكتابة التاريخ بعد الإسلام:-

تابع العرب منذ عم تدوين العلم في أواسط القرن الثاني الهجري اهتمامهم بالتاريخ والفوا عدداً كبيراً من الكتب بعنوان «تاريخ» أو «أخبار» للحوادث السياسية أو تراجم العلماء، وكان أكثر ما كتبوه تحت هذا العنوان يتصل بالحوادث السياسية المتصلة بالدولة أو أعمال المهيمنين عليها وخاصة من الخلفاء والحكام، إلاّ أنهم كتبوا في هذه العناوين أخباراً لأقاليم ومدن، وأشخاص من الحكام والإداريين ورجال الفكر في مختلف جوانبه.

وألفوا في الأنساب كتباً كثيرة في بعضها مادة ضخمة عن جوانب من المجتمع العربي، بمجموعاته المتميزة ورجالهم المتميزين، وتعاقب تسلسلهم.

كما أنهم دونوا معلومات واسعة غنية من عدد من جوانب نشاط الانسان في المجتمع دون أن يجعلوا لعنوانها كلمة «تاريخ» أو «أخبار» ففي ميادين النظم المالية وبعض الحياة الاقتصادية معلومات كثيرة في كتب عنوانها «الأموال» أو «الخراج»، بالإضافة الى ما في كتب الفقه من معلومات لم تقتصر على ميادين المالية وحدها، وإنما شملت أيضاً جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وفي كتب «الفرق معلومات عن الأحزاب السياسية ونشأتها وآرائها والمنتمين اليها، وفي كتب «الآداب» معلومات عن أعمال ورجال وجماعات وآرائهم ومكانتهم وكتب «البلدان» العامة التي تشمل أقاليم ومدن العالم الاسلامي معلومات فنية عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والأعمار، وفي أكثر الكتب الأولى المختصة بأقليم مفرد أو بلد واحد معلومات عن جوانب متعددة، في الأرض والسكان والخطط وجوانب في الحياة الاقتصادية، والعلاقات الاجتماعية، ثم صارت تعنى منذ أواخر القرن الرابع بعرض معلومات عن رجال العلم من أهلها أو ممن أقام فيها أوزارها.

وفي ميادين النشاط الفكري الف العرب كتباً كثيرة، بعضها عام لكل ميادين الفكر التي عرفوها، وبعضها خاص بميدان محدد واحياناً دقيق الاختصاص، ومع أن أكثر هذه الكتب تعنى بتراجم الرجال إلاّ أن في بعضها اشارات قيمة الى تطور الفكر، ومكانة العلماء المترجمين في ميدان المعرفة، وفي الحياة الاجتماعية.

وعني عدد من المفكرين بدراسة أحوال الاجتماع الانساني وتطوره، وكانت أكثر أبحاثهم عن الأحوال العامة للتطور بدءاً من المدينة الفاضلة والسياسات المدنية للفارابي، وانتهاء بابن خلدون في مقدمته.

وأولى تدقيق المصادر ونقد النصوص عناية كبيرة وخاصة من علماء الحديث النبوي، وقد اتموا هذا الميدان من المعرفة في مجرى خاص عنوا به من نقد النص ورواته، وأوصلوه الى مستوى من الرفعة لم تزد عليه التطورات الفكرية الحديثة كثيراً.

تتضح غزارة ما ألفه العرب من كتب عند القاء نظرة على المؤلفات التي عنيت بتدوين اسماء الكتب ومن أضخم أوائلها «الفهرست» «لابن النديم» «ومفتاح السعادة» «طاش كبرى زاده وكشف الظنون» لحاجي خليفه وأيضاح المكنون، وهدية العارفين

لسامي البغدادي، و «اسامي الكتب المتمم لكشف الظنون» لعبد اللطيف بن محمد بن رياض زاده.

غير أن مادة وفيرة في أسماء المؤلفات العربية موجودة في كتب تراجم الرجال، وخاصة مما ألف منذ القرن السادس الهجري في عدد من أقاليم الدولة ومدنها، ونذكر من هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر، كتاب «الدرر الكامنة» لابن حجر و «الضوء اللامع» للسخاوي، و «السلوك» للجندي.

ولا ريب أن بعض هذه الكتب وليس كلها، فيها مادة للتاريخ بنطاقه الواسع، كما أن كثيراً من المؤلفات العربية مفقودة، ولا يحتمل الكشف إلاّ عن قليل من المفقود في المكتبات الخاصة لو بالصدف إلاّ أن مادة عدد غير قليل من الكتب المفقودة بقيت في مقتطفات نقلها المؤرخون، وأشار بعضهم، وخاصة أوائل المؤلفين في القرنين الثالث والرابع الى مصادر نقلهم، ولعل من ابرز هؤلاء محمد بن جرير الطيري الذي عني بذكر سند مصادر المعلومات التي استقاها سواء في كتابه تاريخ الرسل والملوك، أو في كتبه الأخرى، وكان المؤلفون وخاصة المؤرخين المتأخرين ينقلون بسعة عمن سبقهم ويشيرون احياناً الى مصادر نقلهم، إلاّ أنهم يفضلون في الغالب ذكر هذه المصادر والتي يمكن كشفها بمقارنة مادتها المتوفرة بمن نقل عنه أو بإشارة المعاصرين والمتأخرين الى هذه الاقتباسات التي قد تكون واسعة وحرفية ودون تحوير.

وقد تمت حديثاً دراسات غير قليلة عرضت اسماء المؤلفات في مواضيع من تاريخ العرب، وأشاروا الى الموجود والمفقود منها، والى كثير من مقتبسات المتأخرين من المتقدمين، ومن أبرز النماذج في ذلك ما كتبه بارثولد في مقدمة كتابه تركستان حتى الغزو المغولي» وكلود كاهين في «سوريا الشمالية في عهد الصليبيين» و «السلطان محمود الغزنوي، وحسن ابراهيم حسن في «الفاطميون في مصر «وليفي برمنسال في «اسبانيا الاسلامية».والواقع أنه قلما يخلو كتاب موثق أو رسالة ماجستير من مقدمة فيها عرض شامل للمؤلف أو مخطوطاً أو مقتبساً أو مطبوعاً في الموضوع الذي يبحثه المؤلف.

وبذلت لنشر عناوين ما يطبع من كتب التراث جهود من أقدمها ما قام به فان دايك في كتابه «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» ويوسف سركيس في كتابه «معجم المطبوعات العربية» ولم يظهر بعد هذا كتاب اختص بنشر قوائم ما يطبع، ولكن ظهرت في بعض الأقطار العربية قوائم بما يطبع في كل منها، كما أن عدداً من دور الكتب العامة، وأخصها مصر، ودور النشر تنشر قوائم بأسماء الكتب التي تطبعها أو تعرضها للبيع، ونشرت مجلة معهد المخطوطات قوائم ببعض ما طبع في كتب التراث في السنوات.

لم يجر جرد لما طبع من كتب التاريخ، خاصة وأن كثيراً من مادته متفرقة في كتب منوعة، غير أنه من المؤكد أن هذه الكتب المطبوعة كثيرة، علماً بأن المعلومات المتوفرة عنها غير منتظمة في التوزيع، فتتوفر عن بعض الحوادث أو الأزمنة معلومات واسعة وتشح حتى تكاد تنعدم عن حقب أخرى، وهي تتوقف على مدى اهتمام مدوني الاخبار أكثر مما هي على أهمية الحوادث وآثارها المعاصرة واللاحقة.

غير أن حصيلتها تمكن من أن تكون لمجرى التاريخ صورة عامة سليمة، وإن لم تكن تامة لما فيها من فجوات.

التاريخ العام: فهم العرب بالقرآن تركيب المجتمع

تظهر المفردات القرآنية وكتب الفلسفة أن العرب كانوا يدركون أن الانسان لا يعيش منعزلاً منفرداً، وإنما يحيا ضمن مجتمع له أثره الأساسي في تصرف الفرد وأحواله. وأشارت الآيات القرآنية الى أن المجتمعات عرضة للتطور، وذكر اخبار بعض هذه المجتمعات وموقفها من ادبائها وحكامها وما أصابها من مصير وحث على دراسة أحوال الأمم ومصائر الزائفين منهم **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** (يوسف ١٠٩، الروم ٥٩، فاطر ٤٤ غافر ٢١، ٨٢، محمد ١٠ الأنعام ١١، النحل ٣٦، النمل ٦٩، العنكبوت ٢٠). وذكر من أسباب تدهور المجتمعات تكذيب الانبياء المصلحين (الانعام ١١، آل عمران ١٣٧، النحل ٧٦، الزخرف ٢٥) والاجرام (الأعراف ٨٤، النحل ٦٩،) والإفساد (الأعراف ٨٦، ١٠، النحل ١٤) والظلم (يونس ٣٩، القصص ٤٠) «،وورد الظلم في ٢٨٦ آية).

وأشار الى الدور الكبير للمترفين في انهيار المجتمعات **﴿وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾** (الاسراء ١٦، وانظر سبأ ٣٤، (المؤمنون ٣٣، ٦٤، هود ١١٦، الزخرف ٢٣،

الواقعة ٤٥).

وأشار القرآن الى سنن الأولين (الأنفال ١٨، الحجر١١، الكهف ٥٥، النساء ٦، فاطر ٤١ و سنن الذين من قبلكم (آل عمران ١٣٧، النساء ٢٦) وإلى سنة الله (الاسراء ٧١، ٧٧، الآحزاب ٣٨، ٦٢، فاطر ٤٣، غافر٨٥، الفتح ٢٤).

ان هذه الآيات تظهر اهتمام الاسلام بدراسة أحوال الماضين التي لم تكن جامدة وأنما متطورة تتعرض للازدهار أو الانهيار تبعاً لتصرف البشر، فهي دعوة لدراسة التاريخ العام الذي يصنعه الانسان وفق سنن وأسس عالمية صحيحة **﴿سنة الله في الذين خلوا﴾ ﴿وكان أمر الله مقدوراً﴾**.

ان الانسان الفرد اساس المجتمع وقد تكررت كلمة الانسان في القرآن الكريم في ٦٥ موضعاً وكلمة إنس في ١٨ موضعاً وكلمة «نفس» التي تعني دخيلة الانسان وذاته ذكرت في ٢٨٩ موضعاً وذكر الرجل في ٥٥ موضعاً والمرأة في ٢٧ موضعاً، والمرء في ١٢ موضعاً، ومن المعلوم أن الاسلام يثبت على الفرد مسؤولية أعماله في أمور الدين والمعاملات والحياة **﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾** ويوم القيامة.

غير أن الانسان لا يعيش منفرداً منعزلاً، وإنما يحيى ضمن جماعة أو جماعات متداخلة تبدأ بالولد(٣٣) والأولاد (٢٥) والولدان(٦) والمولود(٣)، ثم الأب(١٢٣)(والوالد(٣) والوالدين(٢٠) والأم (٣٦) والوالدة(٤) والأخ (٨٢) والأخت (١٣) والخال (٥) والعم (٣) والعمة (٣) وذكر اليتيم (٢٣) وذوي القربى (١٦) والأقربين (٧) والعائلة كثيراً.

وذكر من مكونات المجتمع ابن السبيل (١٠) والمساكين (٢٤) والفقر والفقراء (١٢)، والرقبة بمعنى العبد (١٦)، وما ملكت ايمانكم (١٥) والأمة (٢) وذكر العبد مقابل الحر في موضع واحد، وكذلك المكاسب.

وفي القرآن تعابير عن جماعات مختلفة يتميز كل منها بسمة عامة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ففي الحياة الاقتصادية ذكر الرزق (١١٤) والمعيشة (٨) والنعمة (٤٨) والغنى (٧) والاسراف (٤٢) والرغد (٣) والترف (٨) والبطر (٢) ومقابلاتها: الفقر (١٢) والاملاق (٢)، والخصاصة (١) والبؤس (٤) والاعترار(١) والغارم والغارمون (٥) والبأساء والضراء (٦)، كما ذكرت الضراء منفردة (٣) والبأس منفرد (١).

وفي الحياة الاجتماعية ذكر الضعفاء والمستضعفون (٢٢) منها سبعة مقابل المستكبرون، كما ذكر التابع (٢٥) والصاغر (٤) والعائل (١) والمسكين (٢).

كما ذكر السفيه (١٣) والفاسق (٥٣) والفاجر (٤) والارذل (٢) والمنكث (٦) والمجادل (٩) والمرجف (١)، وذكر أيضاً التفرق (٧) والفريق والفرقاء (٣٢) والاختلاف (٣٦) والزيغ (٦) والأهواء (١٧) والفساد (٢٨) والفتن، والاستقرار (١٣) والأمن (١٨) والبلد الآمن والأمنيون (١٧).

وفي الطبقات العليا ذكر في البشر الأعلون (١٦) العظيم (٩) المقتدر (٢)، المستكبر (٣٢) المبطر (٢)، المارد (٣)، الجبار (١٠) الطغيان (٣١) الفجار (٤) المهيمن (٢) الفساد (٢٨) الظلم (٨٥) القهار (١٠).

وفي المجموع العام ذكرت الأنام (١) والبر (١٢) والخلق (٥٣) والأمة (٦٥) والملة (١٥) والقوم (٣٧٦) والبدو (٣) والأعراب (١٠) والقبيلة (٢) والعشيرة (٣) والأهل (٣٢) أهل الكتاب + ٥٥ عامة خاصة للاسرة + ٢ أهل الذكر + ١٢ أهل القرى + ٣ أهل المدينة + ١٢ أهل مكة + ٢ أهل الحاضر + ٢ أهل مدن.

وفي البلاد ذكرت الارض (١٤٢ + ٢١٢ مقرونة بالسماء) والبرية (٢) والآفاق (١) والأقطار (٢) والعامر (٥) والخراب (١٢) والخاوي (٥) والبنيان (٩) والمساكن (٣٢) والبلد والبلدة والبلاد (١٩) منها ٥ لمكة) والمدينة (١٤ منها ٤ لمدينة الرسول (ص) والمدائن ٣ والحاضر (١) وحاضرة البحر (١) والقرى (٥١) وأم القرى (٣، منها ٢ لمكة) والسوق (٢).

وفكرة القوم تقوم على التكتل السياسي المسند بالروابط الاجتماعية فهو لا يشترط الرابطة الدينية والعقائد، وهو في القرآن الكريم مرتبط بالبارزين من رجاله وخاصة من الأنبياء، كقوم كل من نوح وموسى، وابراهيم ، ويونس، وهود، ولوط، وصالح والرسول (ص) كما ذكر قوم فرعون.

وذكر القرآن صفات عامة متباينة للأقوام (يؤمنون، يعقلون،

يعلمون، يتفكرون، يفقهون، يحبون الله، كافرون، ضالون، يجهلون، طاغون، فاسقون، مجرمون) وكل هذه التعابير تتعلق بالعقائد الدينية والفكرية في مختلف مظاهرها المرضية والممقوتة.

أما المستوطنون فقد وصفوا بأنهم (أهل) للمدينة (قصص ٤٥/١٢) ،توبة ١٢٠/١٠١)، ومكة ومدين (قصص ٤٥/١٢) (طه ٤٠) وود ذكر (أهل القرى) في ايات كثيرة، غير أن الأهل ذكروا بمعنى (الاسراء) لقوم نوح.

وفي رئاسة الدولة ذكر القرآن فرعون، وعزيز مصر، وملك مصر، وملوك بني اسرائيل، وملك سليمان وملكة سبأ، وذكر اثر الملك على البلاد التي يحكمونها، وذكر بعض عوامل ازدهار المجتمعات وتقهقرها غير أنه لم يشر الى فترات زمنية للارتقاء أو الانحطاط.

وذكرت المصادر نظماً متعددة في مناطق الجزيرة، منها ذكرته من لبس التاج، ومنهم هوذه بن علي الحنفي في اليمامة، وعبدالله بي أبي الذي أراد أهل المدينة أن يتوجوه قبيل هجرة الرسول كما ذكرت ملوك اليمن، وأمر اء المناذرة وفي الحيرة وأمراء الغساسنة في أطراف الشام، أما العشائر فكان كل منها كالدولة، فكان لها رؤساء يغلب على وصف عملهم تعبير (الرئيس) وقد يسمى (السيد) أو (الشيخ).

تصوير القرآن لتطور المجتمع:-

ذكر القرآن الكريم فناء الجماعات في الماضي بـ (الدمار) و (الهلاك) فأما التدمير فقد ذكر في ستة آيات ذكر فيها تدميرها كان يضع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (الأعراف ١٣٧ والفرقان ٣٦ وعاد (الأحقاف ٢٥) وثمود (النمل ٢١)، وأشار الى تدمير دون أن يذكر اسمهم (الشعراء ١٧٢، الصافات ١٣٦)، وذكر المشركين أن يسيروا في الأرض **﴿فيظنوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم والكافرين امثالها﴾**.

أما تعبير (الهلاك) فقد ورد بصيغه المختلفة في ٨١ اية، ويقصد به الإبادة التامة التي تتم احياناً بعمل مباغت كالريح الصرصر التي قضت على قوم عاد (الذاريات ٤١، الحاقة ٦) والطاغية التي قضت على قوم ثمود (الحاقة ٥) وقوم لوط بالحاصبة (القمر٣٤)، والطوفان الذي اجتاح قوم نوح.

والهلاك يقضي على البشر، أما المساكن فقد تبقى فيسكنها من يأتي بعدهم **﴿وسكنتم مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾** (ابراهيم ٤٥) فالبشرية مستمرة، أما الأقوام فتبلى ليأتي بعدهم من هو خير منهم (عبد التبديل انظر: الانسان ٢٨، الواقعة ٦١، المعارج (٤١، التوبة ٣٩، محمد ٣٨).

ورد القرآن اهلاك القرون (١٣) واهلاك القرى (١٦).

ذكر القرآن الكريم **﴿ان الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها﴾** (النحل ٣٤) وأن أسباب هلاك أهل القرى انهم يبطرون (القصص ٥٨)، على أن من أهم عوامل القرى هو افساق مترفيها **﴿وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾** (الاسراء ١٦).

﴿والمترفون يعيشون بترفهم في الحياة الدنيا، وهم يكفرون ويكذبون بلقاء ربهم﴾ (المؤمنون ٣٣)، (سبأ ٣٤)، وهم في معارضتهم يدعون أنهم يسيرون على ما وجدوا اباءهم عليه (الزخرف ٢٣)، **﴿واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾**، (هود ١١٦)، وسيعذبهم الله يوم القيامة (الانبياء ١٣، الواقعة ٤٥، المؤمنون ٦٤).

والعامل الأكبر لاهلاك القرى هو ظلمهم وقد تكرر في القرآن الكريم الظلم فذكر في ١٣٣ آية وذكر الظالم في ١٦٣ آية وذكر ظلم الانسان نفسه في ٤١ آية، وذكر (وهل يهلك إلاّ القوم الظالمون) (الانعام ٤٧)، ومع كثره ردد الظلم إلاّ أنه لم توضح الآيات ماهيته وحدوده سوى أن ذكر في ثلاثة عشر آية ان اظلم الناس من افترى على الله وكذب بآياتنا.

ولا تهلك القرى إلاّ بعد أن يرسل الله تعالى اليهم رسلاً ينذرونهم فلا يستجيبوا للرسل (الفرقان ٥١، الشعراء ٢٠٨، سبأ ٣٢،يس ١٣، القصص ١٥٩).

ان الآيات التي أشرنا اليها اعلاه تظهر أن الملوك تفسد القرى، وأن من أسباب هلاك أهل القرى بطرهم وفسق المترفين فيها، ومع أن القرآن الكريم ذكر القوم الفاسقين في ٥٤ آية منها أربعة آيات ذكر (الفسوق) وكل هذه الآيات تشير الى ذم الفسق، ولم تحدد بصراحة المقصود منها إلاّ أنها من حيث العموم تشير الى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وما يتصل بها من الآثار الاخلاقية.

والظلم فهو الصق بالأحوال السياسية والاجتماعية وهو يشبر

الى اغتصاب الحقوق، وهي تمتد من ظلم الانسان نفسه، وقد وردت في كثير من الآيات التي تشير الى الظلم الشامل الذي يعتبره القرآن من أقوى العوامل المؤدية الى تدمير المجتمعات.

ان التدمير الذي يصيب القرى يقتصر على السكان، وليس على ما فيها من المعالم العمرانية التي أشار الى أنها تبقى وقد تسكنها جماعات تالية، وقد ذكر القرآن تدمير القرى بصيغة المجمع وتشير كثرة الإشارة الى تدميرها الى أنها أكثر تعرضاً للدمار من المجتمعات الريفية والرعوية ولم ينص صراحة إلاّ على عدد محدود من أهل القرى، ولم يشر الى توزيعها الزمني والمكاني.

ولم يتابع المؤرخون العرب إلاّ القليل منهم الأفكار القرآنية في ازدهار المجتمعات وتدهورها، فاقتصر المفسرون على شروحها اللغوية أما المؤرخون فلم ينظر الى هذا الموضوع الاّ القلة النادرة.

الاهتمام الحديث والمعاصر:-

وفي الأزمنة الحديثة، وخاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر كان للكتابة في التاريخ النصيب الأوفى من التأليف التي آثرها ازدهار الحركة الفكرية في اقطار الوطن العربي، اضافة الى ما كتبه المستشرقون الذين لكتاباتهم بعض الخصائص المميزة، ولكنها لا تعادل من حيث الكم ما ألفه العرب ومنهم عدد من هؤلاء اللامعين، ولكن أكثريتهم من الجامعيين طلبة واساتذة وتكاد لا تخلو أية من الجامعات التي تربو على المادة في أقطار الوطن العربي، من قسم خاص للتاريخ يضم عدداً من الاساتذة والباحثين، اضافة الى ما في بعض الأقسام الأخرى، وخاصة اقسام اللغة العربية والانسانيات ممن يدرسون جوانب من التاريخ ومن الصعب حصر العدد الكبير مما يبحث عن التاريخ من رسائل الماجستير والدكتوراه وأبحاث أعضاء الهيئة التدريسية في ذلك.

ومع أن كثيراً من هذه المؤلفات يقدم كل منها معلومات عن التطور التاريخي للموضوع الذي يبحثه إلاّ أنها من حيث العموم تحصر بحثها في جانب أو جوانب محددة أو تقتصر على زمن محدد. وأكثرها لا تستوعب كافة الجوانب المتفاعلة مع موضوع دراستها ولا تعمل على تحديد مكانته ضمن المجرى العام للتاريخ.

لا يحتوي هذا الخضم الواسع المتدفق من التآليف الحديثة في التاريخ إلاّ عدداً قليلاً من الكتب التي بحثت في كل التاريخ العربي، والذي اذكره من ذلك (تاريخ الأمم الاسلامية) للشيخ محمد الخضر وهو عالم في الفقه. و (تاريخ العرب) لفيليب حتى الذي كتب باللغة الانكليزية، ثم نقل الى العربية و (تاريخ الاسلام السياسي) حسن ابراهيم حسن.

ولم يكن المستشرقون بأوفر حظاً من العرب في تأليف كتب في تاريخ عام للعرب، إذا لا أذكر من ذلك غير كتاب لكل من بروكلمان، وبرنارد لويس، ودومينيكو سورديل، وكلوء كاهين، وجبرايلن وهذه المؤلفات كلها نقلت الى العربية، اصدرها مؤلفوها في سنوات نضجهم، وفي كل منها آراء طريفة عن بعض جوانب تاريخ العرب ولكنها صغيرة الحجم ولا يمكن القول بأن أي منها وصل الحد الذي يجعله قد سد الحاجة الملحة له لإعطاء صورة شاملة لتطور الأمة في التاريخ.

ميسرات كتابة التاريخ العام:-

ولعل من ابرز ما ييسر كتابة التاريخ العام للعرب هو أن الدولة التي كونوها ونظموها بما وسمها بميسم مميز، كانت مترابطة الأطراف، واسعة الارجاء تمتد طولاً من اواسط آسيا حتى المحيط الأطلسي وتتيه فيها المواصلات، فيه تكون وحدة متكاملة مكتفية ذاتياً بمقومات الحياة المعاشية وحاجاتها، وبالنمو الثقافي والحضاري ولذلك كانت علاقاتها بالأقاليم الأخرى في الاقتصاد والسياسة والفكر هامشية محدودة، حتى القرنين الأخيرين اللذين ازداد فيها تنامي أوروبا في السياسة والفكر ثم الصناعة وازداد نشاطها في مد نفوذها الاقتصادي والفكري ثم السياسي وما رافق ذلك من اختلاطات معقدة زعزعت وحدتها الثقافية وسماتها الحضارية المشتركة وترابطها السياسي العام.

ومما ييسر كتابة التاريخ العام المقدار الهائل من المصادر التي نشرت والدراسات التي انجزت والتي طبقت قواعد النقد المعقدة لاستخلاص الحقائق وتثبيت الصحيح منها في مواضيع متعددة الجوانب لاحداها كثيرة في مناطق متعددة وأزمنة متواصلة. ويمكن القول عنها أنها استوعبت ما لا يقل عن ثمانين بالمائة من الجزيئات، وأنها تكفي لتكوين فكرة سليمة مقبولة عن المجريات العامة للتطور.

ولا يخفى أن تصوير التطور العام لتاريخ العرب يفيد من التقدم

الواسع الذي حدث في دراسة عدد من العلوم الانسانية المتعلقة بنشاط البشر وسلوكهم، بما في ذلك علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السكان والبشر والجغرافية.

ومما يفيد في اعداد التاريخ العام للعرب هو التقدم الكبير المستمر في كتابة تواريخ الأمم الأخرى والابحاث المتزايدة في تقديم النظرات الشاملة لتطورها، فإن هذه الدراسات لم تصل اوجها من النضج والكمال، ولا يصح تطبيقها حرفياً على دراسة تاريخ العرب، ولكنها تثير التفكير، وتنبه الى بعض الجوانب وقد تقبل بعض آرائها أو ترفض ولكنها تغني بالمقارنة حتى أن الاستاذ باراكلو وهو من ابرز المعنيين المعاصرين بدراسة طرق البحث التاريخي، يرى أن المقارنة هي أمثل سبل العرض السليم لكتابة أي تاريخ.

ان اللبنة الاساسية في كتابة تاريخ العرب، وأي تاريخ آخر هو الحقائق الجزئية المثبتة صحتها بطريقة البحث النقدي الذي وصلت لو قاربت قواعده حد الكمال، غير أن التاريخ للعلم لا يقتصر على سرد هذه الحقائق منظمة حسب الزمان والمكان، وإنما يذهب الى أبعد من ذلك في تخير ما يذكره، وفي بيان أهمية هذه الحقائق وترابطها وتفاعلها مع الحقائق والحوادث الأخرى التي تكون بمجموعها الصورة العامة السليمة لمجرى الحوادث.

تقسيم التاريخ العام حسب الزمن أو الحوليات:-

ان حياة الانسان في المجتمع مجرى متواصل غير منتظم في سعته واحداثه، فالحياة الانسانية قد تكون مزدهرة في جانب أو أكثر، وقد تكون بطيئة أو راكدة والزمن هو الأساس الأول لترتيب كتابته، لأنه اساس بحث التاريخ، وقد قدمت الطبيعة لتنظيم الزمن بعض المظاهر البارزة للعيان يدركها كل انسان وهي الأيام والأشهر والسنين، وقد اتخذت السنين اساساً لتنظيم دراسة التاريخ ورتبت من كتب التأريخ مادتها حوليات على أساس السنين، علماً بأن السنين نوعان رئيسيان:

ونظراً لتكاثر عدد السنين على مر الأيام فقد ابدعت المجتمعات تقاويم تتخذ بدايتها اساساً لاحصاء السنين. واتخذ كثير من المجتمعات البدائية خاصة لبداية تقاويمها حوادث طبيعية خارقة كالزلازل المدمرة والفيضانات الكاسحة والأوبئة المهلكة. غير أن أكثر هذه الأحداث محليه محصورة وقد يطغى على ذكرها حوادث تاليه توازيها أو تفوقها في الأخطار. وعمدت بعض المجتمعات على اتخاذ وفاة بعض رجالها البارزين تقويماً. ولكن مثل هذه التقاويم كانت محدودة وغير دائمة. وابرز الساسانيون أولوية ملوكها للتقويم، وهذا يعدد التقاويم ويجعلها متباينة تتطلب متابعتها جهوداً ويسفر عن ذلك يزدجرد آخر ملوكهم الذي ولي في السنة الرابعة عشر للجهري وظل الفرس يؤرخون به بعد وفاته واتخذ اليهود بدء تقويمهم مما ادعوه بدء الخليقة. واتخذ شعوب في المشرق وفاة الاسكندر. تقويمها، واتخذ النصارى سنة ميلاد المسيح بدءاً لتقويمهم أما العرب، المسلمون فقرروا بعد تمحيص اتخاذ هجرة الرسول (ص) الى المدينة بدءا لتقويمهم وساروا على السنوات القمرية.

تقسيمات العرب للتاريخ قبل الإسلام:-

عرف العرب الزمن وتقسيماته، وذكر القرآن (الساعة) (٤٨ منها ٣٧ ليوم القيامه)، والليل (٤٢ منفرد و٤٦ مقرونا مع النهار) والنهار (ذكر منفرداً في ١٠ مواضع، واليوم (٣٧٧)، والشهر (٢١) وذكر **﴿إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾** التوبة٣٦) والسنة (١٩).

ادرك العرب أهمية تقرير علامات بارزة لتنظيم تحديد الزمن مما تسميه (التاريخ) فاتخذ بعضهم التحديد بعض الحوادث الخارقة كالفيضانات الباتحه، والزلازل المدمره، وفيما عدا طوفان نوح في الأزمنة السحيقة فإن معظم هذه الحوادث محلية وآثارها محدودة، ومصدرها خارج عن ارادة الانسان.

واتخذت بعض المجتمعات وفيات ملوكها أو رؤسائها البارزين مؤشرات للتواريخ، غير أن هذه (التأريخات، محلية، وأكثرها وقتية، واحداثها قد لا تكون شاملة للمجتمع كله.

ذكرت بعض المصادر أسماء عدد غير قليل من ملوك اليمن وإمراء المناذرة والغساسنة وسني حكم بعضهم وأعمالهم، ومع أن معظم ملوك كل اقليم كانوا من اسرة واحدة، إلاّ أن المصادر لم تذكر اساليب تولي كل منهم، ومظاهر الازدهار أو التدهور في البلاد التي تحكمها اسرة واحدة.

ووردت معلومات عن ولاية (ذوي التاج) في عمان واليمامة

ولم يذكر إلاّ واحد منهم، وذكرت المصادر رئاسة كثير من العشائر الكبيرة التي كون كل منها شبه دولة وأشارت الى الصفات الواجب توفرها فيهم وأمحت الى اساليب تبوؤهم الرئاسة، وذكر ابن خلدون في ما كتبه في مقدمته عن البدو وقيام مجتمعهم على العصبية، أن الرئاسة أساسها العصبية، وهي قائمة على النسب، وعقد فصلاً ذكر فيه أن (نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة اباء) وارجع ذلك الى الجد المتميز للرئيس الأول ثم تناقصه عن من يعقبه (ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جمله، وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن ذلك البيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف.. ويتوهم أنه النسب فقط، فيرى بنفسه عن أهل عصبيته ويرى الفضل له عليهم.. فيحتقرهم بذلك، فينقضون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعه)، ويذكر أيضاً أن (اشترط الأربعة في الاحساب انما هو في الغالب، وإلاّ فقد يدثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى ويتهدم، وقد يتصل امرها الى الخامس والسادس إلاّ أنه في انحطاط وذهب به، ونقل ان الذين توالى اربعة منهم على الرئاسة محدودة، هم آل حذيفة بن بني الفزاري، وآل ذي الجدين بيت شيبان وآل الأشعث بن قيس من كنده، وآل حاجب بن زراره، وآل بن عاصم المقري، من بني تميم.

ومعلوماتنا عن تطور العرب أو أي من مجتمعاتهم المتعددة في الجزيرة قليلة ومتفرقة تكفي لتكوين فكرة شاملة عن تركيبها وتطوراتها ولذلك فإن البحث في ذلك لا بد أن يبدأ بظهور الاسلام وما تلي ذلك حيث تتوفر معلومات واسعة عن التطورات العامة للمجتمع والدولة طيلة العصور التاليه مما يسر رسم خطوط عامة صائبة عن ذلك التطور.

اختار العرب منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب هجرة الرسول (ص) الى المدينة بداية لتقويمهم وظلت الأمم العربية والاسلامية تستعمل التقويم الهجري حتى العهود الأخيرة حيث أدى تزايد الاتصال بالغرب المسيحي الى استعمال التقويم الميلادي وتناقص استعمال التقويم الهجري، وأخذ الغربيون وكثير من العرب والمسلمين يستعملونه في سرد أحداث العهود الماضية، مما سبب كثيراً من الارباك لمن ألف استعمال التقويم الهجري لتحديد زمن الحوادث القديمة في تاريخنا والذي نراه متابعة استعمال التقويم الهجري وأشهره القمرية في تحديد زمن الحوادث حتى العصور الحديثة ولا ضير في استعمال التقويم للقرون المتأخرة التي توثقت فيها صلتنا بالغرب، على أن لا يترك التقويم الهجري كلياً.

ان ترتيب مادة عن التاريخ حسب تعاقب السنين سار عليه معظم المؤرخين العرب المسلمين البارزين الذين ألفوا كتباً في التاريخ العام للعرب بدءاً من خليفة بن خياط الى الطبري، ومسكويه وابن الأثير، وابن كثير، وابن خلدون، والمقريزي. ولهذا النمط من الترتيب مزايا منها أنه يراعي تعلق الزمن بكل دقة أو يظهر الترابط والتفاعل بين الحوادث عند وقوعها ويبين صدى كل حادثة وأثرها في غير المناطق التي حدثت فيها.

غير أن في التنظيم الحولي على السنين هناك غير ضئيلة فهو يطيل الكتاب بذكر سنوات خلت من حوادث مهمة، وقد يدفعه لملء فراغها الى ذكر حوادث تافهة شاذة.

وهو يفكك عرض الحوادث التي قد تمتد الى أكثر من سنة فيذكرها في أكثر من موضع، وثم يذكر معها في كل موضع حوادث لا علاقة لها بالحادثة المعينة مما قد يشوش القارئ ويعطل تسلسله الفكري.

غير أن الكتب العامة نظمت على شكل حوليات واظهاراً لدور القادة فقد ميزت الفصول بأسماء الخلفاء، وتعزيزاً لمكانتهم فقد ختم كل خليفة عند وفاته بذكر مزاياه وأخبار توضح شخصيته، وإن كان كثير منهم أغفل ذلك، وبهذا ابقى التنظيم الحولي هو الأساس، والكلام عن الأحداث دون صانعيها وموجهيها هو المنظم والطابع. وهكذا أصبحت الصفحات المكتوبة عن سيرة الخليفة كما لمقدمة في الكتاب العام.

إن في كتب التاريخ العام التي تنظم على المسلمين وتركز على الأحداث نمط لدور الأفراد لا تجزيه محاولاتهم في وضع تقسيم اضافي لتاريخهم تبعاً للخلفاء، كما لا تجزيه محاولة الطبري تخصيص فصل لكل خليفة مرض عنه تذكر فيه سيرته.

ان دراسة تطور الانسانية يقتضي عرض الأحداث التاريخية بشكل حوادث عامة شارك في أحداثها أو التأثر بها عامة الناس وغالبيتهم المطلقة، مما يؤدي الى وضع القادة والموجهين في موضع

خلفي قد يفهم منه دورهم الثانوي.

وبقدر ما ينبغي عدم اهمال دور الناس في وضع والأحداث وتوجيهها، فإن الاهتمام بدورهم ينبغي إلاّ ينسينا دور القادة الذين قاموا بالتوجيه والقيادة، واتخاذ القرارات الانعطافية الحاسمة التي كان لها دور كبير في سير الأحداث وفي دفع الجماهير وتوجيههم وتنظيم حركاتهم، وخاصة، العباقرة والأفذاذ منهم، ولا ريب في أن القرن الأول الهجري عدد من أعاظم الأفذاذ والقادة الذين مهما كانت الروح الديمقراطية ومراعاة الجماهير. كان لهم دور رئيس وحاسم في القيادة والتوجيه. وإذا كان التناقض لا يظهر في الرسائل التي تبحث في مواضيع محددة. فتركز بطبيعة محدوديتها على ما تدرسه من ترجمة الرجل وأعماله أو تصف الحادثة فلا يذكر فيها العظيم إلاّ عرضاً في مجرى البحث.

إلاّ أنها تظهر قوية عند محاولة كتاب عام. وقد واجهت هذه المشكلة القدماء، وحاولوا حلها. فمن المعلوم أن المؤلفات الأولى كانت تركز على الحوادث التي تمس العامة والجماهير وفيها عرضت الفتوح وكثير من اخبار الفتن الداخلية، كما ألفت كتب في تراجم منفردة لكل من العظماء.

ذكر في القرآن الكريم وكتب اللغة القيمات للزمن التاريخي ومنها حق (الكهف٦)(النبأ ٣٣) القرون في عشرين آية، منها بصيغة المفرد، وذكر أن هذه القرون هلكوا وانقرضوا﴿**فنادوا ولات حين مناص**﴾(ص٣) ﴿**وقد خلت القرون من قبلي**﴾ (الأحقاف ١٧) ﴿**هل تحسُّ منهم من احد**﴾ (مريم٩٨) ﴿**وهم من بعد نوح**﴾(الاسراء ١٧)﴿**القرون الأولى**﴾(طه٥١) ومنهم ﴿**عادا وثمودَ وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً**﴾ (الفرقان٣٨) ﴿**فهم لا يرجعون**﴾(يس٣١)﴿**ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾(الانعام ٦، المؤمنون ٣١، ٤٢، القصص٤٥).

يدل سياق هذه الآيات على أن المقصود بالقرن (الجماعة من الناس، وليس على الزمن ولم تحدد الآيات الأقوام التي قصدت بالقرون، وإنما ذكرت انهم كانوا يتمتعون بالسلطان ﴿**مكنّاهم في الأرض**﴾ (الأنعام ٦) وأنهم كانوا ﴿**أشد بطشا**﴾ (ق٣٦، القصص ٧٨) ويتمتعون بحياة مادية رافهة ﴿**أحسن اثاثاً ورئيا**﴾ (مريم ٧٤) ﴿**يمشون في مساكنهم**﴾ (طه١٢٨، والسجدة ٢٦) وذكر أنهم هلكوا حدث ﴿**ولما ظلموا**﴾ (يونس١٣).

لم يذكر القرآن اسماء الأقوام الذين كن عنهم (القرون) وإنما أشار الى أنهم انقرضوا كلياً ﴿**ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾ (الأنعام٦، المؤمنون ٣١، ٤٢، القصص ٤٥) ولم يحدد زمن نشوئهم أو مدة تعاقبهم.

ذكر الطبري أن القرون (هم الأمم الذين وطئت لهم البلاد والأرض (التفسير ٩٦/٧) وأن قرن يعني جماعة من الناس إذ سلكوا في خلافي (التفسير ١٠١/١٦).

وورد ذكر القرن في ثلاثة أحاديث نبوية، فيروى أنه قال (خير أمتي القرن الذي أنا فيه، بعثت فيهم (معلم: فضائل الصحابة. ١٠-٢١٥ أبو داود سنة٩، ابن حنبل ٣٥٨/٢، ٣٢٧/٥، ٥٦/٦) وقد بعثت من خير قرون بها آدم قرناً فقرنا (البخارى: مناقب٢٣، ابن حنبل ٣٧٣/٢ ووضع البخارى، باب ما توارث أهل المدينة من ذلك قرناً بعد قرن(كفارات ٥).

تطور مفهوم القرن عند اللغويين

تطور مفهوم (القرن) بعد نزول القرآن، فأصبح يعني حقبة من الزمن اختلفت الآراء في تحديدها وقد اجمل ابن منظور هذه الاختلافات فقال.

القرن الأمة تأتي بعد الأمة قيل مدته عشر سنين أو قيل عشرين سنة وقيل ثلاثون وقيل ستون، وقيل سبعون، وقيل ثمانون و هو في مقدار المتوسط في أعمار أهل الزمان، وفي النهاية أهل كان زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم. وفي الحديث أن رجلاً أتى فقال علمني دعاء ثم أتاه عند قرن الحول أي عند آخر الحول الأول وأول الثاني، والقرن في قوم نوح مقدار أعمارهم، وقيل القرن اربعون سنة بدليل قول:

ثلاثة أهلين أفنيتهم   وكان الإله هو المستاما

وقال هذا وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل القرن مائة سنة وجمعه قرون وفي الحديث أنه مسح رأس غلام هو قال عش قرناً فعاش مائة سنة والقرن من الناس أهل زمان واحد.

ابن الاعراب القرن الوقت من الزمان يقال هو اربعون سنة،

وقالوا هو ثمانون سنة وقالوا مائة سنة. قال أبو العباس وهو الاختيار لما تقدم من الحديث.

وفي التنزيل العزيز ﴿أولم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ قال أبو اسحاق القرن ثمانون سنة وقيل سبعون وقيل هو مطلق من الزمان وهو مصدر قرن بقرن.

قال الأزهري الذي يقع عندي والله اعلم أن القرن أهل مدة فكان فيها أو كان فيها طبقة من أهل العلم قلت السنون أو كثرت والدليل على هنا قول النبي (ص) خيركم قرني يعني: اصحابي ثم الذين يلونهم يعني التابعين ثم الذين يلونهم يعني الذين أخذوا عن التابعين. قال وجائزاً أن يكون القرن لحملة الأمة وهؤلاء قرون.

وفي حديث خباب هذا قرن قد طلع اراد قوماً احداثاً نبغوا بعد أن لم يكونوا يعني القصاص وقيل اراد بدعه حدثت لم تكن في عهد النبي (ص).

وقال أبو سفيان الروم ذات القرون قيل لهم ذات القرون لتوارثهم قرناً بعد قرن وقيل سموا بذلك القرون شعورهم وتوفيرهم اياها وأنهم لا يحوزونها وكل ظفيرة من ضفائر الشعر قاله المرقش (لسان العرب ٢١١/١٧) غير أن هذه التعابير لم تلق انتشاراً واسعاً وظل استعمالها محصوراً في نطاقات ضيقة.

تقسيم تاريخ الاسلام الى راشدي واموي وعباسي

عم في المؤلفات عن تاريخ العرب بجانب الحوليات تقسيم التاريخ الى راشدي وأموي وعباسي، وتنوعت التعابير في وصف هذا التقسيم، فذكر أكثرها (الخلافة) قالوا (خلافة الراشدين) (الخلافة الأموية) (والخلافة العباسية) ووصفها بعضهم لا دولة فقالوا (الدولة الأموية) (الدولة العباسية) وذكر بعضهم دولة الراشدين ولم اهتد بعد الى أول من وضع هذا التقسيم الذي لم يذكره خليفة بن خياط واليعقوبي والطبري ومن تابعه حيث أن كلاً منهم رتب معلوماته على أساس الحوليات، وأشار الى تولي كل خليفة دون أن يضع تعبيراً يميز كلاً منهم.

ان تعبير (الأمويين والعباسيين) يعبر عن الأسرة التي ولي منها خلفاء كل منهما أما تعبير (الراشدين) فهو صفة للسلوك والأخلاق والسمات الطيبة للأعمال، وليست لها أية صلة بالنسب. والواقع أن الخلفاء الاربعة الذين كونوا الخلافة الراشدة كانوا شأن الأمويين والعباسيين من قريش ومن أوائل المسلمين ولكنهم كانوا من بطون مختلفة منهم وقد ذكر المحدثون الأولون. خلافة النبوة ثلاثين عاماً (الترمذي٤٨، أبو داود: سنه) ابن حنبل ٤٤،٥٢٥٧٢/٤) وقد يكملها حديث (الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون الملك (حيلي ٢٢٠/٥/٥، ٢٢١).

وروي عدد من كتب الحديث تعبير الخلافة الراشدة. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين (حيل ١٢٦/٤، ١٢٧) أبو داود سنه ٥ ابن ماجه مقدمة ٦ الدارمي: مقدمه١٦.

وأشارت بعض الكتب الى التبدل الأساسي الذي حدث بمجيء الأمويين حيث انقلبت الخلافة الى ملك، ولعلهم قصدوا بذلك أن الأمويين عنوا بمظاهر الابهة الخارجية للخلافة، وأنهم اخذوا لانفسهم الهوافيء، وهي الأراضي التي كان يمتلكها الملوك والأمراء السابقون قبل الاسلام، وجعل عمر بن الخطاب مواردها لبيت المال العام.

والواقع أن معاوية ادخل بعض التعديلات المباشرة في الدولة، فجعل مركزها في الشام بدمشق بدل المدينة ولمدة دائمية تختلف عن اقامة الخليفة علي بن ابي طالب في الكوفة معظم أيام خلافته التي دامت اربع سنوات. ومع أن معاوية عمل على ارضاء أهل المدينة إلاّ أنه كان بعيداً عنهم بما لا بد أنه أشار عدم رضاهم الذي ازداد أيام يزيد حتى وصل حد الثورة التي شارك فيها الأنصار والمهاجرون ولم تخمد إلاّ بقتال عنيف وفيه عدد كبير من القتلى وخاصة من الصحابة وأولادهم.

نورد ادناه عدد الصفحات التي خصصها خمسة من مؤلفي التاريخ العام لكل من:

	الرسول (ص)	الراشدون	الأمويون	العباسيون
	١١سنة	٢٩سنة	٩٢	-
(تركت حياة الرسول قبل الهجرة)				
خليفة	٥٣	١٢٤	٢٣٢	(١٠٠ سنة)..
اليعقوبي	٧٤	٩٠	١٢٠	(١٣٠ سنة) ٤٦
الطبري	٢١٦	١١٣٦	١٥٠	(١٧٠ سنة) ١٧١
الدستوري	١١٣	١٣٥	٢٥٠	(مائة سنة) ٢٢٧

التقسيم حسب الدول

غير أن التوسع الكبير في الدولة والقضايا الكثيرة المستجدة

الناجمة عن تطورات الأحوال خطت منذ زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان أن يكون لكبار ولاة الأقاليم (الكوفة والبصرة والشام والفسطاط) مجالات لممارسة سلطات واسعة بصورة شبه مستقلة، وبما لا يقل ان لم يزد على ما يمارسه الخليفة الذي تحدد عمله المباشر في مركز اقامته، مع حق تعيين كبار الولاة والأشراف عليهم وعزلهم هي رمز سلطته العليا.

ولم تحصر الخلافة الولايات الكبرى بشخص دائمي أو باسرته وإنما كانت تبد لهم بعد مدة محدودة مختلف مداها، وظل هذا الوضع حتى زمن هارون الرشيد حين قرر أن تبقى ولاية افريقية حصراً بابن الاغلب ومن يختاره من أولاده من بعده مقابل الاقرار بسلطان الخليفة ودفع المقرر للخليفة من المال.

وازداد هذا الاسلوب من الإدارة وخاصة في الأقاليم البعيدة عن المركز وكان يتم بإقرار الخليفة عن رضا أو بالكره، وكان الولاة الذين يتوارثون مناصبهم يمارسون سلطات واسعة في الإدارة والتوجيه، ولكنها لا تزيد عن ما كان يمارسه الولاة من قبل، كما أنهم يقرون بأنهم جزء من كل وأن للخليفة السلطة العليا التي لا يجوز تحديها، بصرف النظر عن العلاقات الشخصية بين الخليفة والوالي ولا يخفى أن هؤلاء الولاة مهما كانت أصولهم يسيرون وفق الأسس العامة للدولة ويقرون بوحدتها، مهما كانت الخلافات الشخصية بينهم.

بالغ عدد من الكتاب المعاصرين في اعتبار هذه الدول دليل تفكك. ومظهر قوة القوميات المناهضة للعرب. ولعل ما عزز رأيهم استعمال العرب كلمة (دول) التي مفهومها الحديث مخالف كلياً لمفهومها القديم حيث أنهم كانوا يقصدون به (الحكام) دون البلاد المحددة علماً بأن هؤلاء الحكام كانوا يستمدون وجودهم القانوني من موافقة الخليفة على تعيينهم وهم يقرون بسلطته العليا.

اطلقت المصادر على هذا النمط من التنظيم الإداري اسم (الدول) واتخذته أكثر كتب التاريخ قديماً وحديثاً اساساً لتقسيم تاريخ العرب والمسلمين اضافة الى التقسيمات السابقة، وبالغ به البعض فجعله يطغى على التقسيمات الأخرى.

وصوره معبراً عن التفكك السياسي والحضارة لوحدة الدولة وبالغ في التغييرات التي ادخلها القائمون في هذه الدول وفي دوافعها، ولم يلاحظوا أن هذه التغييرات لم تكن بالعمق الذي صوروه، وأنها ثمار تطور عام لم يقتصر عليها وإنما شمل مختلف المجتمعات في أرجاء الدولة بما فيها بغداد حاضرة الخلافة العباسية، هي ألصق بالممارسات الإدارية ولها جذور عميقة ترجع الى السلطات الواسعة التي كان يمارسها كبار الولاة منذ زمن الخليفة عثمان ثم خلافة الأمويين، وأنها تتخذ انموذجها الأعلى من حصر الخلافة برجال من أسرة واحدة يطلق عليها الكثيرون خطأ أنها «وراثية» في حين أنها اختيارية، وتقتضي «البيعة» وإن كانت شكلية.

ان تقسيم احداث التاريخ تبعاً «للدول» مضلل وغير دقيق، فهو تنظيم إداري قديم، ولم يكون المهيمنون عليها «دولاً» مستقلة ذات حدود ثابتة بمفهومنا المعاصر، كما أن سلطاتهم لم تكن مطلقة، وإنما خاضعة بدرجات متفاوتة لسلطة الخليفة العليا وآثارهم متصورة بالدرجة الأولى بالجوانب الإدارية دون الميادين الحضارية الفكرية التي تتحكم فيها بالدرجة الأولى عوامل عامة غير مقتصرة على مجتمع ضيق أو منطقة محدودة، علماً بأنه حتى في ميدان الإدارة والسلطة السياسية لم يكن سلطانهم ثابتاً بامتداد الأراضي أو بمقدار السلطات التي يمارسوها.

لا يقتصر التخير في كتابة التاريخ العام على جزيئات الحوادث المتفردة وإنما يمتد ليشمل الجوانب المتعددة نشاط الإنسان بما في ذلك العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والفكرية والفنية، وإعطاء كل منها المكان الذي يراه جديراً به لما له من دور وأثر في عملية المسيرة الحضارية المتطورة.

النظرة الشاملة:-

لا ريب في أن المثل الأعلى لأي مجتمع بشري أن يتابع حيويته وانماءه لكافة الجوانب الحضارية النشأة بصورة متساوية ومتوازنة ودائمية. غير أن هذا المثل الأعلى لم يحققه في التاريخ أي مجتمع ومنه المجتمع العربي، ولم تسر الحضارة بصورة مطردة ثابتة ودائمية عبر الزمن. وإنما كانت تحدث فيها تنوعات تخضع كل منها الى تطورات، فتمر الأمة ببعض الأزمنة يزدهر فيها جانب أو أكثر فيطغى على الحياة فيها ويؤثر على الجوانب الأخرى التي قد يضمر فيها ويضعف لحد الاختفاء. وهذا الازدهار بدوره لا يبقى ابدياً،

وإنما ينتعش لمدة محدودة ثم يضمر ليل محله في الازدهار مظهر أو جانب حضاري آخر، وبذلك فإن تاريخ العرب، شأنه كتاريخ الأمم الأخرى متطور تتسم فيه كل حقبة بازدهار أو بروز جوانب معينة دون أخرى أو يكون هذا مصدر تعقيد يتوقف توضيحه على مدى سعة معرفة بالباحث وعمق تفكيره وسلامة نظرته وصواب حكمه. وكل هذا وإن كانت مستندة على المادة الغزيرة المتوفرة، إلاّ أنها تعتمد اساسياً على نظرة الباحث واتجاهاته الفكرية، أو قل على نظرته الفلسفية التي توجه تفكيره شعورياً أو لا شعورياً. أما تقديرها فيتوقف على مدى استجابتها لاحكام الرصينية أو كانت النظرة اشمل.

تنظيم مادة الكتب التاريخية:-

تقتصر مزاياه على الحوادث العسكرية والسياسية ومستجدات الإدارة وتعيين وعزل رجالها وبعض نظمها، ويغفل التيارات غير المنظورة التي تولدت منها الحوادث كما يغفل التطورات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ويعنى بسرد الحوادث دون ذكر علل حدوثها وآثارها وامتداداتها.

ومن أشكال عرض المعلومات في التاريخ ترتيبها حسب الحكام واصحاب السلطة وخاصة الخلفاء في الدولة والولاة في الأقاليم وهذا النمط من التنظيم يعبر عن فكرة المؤلف في الدور الرئيس للأفراد ذوي السلطة في صنع الحوادث وتوجيهها ونواة هذا النمط للمؤلفات في تراجم هؤلاء البارزين وهي تنسب اليهم صنع الحوادث وتوجيهها، وكثيراً ما تقترن بالحوليات كالذي فعله الطبري ومن سار علي حذوه. وليس بين الطريقتين تناقض كبير سوى أن هذا النمط يضيف معلومات عما للحاكم من صفات شخصية واخلاقه وبعض سلوكه وأهل بيته.

الفتن

ذكر بعض المؤلفين العرب حوادث متعاقبة لكل منها أثر عميق فاصل. ومن هذه الحوادث ما اسموه (الفتن) وهو تعبير ورد في القرآن الكريم في ستين آية بمعنى تبديل الفرد دينه وتحوله عنه. ووردت في كثير من كتب الحديث بهذا المعنى وبمعاني أخرى منها الاندهاش في الاعجاب والصرف عن العمل الطيب (يفتنون عن صلاتهم) و (اعلان أن التذمر، «لا تحرموهم فتفتنوهم» (ابن حنبل ٤١/١) ووردت في أحاديث أن الفتنة تأتي من الشام (حبل ١٩٦/٤، ٩٩/٥) وفي حديث آخر أنها تأتي من العراق (حنبل ١٤٢/٢) وفي أحاديث كثيرة أنها تأتي من المشرق. وذكرت احاديث فتنة الأعور الكذاب (حبل ١٩٣٩/١١) وفتنة الدجال وفتنة المسيح الدجال.

وحدد البخاري ثلاث فتن كان لها أثر عميق في رواة الحديث أولها مقتل عثمان (بخارى/ مغازي٤) وأشار ابن حنبل الى فتنة ابن الزبير (٣٢٠/١، ٦٢/٢) وانظر (النسائي الضيء١، ولم تنص الكتب على الفتنة الثالثة والراجح أنها الاضطراب الذي حدث على اثر مقتل الوليد بن يزيد وكل هذه الفتن ولدت اضطرابات سياسية عنيفة امتدت الى رجال العلم، ولم يذكر المؤرخون حادثة بعدها وحدوثها (فتنة) وإنما ذكروا (الثورات) لكثرة التي كانت تستعر في أوقات متباينة بمعدل ثورة عارمة كل حوالي خمسة وعشرين سنة.

والتقدير ارصن والحكم أدق كلما اكتسبت تقديراً اوسع وديمومة أطول.

ان عرض مختلف جوانب الحياة في المجتمع، ورصد تطوراتها هو في ظاهره تنبيت للمتخير للتنوع، ولكنه لا يحقق اغفال اهمية العناصر الثابتة، ان الاحوال التي ظلت ثابتة تؤثر في مجرى حياة الأمة وتكسبها خصوصيتها المتميزة وتكون أساساً لدوامها وبغنائها تغنى الأمة. فنحن مثلاً عندما نقول أن الآشوريين انقرضوا، فإننا لا نقصد أن الشعب الاشوري فنى وباد، وإنما نقصد أن الأمة التي كانت لها خصائص حضارية معينة. تخلت عن تلك الخصائص المميزة واتخذت سمات وخصائص أخرى مخالفة بصرف النظر عن مصادر الأفراد «فبقاء الأمة أو زوالها لا يعني بالضرورة فناء أفرادها، وإنما معناه زوال السمات الحضارية العامة التي تميزت، ويقابل هذا أن بقاء الأمم ودوامها يقصد منه ديمومة المظاهر الثابتة في حضارتها والتي تسير معاقبة لتطورات الجوانب المتعددة المنوعة. ويتوقف بقاء الأمة أو زوالها على مدى عمق غرس هذه العناصر الثابتة. ومن واجب المتصدي لكتابه تاريخ عام للأمة بابراز المتغير لدرجة يغفل معه العوامل الدائمة المفعول والتي قد لا تكون ظاهرة للعيان ولكنها متغلغلة في اللاشعور، عميقة في النفس. ان

هذه الثوابت هي العامل الأقوى في بقاء الأمة العربية رغم ما مر عليها من تطورات الإزدهار والضمور، وما واجهته في تحديثات عنيفة طاغية هزت كيانها السياسي وكثيراً من مظاهر حياتها المادية والفكرية.

دقة الجزيئات:-

لا ريب في أن الكتاب الشامل شأن أي كتاب آخر، ينبغي أن يقوم على الحقائق الصحيحة أو التي تدل الأدلة العقلية على صحتها، وتنظيمها تبعاً لزمن حدوثها. ومن البديهي أن بعض الحقائق ثابتة لا يمكن التشكيك في دقتها، كتولي الحكام وتعاقبهم، وحدوث الحركات البارزة كالثورات.

غير أن بعض ما يبدو حقيقة مسلمة للناس، قد تثبت المعلومات والأدلة التالية عدم صحتها فليس كل ما تذكره الكتب حقائق ثابتة. وإنما بعضها يتطلب إعادة النظر وينبغي في الكتاب المعتمد أن يذكر ما تظهر صحته الأدلة والمعارف السائدة، بصرف النظر عن احتمال اسقاطه من الحقائق عند ثبوت أدلة على بعده عن الحقائق، ولا يمكن وضع قاعدة واحدة للتشكيك ولا بد من اقرار مسلمات أولية في صحة هذه الحقائق.

الحكم على الحادث وتقدير أهميته:-

والكتاب القيم هو الذي لا يقتصر البحث فيه على جمع الحقائق الجزئية وتنظيمها، وانما يشمل أيضاً الحكم على أهمية هذه الحقائق والحوادث، لاعطاء كل حقيقة مايناسبها من أهمية فيبرز المهم ويقلل من مكان غير المهم، ان كتاب التاريخ يختلف عن «دليل التلفون» أو أدلة مواعيد الطائرات والقطارات وإذا أراد أن يذكر كل الحقائق دون تقدير أهميتها، فإن الصورة العامة للتطور تضيع ضمن هذه التفاصيل.

ان الحكم على الأهمية يتطلب وضع «معايير» لها، والقدرة على تطبيق هذه المعايير على المواضيع التي تدرس والحكم عليها.

القول المنسق:-

والاحكام تتوقف على «النظرات» أو «الفلسفات» السائدة ودراسة المجتمع الانساني وتطوره، معقدة، وقد حدث تقدم غير قليل في دراسة جزيئات هذا المجتمع، وطبقت في هذه الدراسات الجزئية أساليب دقيقة، ووصلت الى بعض النتائج المعتمدة، وخاصة في علم النفس والاجتماع والانثروبولوجي والاقتصاد، ولكن هذه الدراسات التي وصلت الى بعض، وليس كل النتائج المعتمدة، فلا يزال كثير من القضايا لم يبت فيها، ولكن الأهم هو أن الانسان بذاته ولمجتمعه تؤثر فيه جوانب متعددة، فالتنسيق بين هذه الجوانب، واظهار التفاعل يتطلب نظرة شاملة تسمو على الاختصاص الضيق، وتتطلب تقدير أهمية كل عنصر، وهذا لن يتم بالبحوث التي تتبع الاساليب الحالية في البحث، وانما تتطلب «نظرة» أو «فلسفة» قائمة على الشخص المفكر، فهي نظرة شخصية، بصرف النظر عن اتزانها وعمقها، وهي ما دامت «شخصية» فإنها عرضة للانتقاد والنقاش وبالرغم من التقدم الفكري الواسع، الاهتمام الكبير بدراسة التاريخ للتطور البشري فإن الفكر البشري لم يستقر على «فلسفة» شاملة تقوم على اساسها صورة صحيحة وما زاد في صعوبة كتابة تاريخ عام للعرب قلة الكتب المؤلفة في ذلك، مما يجعل الكاتب فيه يسير في طريق غير واضح المعالم، ولا يستفيد من خبرات الآخرين.

والواقع أن لك باحث فلسفة أو آراء خلفية تؤثر في توجيه اهتماماته ودراساته وتنعكس على كتابه غير أن الذين كتبوا في هذه التوجيهات، وأخرجوها من الباطن الى الظاهر أكثرهم غربيون متأثرين بالثقافات والأوضاع التي مر بها المجتمع الأوروبي، وهم عموماً قليلون، ولا نزال بحاجة الى الموجهين العاملين في دراسة تاريخ العرب، بعد أن تبينت الثغرات غير القليلة وفي الآراء التي أبداها الفلاسفة القليلون والكتب العامة التي كتبها المستشرقون والمفروض أن يكون كتاب التاريخ العام منسجماً فيما يعرضه، أي أنه يسير على «خيط» عمن ينظمه ويظهر وحدته، غير أنه ليس من اليسير تقدير هذا الخيط العام والنظرة العامة، إذ كثيراً ما توجد صعوبة التنسيق بين النظرة العالمية الانسانية الشاملة التي قد تغفل الخصائص المحلية، والنظرة القوية التي تؤكد على أهمية التاريخ في اظهار التماسك القومي واثرها في تقويته وما يكسب هذه النظرة من قوة ثم التنسيق بين هذه النظرة الشمولية التي تقود الى التأكيد على ابراز العموميات، والتطورات المحلية الضيقة التي قد لا تنسجم في تطورها ومظاهرها مع الخطوط العامة، خاصة وأن كل ظاهرة عامة تقوم بجانبها ظاهرات متعددة

أصغر وقد تكون مناقضة للظاهرة العامة، وقد يكون اثرها في الظاهرة العامة محدوداً، العقائد الاسلامية بجانبها اديان غير اسلامية، والعقائد المقبولة بجانبها عقائد زائفة والمدن منوعة متطورة، بجانبها ريف وبدو، فإذا أخذنا مقياساً بارزاً لما يربط أكبر عدد من المنظمات فما مدى ما يخصص لما يعارض ذلك، من المنظمات أو النظم والممارسات التي لا تمثل العدد الأكبر.

وتأتي المشكلة الكبرى وهي المطابقة بين الممارسات الفعلية، والآراء النظرية، وخاصة في ميدان السياسة والإدارة.

ومما عقد الأمر على الباحثين الكتابات الكثيرة المنبعثة من عقائد قومية أو اقليمية تحاول أن تجسم ماضي ما تعتقد فيه، وتكتب التاريخ بمنظارها، مما يؤدي الى تشويه وتناقضات مربكة، بسبب المبالغات في تقدير حقيقة واهمية بعض الحوادث، علماً بأن تعدد التيارات القومية الحديثة في البلاد التي شملتها دولة الاسلام، أدى الى تناقضات واسعة في الصور التي قدمها هؤلاء الكتاب (التركية والفارسية).

غير أنه ليس من اليسير تقدير هذا الخيط العام، والنظرة الشاملة إذ كثيراً ما تواجهه صعوبة التنسيق بين النظرة العالمية الشاملة التي قد تغفل الحكم على الخصائص المحلية، والنظرة القومية التي تؤكد على أهمية التاريخ باظهار التماسك القومي واثرها في تقويته، وكذلك التنسيق بين السمات العامة والخصائص المحلية الضيقة التي قد لا تنسجم في مظاهرها وتطورها مع الخطوط العامة، بل قد تكون مناقضة للظاهرة العامه.

ثم أن الباحث يواجه مشكلة التنسيق بين الآراء النظرية والممارسات الفعلية وخاصة في ميدان السياسة والإدارة، خاصة وأن الكتابات التي تبالغ بالعقائد المحلية أو القومية أو الاقليمية التي أدت الى تشويهات وتناقضات مربكة.

أهميته:-

ان الحاجة الى كتاب شامل يهم جهات متعددة، وأوساط واسعة، تمتد من الجامعات الأكاديمية الى المثقفين الطليعة. وعبء كتابته ينبغي أن يتحمله العرب أنفسهم لأنه تاريخهم وسجل أعمالهم، خاصة وأن عددهم متزايد، وله دربه واطلاع.

وعلى القائمين بكتابة كتاب شامل أن يطلعوا على ما سبق من أبحاث ودراسات، ويجنبوا كتبهم الهفوات والعيوب في كتب من سبقهم، انما عليهم أن يكونوا آرائهم وهيكل مادتهم مما توضحه طبيعة المادة التي يعرفونها، لتتم صياغتها بالصورة التي تجعلها أجدر بالرضى والقبول.

وعلى الكاتب أن لا يفرض حشراً أفكاراً معينة مسبقة يجعلها كالقالب الصلب تصب فيه المعلومات صباً أو يعمل وفق قوانين اعتمدت في صياغتها على جزيئات منتقاة لتحقيق صوره ذهنية يفرضها على الحوادث، خاصة وأن الدراسات الحديثة في علم النفس اظهر تعقد عمل النفس الانسانية وعدم ارجاع الدوافع المحركة فيها الى عامل واحد.

والدراسة المطلوبة واسعة في نطاق محتواها، متعددة في المساهمين فيها والمؤثرين في سيره لذا يقتضي عدم قصر البحث على صنف واحد من الناس، وإنما تشمل الملوك والحكام وكذلك حركة الشعوب والجماعات، وتطور الجماهير والعامة وما يتصل بها مع عدم اهماله دور الأفراد، على أن تتحاشى المبالغ في توسيع أو اضعاف دور كل منها. فالعنصر الاساس في الكتاب هو مراعاة التوازن بين الأجزاء ليكون تاريخ الأمة بجمهورها ورجالها وحضاراتها التي ظهرت منذ أزمنة سحيقة ومرت عليها تطورات واحداث كثيرة، مع الاختصاص خلال ذلك بخصائص وسمات مميزة، وتمثلت العناصر العربية لتنسجم مع الكل العام لكيانها.

التقسيم:-

ولا ريب في أن تقسيم كتابة التاريخ الى اقسام واضحة ضرورية لتيسير تنظيم الكتابة وعرض البحث، والتسلسل الزمني اسا س في تقسيم وتنظيم أي بحث تاريخي، إلا أن عوامل أخرى تدخل في تقرير اسس التقسيم، وابرزها مراعاة الأهم من الأحداث، أي تلك التي كان لها تأثير متميز أكد على ما تلاه من الأحداث.

ان يدي التفاصيل تتوقف على نظرة الكاتب، وفلسفته وفهمه للعوامل الأقوى أهمية، فهل هي القوة العسكرية، أم الثروة المادية، أم مدى ازدهار العلم وكثرة العلماء، أم مدى استغلال ابناء الأمة طاقاتهم، أم الانسجام في النشاط والحياة.

الكتب التراثية لم تعد حد الكمال:-

والكتب التراثية غنية في الحقائق، زاخرة باخبار الحوادث، ولكن اغلبها وصفية، تذكر الحادث دون أن تشير الى جذورها في الماضي وآثارها في الحوادث التالية، وقلما تذكر بصراحة أهميتها، فهي تقتصر على تقديم المادة الأولية للباحث الحديث الذي تقدّر قيمة كتابته بمدى ابرازها أهمية الحوادث وترابطها، ثم ان كثير منها تفصل في بعض الحوادث وتقتضب الكلام عن أخرى، وتسكت عن ذكر عدد من الحوادث التي قد نراها مهمة. ولا بد أن هذا الاقتضاب والتفصيل مبعث كثير من تقديرهم لأهمية الحادث بمنظارهم الخاص الذي يختلف عن منظارنا، الأمر الذي يتطلب اعادة النظر في مدى التفاصيل باتجاهات معنية، ومن أجلى مظاهر ذلك أن أكثر المؤرخين قلما يبحثون عن تفاصيل الصناعة والتجارة لأنهم لم يمارسوها أو ربما لأن لهم حكماً اخلاقياً عليها.

ولا بد أن نشير الى أن الأقدمين استعملوا عدداً من التعابير للمؤسسات الإدارية والمالية خاصة، بمفاهيم تختلف عما هو سائد عنده. فلا لباحث التاريخ العام أن يدرك مفهوم الكلمات في زمنها ولا تضلل المفاهيم المعاصرة، علما بأنه يواجه مشكلة أي التعابير يستعمل للمؤسسات القديمة وهل هي التعابير التي استعملها القدماء أم التعابير التي تستعملها.

ان دراسة الجزئيات اساسية ومهمة، ولكنها لا تقدم صورة شاملة للتاريخ، فهي كالطابوق، اساس في البناء كله ولكنه لن يكون تراكمه بيتاً منظماً، إذ لا بد من وضع الجزيئات ضمن هيكل عام تحدد فيه مكانة الحوادث تبعاً لأهميتها، كما تترابط الحوادث بإظهار العلاقات مع بعضها البعض. وهذا يتطلب نظرة عامة، أو فلسفة يقدر على ضوئها أهمية الحادث، فيفصل بما يتناسب مع أهمية الحادث التي لا تقدر بمجرد تأثيرها في الماضي، وإنما أيضاً لآثارها في كياننا وتوجيهاتنا اليوم أيضاً. فالكتاب الشامل يعتمد على الحقائق الصحيحة أو التي تشير الأدلة العقلية على صحتها وتنظيمها تبعاً لزمن حدوثها ولكن ليس مجرد حقائق مكدسة، وتفاصيله لا تعتمد على مدى وفرة المعلومات، وإنما هو كتاب تترابط أجزاؤه، وتعطى التفاصيل منه تبعاً لأهميتها، وهذا يتطلب حكماً وتقديراً للأهمية.

والحكم على الأهمية يتطلب وضع معايير لها، والقدرة على تطبيق هذه المعايير على ما يدرسه والحكم على أهميتها يتطلب «نظرة» أو «فلسفة» عند الشخص المفكر، فهي نظرة شخصية بصرف النظر عن اتزانها وعمقها، والواقع أن لكل باحث آراء خلفية أو «فلسفة» تؤثر في توجيه اهتماماته ودراساته، وتنعكس على كتاباته، وهذه الفلسفة تكون «الخيط العام الذي ينظم الكتابة ويظهر وحدتها.

ان تقدير الاهمية هو أمر نسبي يتوقف على نظرتنا الى المهم، فهي الأفراد والأسر الحاكمة كما فعل كثير من الأقدمين، أم هو التطورات العميقة في حياة الشعوب، وإن كانت هذه فأي التطورات هي الأهم، وأي الأمور تعتبر الفواصل فيها، وتزداد هذه القضية تعقداً عند دراسة تاريخ العرب الذين كانت حياتهم واسعة في جوانبها المادية والفكرية والسياسية، وظهرت في سير تاريخها حوادث بارزة في كل جانب تصلح أن تكون حداً فاصلاً، ولكن الحوادث التي تجمع أكثر من جانب غير كثيرة وخاصة بعد الاسلام، ولكل أساس في التقسيم ميزاته، وعيوبه، وخبر فاصل ما شمل أكثر من جانب، وهو على أي حال ليس التقسيم القائم على الأفراد أو الأسر الحاكمة.

العناصر الحضرية المتوفرة في موضع الانبار عند التأسيس

أ.د عبد الجبار ناجي
رئيس قسم التاريخ – كلية التربية للبنات / جامعة بغداد

ليس هناك من غموض في المصادر القديمة، الكلاسيكية منها والعربية الاسلامية، على أن مدينة الانبار مدينة قديمة، لم يستحدثها العرب المسلمون أثناء عملية تحريرها من قبل القائد العربي خالد بن الوليد سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م فالباحث عن الأصول التاريخية لهذه المدينة يواجه ثلاثة آراء أو اتجاهات حول الحقبة التاريخية لتأسيس الانبار وهي في حقيقتها تمثل ثلاثة أنواع من المصادر، كل مصدر أو مجموعة مصادر تنسب بناء المدينة إلى مؤسس وهذه المصادر هي:

أ– المجموعة المصدرية العربية والتي يمثلها بشكل خاص هشام بن محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١)، وابن الكلبي عالم بأنساب العرب وأخبارهم، وعلى الرغم من أنه لم يضع كتاباً خاصاً بالأنبار لكنه في نفس الوقت ألف كتاباً عن الحيرة وآخر عن (الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العبّاد)، ووضع كتاباً ثالثاً حول (الأقاليم) ومن المحتمل جداً أن الخبر الذي أورده المؤرخون الرواد بشأن الملك بختنصر، وأنه الذي أسس مدينة الأنبار قد ورد في واحد من هذين الكتابين عن الحيرة أو كليهما، وذلك لأن بناء مدينة الحيرة أيضاً قد نسب الى هذا العاهل العراقي، فيذكر الطبري تحت عنوان رئيس (خبر غزو بختنصر للعرب) أن القبائل العربية انتشرت في أرض العراق، ارض الحيرة والأنبار «على شاطئ الفرات وابتنوا موضع عسكرهم بعد فسموه الانبار» والمهم في هذه الرواية امران أولهما أن القبائل العربية قبل دخولها في طاعة بختنصر قد قطنت المنطقة، أي أراضي الحيرة والأنبار في العراق مع أنه لم يرد ما يؤيد أنهم قد اسسوا موضعين يحملان تسمية الانبار والحيرة قبل أن يؤسسها بختنصر. وثانيهما ما يتعلق بالعامل أو العوامل الاساسية التي دفعت هذا العاهل الى أن يؤسس هاتين المدينتين. فالتعبير الذي ورد «موضع عسكرهم» وفي مجال آخر في الرواية استخدم الطبري – نقلاً عن ابن الكلبي تعبير «فجمع من ظفر به منهم فبنى لهم حَيراً على النحف وحصنه ثم ضمهم فيه ووكل بهم حرساً وحفظه». وتكرر الموضوع مرة أخرى لكن الطبري خصّ تعبيراته السابقة بقوله «فرجع بختنصر الى بابل بما جمع من سبايا عَرَبه [يقصد بلاد العرب] فألقاهم بالأنبار فقيل أنبار العرب، وبذلك سميت الأنبار وخالطهم بعد ذلك النبط» وهذه الرواية كررها ياقوت الحموي لكنه لم يشر الى ابن الكلبي مصدراً إنما اكتفى بذكر تعبير (وقيل)، إلاّ أن المهم في رواية ياقوت أنه صرح بشكل مباشر عن هدف التأسيس بقوله، أن بختنصر حينما حارب القبائل العربية «حبس الاسراء فيها» – أي بالأنبار – ولذلك سميته بالأنبار بمعنى أن المراد بالتعبير (أنبار) أن الموضع كان للتجميع سواء كان ذلك مكان لتجميع الاسرى أو فيما بعد صار مكان لتجميع أو خزن الحبوب.

فالعمق التاريخي الذي تكشفه المصادر العربية تركز على أن الموضع عند التأسيس – معسكر أو جيش، قد أعطى لهذا الموضع تسمية الأنبار وهو في الحقيقة التفسير الشائع الى درجة كبيرة. غير أن هناك مظهراً حضرياً آخر للهدف من اتخاذ الموضع وعوامل اتخاذه وأصله التاريخي لم يقف عليه الباحثون. فالطبري خلال عرضه الرواية المتعلقة ببختنصر أشار بشكل غير مباشر الى إشارة تحمل مضامين مهمة فقال «فوثب بختنصر على من كان في بلاده من تجار العرب...» يعني أن الملك قد وثب على هؤلاء وأصلهم في موضع الأنبار لأسباب اقتصادية يوضحها الطبري بقوله «وكانوا – أي التجار العرب – يقدمون عليهم بالتجارات والبياعات ويمتازون من عندهم الحبّ والتمر والثياب وغيرها..» ثم يستمر بذلك قائلاً «فجمع من ظفر به منهم» أي من المحتمل جداً أنه جمع من ظفر به من التجار العرب. وهنا يؤيدنا في هذه الرؤية تفسير لغوي ذكره ابن منظور في لسان العرب إذ يقول أن الانبار أهراء الطعام وأن الهُرْيُ يسمى نِبراً لأن الطعام إذا صبّ في موضع

انتبر أي ارتفع وانبار الطعام اكداسه. لكن الأهم من ذلك قول ابن منظور أن الانبار «بيت التاجر الذي ينضد فيه متاعه». وبذلك فالأنبار هي البيت أو الموضع الذي احتوى التجار – تجار العرب – ممن كانوا يتاجرون بالحب والتمر وغير ذلك من الطعام.

ووفقاً لهذه الرواية العربية فإن الأنبار ظلت ماثلة بعد موت بختنصر ويحتمل أن أهميتها قد تزايدت لا سيما بعد أن تحول العرب الذين قطنوا الحيرة الى الانبار فصارت الحيرة خراباً بينما ازدهرت الانبار اجتماعياً.

٢– والمجموعة المصدرية الثانية ترجع اصل وتأسيس المدينة الى ملك الفرس سابور الأول ذي الاكتاف [وفي رواية أخرى سابور الثاني]. وذو الاكتاف هذا قد عُرف في التاريخ بمعاداته للعرب حتى أنه «اثخن بالعرب واجلاهم عن النواحي التي كانوا صاروا اليها مما قرب من نواحي فارس والبحرين واليمامة».

وهذه المصادر، بالرغم من وجود رواية الطبري بينها، هي في الأعم الأغلب فارسية الاتجاه يمثلها حمزة الاصفهاني وأبو حنيفة الدينوري، فيذكر الطبري معتمداً في روايته على «بعض أهل الاخبار» أن سابور ذي الاكتاف بعد عمله السابق تقرب من العرب واصلح امره معهم فاسكن «بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوح والأهواز... واسكن بعض من عبد القيس وطوائف من تميم البحرين» كما أنه أمر ببناء بعض المدن في السواد منها مدينة سماها بزرج سابور، وهي الأنبار. ورواية حمزة الاصفهاني (المتوفى ٣٦٠هـ/٩١٠) قد استقاها من أبي حنيفة الدينوري (المتوفى سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥) والتي من المحتمل كانت مصدراً لرواية الطبري، فحمزة الاصفهاني يشير الى أن سابور هذا قد بنى عدة مدن منها برزخ شابور وهي عكبرا في الوقت الذي قال فيه الطبري وهي الانبار. ويذكر حمزة الاصفهاني أن برزخ أو بزرخ كلمة معربة عن وزرك شافور وهي بالسريانية عُكبرا. لكن عكبرا هي ليست الانبار فهي بليدة من نواحي وجيل قرب صريفين واوانا.

وقد استعمل ياقوت الحموي تعبيراً عن واقع الأمر إذ قال «وكان أول من عمرها – يعني الانبار – سابور بن هرمز»، فالتعمير في هذا الاتجاه تعبير حضري واضح يعني أنه جددّها وأعاد بناء أو تعمير أحوالها العمرانية. وفي هذا المعنى يذكر حمزه الاصفهاني في مجال آخر قوله أن الحيرة والانبار قد بنيتا زمن بختنصر. بذلك يمكننا القول أن سابور لم يؤسس المدينة بل عمّرها وجددها وحصنها خلال مدة حكمه (٢٤١ – ٢٧٢م) لتكون مسلحة ضد تحركات الروم. فالتسمية التي وردت في هذه المصادر الفارسية جاءت على شكل: فيروز سابور أو بيروز شابور أو برزج أو برزخ شابور أو همبارا أوهم برا ham - bara (في الايرانية القديمة). وتعني تسيمة بيروز سابور (سابور المنتصر) تخليداً لانتصاره ضد الامبراطور گورديان في سنة ٢٤٣م. أما كلمة انبار فهي تعني عنبار (المخزن). ومما يلفت النظر أن تسمية الانبار قد اطلقت على أكبر مدن جوزجان في خراسان، وكانت مقر أسرة آل افرغون شتاءاً. كذلك فإن انبار من أكبر مدن مرو الروذ. وبهذا الصدد لا بد من الإشارة الى رواية جغرافي فارسي متأخر هو حمد الله المستوفي القزويني (المتوفى ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠). والمستوفي القزويني، شأنه شأن الروايات الفارسية السابقة، لا يرجع تأسيس الانبار الى الملك العربي نبوخذ نصر، كما نص على ذلك ابن الكلبي، إنما إلى الملك الفارسي لهراسب. وتفيد روايته أن نبوخذ نصر قد جرد حملة ضد اليهود في فلسطين فدحرهم واسر الكثير منهم فبنى الهراسب مدينة الانبار سجناً لهم (لذا فان اصل الكلمة بارن اوبرن Barn التي تعني السجن). ولهراسب هذا هو ابن كيوجي بن كيمنوش الذي ملك بلاد فارس بعد كيخسرو. ويذكر الطبري أن بختنصر كان اصبهبذاً على المنطقة الواقعة بين الأحواز وارض الروم غربي دجلة. ويصف المستوفي القزويني أن سور الانبار كان قوياً ويبلغ محيطه خمسمائة ذراع.

فالرواية الفارسية لا يمكن الاخذ بها لأنها تحاول أن تجعل بناء الكثير من مدن العراق من انجازات الملوك الفرس في الوقت الذي تتفق الآراء أن نبوخذ نصر هو الذي بناها.

٣– المجموعة الثالثة: وهي مصادر تؤكد أيضاً قدم وجود مدينة الانبار، وتتألف من عدد من المصادر التي يطلق عليها بالمصادر الكلاسيكية، وبشكل خاص الرومانية. ويلاحظ أنها مصادر تناولت الحملات التي جردها الاباطرة الرومان ضد الفرس، وقد مرت هذه الحملات العسكرية بموضع الانبار فذكرته. وعزى

البعض منها تعمير المدينة أو إعادة بناءها الى الامبراطور الروماني. فالمؤرخ أمينوس مرسلينوس Ammianus Marcellinus (الذي توفي حوالي سنة ٣٩١م) قد أشار في كتابه Rerum Gestarum Libre الذي يدور حول توسعات الامبراطور جوليان (أوجوليانوس) الى مدينة الانبار ضمن تطرقه الى الحصون التي مرت بها حملة جوليان العسكرية سنة ٣٦٣م. وكان امينيوس مرافقاً للحملة وشهد حصار المدينة. وقد وصف الانبار بأنها قلعة حصينة. ولما كان الرومان قد واجهوا صعوبة في احتلالها فقد فرضوا عليها الحصار مدة ثم دخلوها ونهبوا البيوت وهدموا معالمها حتى أنها، كما يقول، تحولت ركاماً وتلالاً من الرماد. ووفقاً لهذه الرواية فإن الامبراطور أعاد بناء الانبار مستخدماً بدلاً من الانبار كلمة (هيليو بوليس) ولكن امينيوس أشار الى الانبار قبل أن يهدمها الامبراطور تحت اسم بير (اوبار) لسابوراس [وهي صيغة قريبة ببيروز سابور]. وقال امينيوس مرسلينوس أن الانبار كانت مدينة كبيرة ولها قلعة حصينة، وكانت مدينة مكتظة بالسكان. والواقع أن تفصيلات هذه الحملة العسكرية قد وردت عند مورخين آخرين هم ماغنوس الكارهيني Magnus Carrhenus [وهو أيضاً من مؤرخي القرن الرابع الميلادي] في كتابه الذي لم يبق منه إلاّ مقتطفات حققها الاستاذ كارل موللر Carl Muller في كتابه (مقتطفات من التاريخ الروماني Frgmenta historicorum graecorum والمؤرخ يورانيوس Uranius (وهو أيضاً من مؤرخي القرن الرابع الميلادي) في كتابه (مقتطفات Fragmenta) حققه كارل موللر أيضاً. والمؤرخ زوسيموس Zosimus (من سنة ٤٩١ – ٥١٨م) الذي كتب تاريخاً اطلق عليه اسم التاريخ الجديد Historia Nava حققه وترجمته مندلسوهو. Menddelssohu. وكان زوسيموس معاصراً للامبراطور الروماني زينو. فإن هؤلاء المؤرخين قد ذكروا موضع الانبار وفقاً للتسمية التي شهرت بها زمن الساسانيين أي بيروز سابور، لذلك يمكننا القول بأن اسم المدينة عند الرومان اتخذ لفظاً رومانياً لكنه ينسب الى سابور الفارسي فسميت عندهم بير ليسابوراس أو بير سابورا أو Piri Saboora أو على الشكل اللاتيني Bnpax Bwpx ومما يجدر القول هنا أن هناك عالماً آخر هو ايزيدور الخراكي (نسبة الى خراكسي Charax التي من المحتمل أن تكون مدينة المحمرة) الذي يرجع الى القرن السادس الميلادي في كتابه الجغرافي Mansiones Parthica الذي حققه كارل موللر في كتابه العام (الجغرافية) قد أشار الى المدينة كانت مخزناً للمواد الغذائية تقوم بوظيفة تموين الحاميات العسكرية المنبثة هناك.

وأخيراً فإن المؤلف نيومان Newman قد ذكر الانبار في كتابه عن اليهود في بابل Jews in Babylonia على أنها صارت مركزاً علمياً في القرن السادس الميلادي الى جوار المدينتين المشهورتين سوراً وبومبيدثا أو فومبيديثه الواقعة الى جوار مدينة الانبار.

وقبل أن نغادر موضوع العمق التاريخي – الحضري لمدينة الانبار واختلاف تسمياتها عبر التاريخ لا بد من الاشارة الى موضوعين مهمين يمكن أن يكونا مداراً للبحث والحوار أثار أحدهما البروفسور ماريك Marique والبروفسور هونجمان Honigmann في بحثهما الذي يدور حول حكم سابور وقد أيد رأيهما البروفسور ستريك Streck حول مطابقة موضع مسكن الذي ورد عند الجغرافيين والمؤرخين المسلمين لموضع الانبار في الفترة التي سبقت زمن الساسانيين. علماً بأننا إذا ما رجعنا الى المصادر الجغرافية العربية نجد اشارات تدعم فكرة مناقشة رأي الاساتذة، فالمصادر الجغرافية تفرق بين الموضعين وكأنهما موضعان مختلفان لا متطابقان فهناك مثلاً ذكر لطوج فيروز سابور وطوج مسكن الى جانب الطاسيج الأخرى، اشار اليها كل من ابن خرداذبه وقدامة بن جعفر كما سيأتي ذكره. كما أن الروايات التي أشار فيها الطبري الى مسكن لا توحي أنها الانبار إذ قال في أحدها بشأن خروج الحجاج الثقفي الى مسكن سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م أنها تقع على نهر دجيل، وفي رواية أخرى أنها تقع في أرض ابرقباذ الواقعة بين دجلة والسيب والكرخ. ووفقاً لذلك ذكر ياقوت الحموي أن مسكن موضع قريب في اوانا على نهر دجيل تقع عند دير الجاثليق. فهناك اذن موضعان الانبار ومسكن غير متطابقين جغرافياً.

أما الموضوع الآخر الذي ينبغي طرحه ما عرضه الاستاذ هليبرخت Hilprecht في كتابه (مكتشفات في ارض التوراة) إذ يقول أن مدينة الانبار مدينة بابلية، وأن هناك خرائب ربما تدفع الى التنقيب في منطقتها وقد وجد هليبرخت بقايا منبع نهر قديم وآثار

متناثرة في موضع قديم يقع شمال السهل في تل أسود الذي يرجع تاريخه الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وهي يمكن مشاهدتها في الوقت الحاضر، وهو يلمح أن هذه الآثار ربما لها علاقة بموضع الانبار قديماً.

مما تقدم ذكره فإن مدينة الانبار مدينة عربية قديمة تأسست بفعل عوامل اقتصادية سياسية استراتيجية حتى إذا ما أخذنا الرواية التي تفيد بأن الملك نبوخذ نصر قد اتخذها سجناً لأسرى أفراد القبائل العربية على أنها صحيحة تماماً. أنها اتخذت كذلك في هذا الموضع لما له صلة قوية بمواجهتها البادية الغربية التي كانت منذ القدم موطناً لسكنى القبائل البدوية المترحلة المتنقلة على طول الخط - الطريق - التجاري - العسكري القديم الذي يربط العراق بالجزيرة الفراتية وبلاد الشام.

وقد شهدت مدينة الانبار من خلال التطورات التي طرأت على تسميتها من أنبار أو ربما هامبارا Hambara أو امبار الى بيروز سابور أو فيروزج (برزخ) شابور الى الانبار العربية الاسلامية عدة مراحل في تطورها الحضري. فهي قد ابتدأت أولاً لكونها موضعاً لاحلال التجار العرب أو القبائل العربية التي حاربها نبوخذ نصر ثم تحولت الى حاضرة مهمة عندما استوطن أو انتقل اليها العرب والقبائل التي كانت هي الأخرى قد احلها نبوخذ نصر في الحيرة - ثم تطورت الى قلعة حصينة زمن الساسانيين بما تطلق عليه المصادر العربية المسلحة ضمن مجموعة المسالح المنبثة في بادية الكوفة وبادية البصرة والبادية الغربية، وهي بمثابة مراصد وقواعد ترصد التحركات الرومانية. وهنا بالإمكان القول أن أهميتها من الجانب العسكري قد تزايدت كثيراً فاعتماداً على مشاهدات المؤرخ أميانوس مارسلينوس والمؤرخ زوسيموس بأن المدينة كانت كبيرة وكثيفة السكان ومحصنة تحصيناً متيناً، وعلى قلعتها برج في احدى زواياها. ويبدو أن هذه القلعة (كاي قهندز في المدن المشرقية) كانت قائمة في وسط المدينة كذلك كانت قلعة حلب وقلعة اربل ومدن القلاع الأخرى. ويقول أميانوس أنها كانت شاهقة ومنحدرة من جانبها الشمالي انحداراً حاداً باتجاه نهر الفرات، وكان بناؤها بالطابوق المفخور المثبت بالقار. ويصفها زوسيموس بأنها كانت بلدة محاطة بسورين وتحتوي على قلعة مستديرة الشكل. وزيادة في تحصينها فإنه يصعب الوصول اليها إلاّ من طريق واحد شديد الانحدار يصعب صعوده، ويوجد لها باب واحد يقود اليه ممر متعرج. ويحيط بجانبها الشرقي خندق عميق معزز باطراف عاليه شديدة الانحدار وابراج متينة وفي جانبها الشمالي هناك نهر عريض متفرع من نهر الفرات. وأما القسم الجنوبي فكان مبنياً بالآجر المثبت بالقار بينما كان القسم العلوي مبنياً بالآجر المجفف بالشمس والمثبت بالجص.

أما المرحلة الثالثة التي شهدتها المدينة التي من المحتمل جداً اعقبت عمليات الهدم والتخريب الواسعة التي قام بها جيش الامبراطور جوليان فهي التي تمثلت خلال العصر الذي سبق الاسلام والعصر الاسلامي وبشكل خاص عندما اتخذت حاضرة للخليفة العباسي أبي العباس.

واعتماداً على ما تم ذكره من معلومات تاريخية قديمة تتعلق بالتطورات الحضرية لموضع الانبار يظهر لنا بأن الموضع الذي تأسست فيه مدينة الانبار قد تميز بجملة عناصر ومستلزمات حضرية نناقشها وفقاً للآتي:

١ - حسبما هو معروف في تأسيس المدن العربية فإن المسلمين قد اتخذوا خلال حركات التحرير عدة مدن وأمصار ذات بُعد عسكري وكان الغرض من اتخاذها تموين الجيوش العربية المتوجهة شرقاً صوب العراق وبلاد فارس وشمالاً وغرباً صوب بلاد الشام ومصر وافريقيا.

هنا لا بد من القول أن اتخاذ العرب هذه الامصار لم يكن قراراً عشوائياً أنما كانوا يضعون جملة مستلزمات لا بد من توفرها فالأمصار التي يمكن أن تشمل البصرة والكوفة والموصل في العراق والفسطاط في مصر والقيروان في شمال أفريقيا كانت تتصف تقريباً بأنها تقع على طرق البر وقريبة من الريف. والأهم من ذلك أن تكون قريبة من المياه (مناقع المياه). أما من الجانب العسكري فإن الموضع ينبغي أن لا يفصله عن مركز القيادة نهراً أو بحراً أو جبلاً بمعنى أي عائق طبيعي. علاوة على ذلك فإن المقاتلين العرب، بطلب من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) أحجموا عن اتخاذ المدن القديمة، امصاراً لاقامتهم فلم يتخذوا الابلة الواقعة على شط العرب بل ابتعدوا غرباً نحو البادية، ولم يتخذوا الحيرة المدينة

القديمة ولا المدائن ذات الموقع المهم انما ابتعدوا غرباً نحو الكوفة ولم يتخذوا الاسكندرية القديمة المأهولة بل عادوا الى الفسطاط، كذلك لم يتخذوا قرطاج في تونس بل ابتعدوا نحو القيروان.

وفي حالة الانبار فإن القبائل العربية التي قطنتها والتي كانت تقطن منطقتها منذ زمن قديم قد اختارت الموضع لأنه حسبما يشير الطبري يقع «على شاطئ الفرات» وبذلك ابتنى العرب في هذا الموضع معسكرهم. فالمدينة اساساً اتخذت، كما هو الحال في الحيرة، لاسباب عسكرية، غير أن العرب لم يغفلوا امرين مهمين أولهما: توفر المياه، وثانيهما أن هذا المنزل (الموضع) كان السواد. وكان سكان الموضع منذ التأسيس قبائل عربية من بني اسماعيل وبني معد بن عدنان بعد ذلك قدمت المدينة قبائل يمانية من لخم فوفد عليها مالك بن فهم وأخوه عمرو وغطفان بن عمر وزهر بن الحارث «فيمن تنخ عليهم من عشائرهم وحلفائهم» ولهذا نزل كثير من تنوخ الانبار وقد اتخذوا منازلهم في بداية الأمر من مظال واخبية وقباب ولم يتخذوا بيوت المدر.

ان أهمية الدافع العسكري في اتخاذ الانبار في هذا الموضع الجغرافي القريب من النهر والمشرف على البادية الغربية والحد الشمالي الغربي من السواد قد يؤيد فكرة أن أصل المدينة مدينة – حصن عند التأسيس وأن هذا العامل قد لعب الدور الأساسي في ظهورها لا سيما بعد أن صارت القلعة تمثل الوحدة الطوبوغرافية المركزية للمدينة. ويحتمل جداً أن أهالي الأنبار العرب الذين سكنوا المدر وتركوا حالة الترحال والتنقل كانوا – كما هو الحال عند أكثرية القاطنين حول القلعة يستثمرون وجود القلعة للاحتماء حينما يجابهون أي خطر عسكري. وهو بالفعل ما قاموا به خلال المنازعات بين الروم والساسانيين، فكانت المدينة وغيرها من الحصون الواقعة على نهر الفرات عرضة للهجمات، وأن هجوم الامبراطور جوليان مثلاً قد واجه متاعب خلال حصاره المدينة لمتانة حصنها الأمر الذي شجع الأهالي على عدم الاستسلام وعلى مواصلة الصمود والدفاع عن القلعة. كذلك لجأ الاهالي الى القلعة للاحتماء عندما توجه القائد خالد بن الوليد سنة ١٢ هجرية.

٢– ومما يعزز الفكرة السابقة في أهمية العامل العسكري ووجود القلعة في جذب السكان من القبائل العربية المختلفة وفرة الاحوال الاقتصادية المتمثلة بالانتاج الذاتي للمنطقة ولا أدل على ذلك من التفسير المتفق عليه لكلمة (امبار أو أنبار) في المعاجم اللغوية. فانبار والجمع انابير، وردت عند البيروني على شكل أنبير تعني أنابير الطعام والرواية تبين هذا الدور لخزن الطعام لأن كسرى فارس كان يوزع ارزاق هذه ما يُخزن في الانبار، فكان الطعام إذا صُب في موضعه صار مرتفعاً أي انتبر. والانبار أهراء الطعام واحدها نِبْرٌ، وانبار الطعام اكداسه. فاتخاذ الانبار موضعاً لسكنى التجار العرب، تجار الحبوب، واتخاذها مستودعاً للطعام يعني بوضوح توفر المواد الغذائية في المنطقة فيجمع فيها. وهي حالة تصورها المصادر الجغرافية العربية بأن هناك طوجاً يحمل اسمها هو طوج فيروز سابور وأنها تقع في الطرف الشمالي الغربي للسواد في سهل غني بالزراعة وبالقرب من أول نهر متفرع من الفرات ويصب في دجلة وهو نهر عيسى. واعتماداً على ما أورده ابن سرابيون أن نهر عيسى كان يروي منطقة فيروز سابور وتقع على ضفتيه مري ومزارع كثيرة. وهناك طوجان مشهوران هما طوج فيروز سابور وطوج مسكن. كذلك يشير ابن الفقيه (الهمذاني في (البلدان) ان طاسيج ارض ميسان ايام سابورا اربعة هي: طوج فيروز سابور (الانبار) وطوج مسكن وطوج قطربل وطوج بادوريا وهو وصف يعكس الاهمية الزراعية لمنطقة الانبار. ويضيف ابن حوقل (في منتصف القرن الرابع الهجري) بأن الانبار مدينة كثيرة النخل والزروع والثمار. وفي نفس الاتجاه وصفت بعض المراكز الحضرية الواقعة في هذه المنطقة أمثال هيت الواقعة فوق الانبار وكانت ذات نخل كثير وخيرات واسعة. واعتماداً على البلاذري الذي استقى معلوماته، هنا من مشايخ من أهل الانبار أن جرير بن عبدالله البجلي القائد العربي زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد صالح أهل الانبار على (طوجهم على اربعمائة الف درهم والف عباءة قطوانية في كل سنة..» ويقال أنه «صالحهم على ثمانين ألفاً». فورد تعبير صالحهم على طوجهم يفهم منها على النواحي الزراعية المحيطة بالمدينة. ولا شك أن مبلغاً قدره اربعمائة الف درهم هو مبلغ كبير يدل دلالة واضحة على غنى انتاج ذلك الطوج.

٣– كذلك ينبغي أن لا نغفل موقع المدينة من نهر الفرات، إذ

وصف الموضع الذي اتخذت فيه الانبار بأنه يقع على شاطئ الفرات، وقد هيأ لها هذا الموقع مستلزمات حضرية تجارية مهمة. وفوق هذا فإن رواية الطبري المتعلقة بتأسيس نبوخذ نصر المدينة حينما جمع من كان في البلاد من تجار العرب واسكنهم الانبار تبين بجلاء اهمية المدينة التجارية. وهذا ابن حوقل يشير بصراحة الى الدور الذي كان يشكله نهر عيسى في التجارة الداخلية بين الفرات ودجلة وبين الانبار والمراكز الحضرية الأخرى في الجزيرة الفراتية وبين بغداد فيقول «فأما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات الى أن يقع في دجلة»

ويحدثنا التاريخ أنه كان بالقرب من الانبار يعقد سوقان تجاريان مشهوران، فالأول منهما كما يقول البلاذري والطبري هو سوق الخنافس فيروي أن المثنى بن الحارثة الشيباني حينما نزل في قرية أُليس وهي من قرى الانبار اشار عليه رجل من الانبار بوجود سوق غنية قريبة حيث «يتوافى اليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاعة يحفز لهم والخنافس، كما يذكر البلاذري كان يعقد في موضع فوق الانبار ويصف ياقوت الحموي، الموضع بأنه من ارض العرب قرب الانبار من ناحية البردان وتقام في الخنافس سوق للعرب. أما السوق الأخرى فهي سوق بغداد، وهنا يذكر البلاذري والخطيب البغدادي أن الموضع كان مجمعاً للتجار في كل شهر وقيل في كل سنة إذ تقام فيه سوق عظيمة اعتاد تجار الصين وغيرهم من تجار المشرق على قصدها جالبين معهم تجارات الصين المشهورة. وقد حدّد البلاذري موضع هذه السوق بقوله: أنها سوق عتيقة كانت تعقد عند قرن الصراة، وحسبما اورده الطبري انها كانت تبعد عن الانبار مسافة اربعة أو خمسة فراسخ [حوالي اثني عشر الى خمسة عشر ميلاً].

ولزيادة توضيح هذا العنصر الحضري المهم في ازدهار الانبار وانتعاشها، الطريق التجاري الذي اتفق على ذكره جغرافيو المسالك. وأنه كان يربط بغداد بالرقة، وهو طريق استثمر في مجالات عديدة كالبريد ومرور قوافل التجار وربما الحملات العسكرية. ويكاد يكون من الواضح أن الطريق الذي كان يمر بالأنبار خلال العصر الاسلامي هو ذاته الذي اتبعه الرومان في حملاتهم العسكرية من الرقة صوب مناطق نفوذ الساسانيين. وقد حقق الاستاذ موسيل Musil بشكل يستحق الثناء حملة الامبراطور جوليان من سوريا الى العر اق مروراً بالأنبار. والمهم أن القائد العربي خالد بن الوليد وقبله المثنى الشيباني قد اتبعا الطريق من بادية البصرة اتجاه عين التمر. واتخذ خالد بن الوليد الطريق من الحيرة لتحرير الانبار. الأمر الذي يعكس وجود طريق عسكري وربما تجاري يربط الحيرة بالأنبار، أما الطريق الآخر الذي نشط بعد تأسيس بغداد فكان يمر بالمراكز الآتية: بغداد – السيلحين – الانبار – الرب – هبت – الناؤوسه – عانه – الوسه – الفحيمه – الحديثة النهية.

ولم تقتصر اهمية الانبار الاقتصاديةبكونها تقع على الطريق التجاري الذي يربط العراق بالرقة لكنها يبدو كانت مركزاً معروفاً لصناعة الانسجة وبشكل خاص نسج العباءة المعروفة بالقطوانية. فما تصالح عليه خالد بن الوليد مع أهالي الانبار أن يدفعوا مبلغاً من المال والفى عباءة قطوانية في كل سنة. وهي اشارة واضحة الى الانتاج الواسع لهذا النسيج.

٤– ارتباط الانبار بمركز حضري قديم وهو الحيرة وبمراكز حضرية أخرى إذ بناءاً على ما تقدم ذكره فإن الملك العراقي قد ابتنى كل من الحيرة والانبار في بداية الأمر لاحلال القبائل العربية، وتقول رواية ابن الكلبي أن نبوخذ نصر عندما انتهى من حملته العسكرية ترك تلك القبائل التي نزلت تلك الحير فابتنوا لانفسهم موضعاً سموه الحيرة. فلما مات هذا الملك انضم سكان الحيرة الى اخوانهم من القبائل التي قطنت الانبار فأدى هذا الى خراب الحيرة وانتعاش الانبار. وبعد أن اتخذ عرب تهامة وتنوخ الحيرة قبل الاسلام استعادة هذه المدينة فعاليتها الاجتماعية والسياسية فأعيدت العلاقة بين الانبار والحيرة حضرياً، إذ تتحدث الروايات أن المنطقة المحصورة بين الحيرة والانبار صارت منزلاً مأهولاً لقبائل مذحج وحمير وطيء وكلب وتميم حيث يسكنون المظال وخيم الشعر ولا ينزلون بيوت المدر، ولذلك اطلق على هؤلاء العرب، عرب الضاحية تمييزاً عن العرب الذين استقروا في الانبار والحيرة. ويعدّ جذيمة الابرش من أشهر ملوك العرب سطوة ونفوذاً فكانت مملكته تشمل الحيرة والانبار وبقة وهيت وعين التمر واطراف البر الى الغمير والقطقطانة وخفية. والمعروف أن سابور ذي الاكتاف

عندما أعاد بناء وتعمير الأنبار وغيرها من المراكز الحضرية من بينها الحيرة وذلك لتكون مراصد أو مسالح تشرف على البادية الغربية لرصد تحركات القبائل العربية من جهة وجيش الروم من جهة أخرى واسكن فيها الجنود ليتولوا أمر حراستها. وقد ظلت هذه المسالح ماثلة اثناء فعاليات المثنى العسكرية ضد الفرس وحينما تقدم خالد بن الوليد باتجاه الحيرة، فيحدثنا البلاذري بعد أن فتح خالد الحيرة وجه احد قواده وهو بشير بن سعد نحو بانقيا وهي مسلحة لخيالة الاعاجم ثم فتح أليس، وتوجه من بانقيا الى الفلاليج وعاد الى الحيرة بعدها توجه من الحيرة الى الانبار وحاصرها. ويذكر الطبري أن هناك عسكراً للفرس في الانبار وآخر في الفراض.

ولم يكن ارتباط الحيرة بالأنبار مقصوراً على الجانب العسكري والاجتماعي باعتبارها مسلحتين وتقطنهما قبائل عربية في حقبة زمنية واحدة إنما كان ارتباطهما تجارياً أيضاً فهناك طريق بري استثمر للتجارة يربط بينهما وكان نشطاً في الحقبة التاريخية التي سبقت الاسلام. وكان للمكيين علاقات تجارية مع العراق وبلاد الشام عبر رحلتي الشتاء والصيف وكان لبعض الاسر المكية علاقات تجارية مع الانبار والحيرة في العراق وبصرى وغزة واذرعان في بلاد الشام. فارتباط الحيرة والانبار تجارياً يعكس الرأي بأنهما كانا المركزين الحضريين الاساسيين في العراق.

وبالإضافة الى ذلك فإن منطقة الانبار كانت تشتمل على مراكز حضرية قديمة أخرى مثل دمما القرية التي تقع عند الفلوجة وقيل أنها الفلوجة وهي أرض زراعية، والحديثة أو حديثة الفرات التي تبعد فراسخ عن الانبار وكان بها قلعة حصينة في وسط الفرات، وهي مدينة مستحدثة بنيت أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) والزابوقة وهي قرية تقع قرب الفلوجة ضمن سواد الكوفة، وعانه وهي بلد مشرف على الفرات تقع بالقرب من الحديثة وهيت وهي بلدة قديمة تقع على الفرات وتعدّ من نواحي بغداد وتقع فوق الانبار كانت مأهوله بالسكان ذات نخل كثير وخيرات واسعة وهي مجاورة للبرية. وعانه بلدة مشرفة على نهر الفرات بالقرب من حديثة الفرات وكانت هيت وعانه مضافة الى طوج الانبار لكن سابور حفر خندقاً فخرجت هيت وعانه عن الطوج.

٥- وهناك ميزة حضرية اتسمت بها الانبار منذ القديم وظلت تلازمها خلال العصر الاسلامي ألا وهي نشاط أهاليها الفكري والعلمي. وما الرواية التاريخية بصدد دخول القائد خالد بن الوليد الانبار سنة ١٢ هجرية وما شاهده في المدينة إلاّ دليلاً على المستوى الفكري لأهاليها إذ يقول الطبري «ولما اطمأن خالد بالأنبار والمسلمون، وآمن أهل الانبار وظهروا، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا قوم من العرب نزلنا الى قوم من العرب قبلنا، فقال: ممن تعلمتم الكتاب؟ فقالوا: تعلمنا الخط من اياد» وانشدوه شعراً جاء فيه:

قومي اياد لو أنهم أممٌ	أولو أقاموا فتهزلُ النَّعَمُ
قوم لهم باحة العراق إذا	ساروا جميعاً والخط والقلم

كانت الانبار مركزاً للاشعاع الفكري بنقل تجربتها في تعليم الكتابة حتى وصل تأثير أهل الانبار الى مكة فقيل ان حرب بن امية هو أول من كتب بالعربية وقد تعلمها من أهل الحيرة والانبار. وكان قلم أهل الانبار متميزاً عن غيره وعُرف بالمشق وذكر ابن قتيبة الدينوري أن أول من خط رجل يدعى مرارة بن مرة وكان من أهل الانبار ومن الانبار انتشرت الكتابة. ومرارة هذا يرجع الى قبيلة طيء التي نزلت الانبار. وورد أيضاً أن ثلاثة أشخاص من قبيلة بولان من طيء قد وضعوا الحروف العربية، لذلك فإن ما ذكر في رواية الطبري في فتح الانبار تعكس الفكرة بأن هناك مدارس بالمدينة تعمل على تعليم الاطفال الكتابة على خطهم المشق المشهور. وهو خط يبدو أنه كان رديئاً إذ ذمه الخليفة عمر (رض) فقال «شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة» وان ابن سيرين قد كره كتابة المصاحف بخط المشق.

وظلت الانبار تتمتع بهذه السمة الحضارية حتى العصر الاسلامي فيذكر الطبري في حوادث سنة ٢٣هـ/ ٦٤٣ بأنه قد أشير على الخليفة عمر (رض) بشأن الديوان «أن ها هنا رجلاً من أهل الانبار له بعد بالديوان لو اتخذته كاتباً» كذلك يذكر ابن الفقيه الهمذاني رواية تتعلق بأيام الخليفة المعتز بالله حول مجلس حضره جماعة من قراء البصرة فيقول الراوي «إذ طلع علينا فقيه من كتّاب الانبار ومعهم أبو حمران الشاعر...»

والواقع أن ابن النديم يشير الى بعض مثقفي الانبار ممن شهروا

بالكتابة أمثال كاتب العباس بن محمد بن علي وكان بليغاً مترسلاً وله رسائل مجموعة وهلال آل أبي النجم وكان كاتباً وشاعراً، وأبو العباس عبدالله الناشئ الكبير ويعرف بشرشير، وكان حسن الأدب متكلماً شاعراً مترسلاً وغيرهم.

من هذا كله فليس غريباً أن تكون هذه المدينة وموضعها محط أنظار الخليفة العباسي الأول لتصبح حاضرة الخلافة العباسية، والواقع أن اختيار الخليفة العباسي الانبار كان مدفوعاً بما يتمتع به الموضع من مميزات جغرافية وبعدها عن الكوفة ولوقوعها على نهر الفرات. وهي مميزات تمثل مرحلة تطورية في المفهوم الحضري عند العباسيين عما كان عليه الحال عند العرب أثناء حركات التحرير العربية فالرواية التي أوردها الطبري في حوادث سنة ١٧ هجرية/ ٦٣٨ من أن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد كتب الى القائد سعد بن أبي وقاص قائلاً له «انبئني ما الذي تميز الوان العرب ولحومهم» فأجابه «ان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة». فأمره حينئذ أن يبحث عن مكان آخر لسكناهم فبعث سعد حذيفة وسلمان فخرج سلمان الى الانبار وسار في غربي الفرات ولكنه لم ير موضع الانبار أو أي موضع غربي الفرات ما يتلاءم والمستلزمات العربية وابعاد الخليفة الحضرية. فإن عدم اختيار العرب الانبار بدلاً من المدائن في حين فضلوا موضع الكوفة الواقعة بالقرب من الحيرة يرجع الى أن موضع الانبار لم يوافق الشروط العسكرية والصحية التي فرضها العرب المقاتلون في اختيار الامصار. غير أن المجتمع العربي قد خضع لتطورات عديدة ابان العصر العباسي جعل مفهوم الحاضرة اوسع واكثر تحرراً من كونها تمثل مصراً عسكرياً يقع على طرف البادية. فكانت الانبار هي التي فضلها أبو العباس لتكون مقراً لحكمه وبقيت كذلك الى أن قرر الخليفة المنصور التحول عنها ونقل الدواوين والمؤسسات المركزية عنها.

وعلى الرغم من المعلومات الشحيحة التي تقدمها لنا المصادر العربية الاسلامية، جغرافية أم تاريخية، عن الواقع الحضري للأنبار، فإن المدينة لم تتمتع باستقلالية إدارية قبل أن يتخذها أبو العباس حاضرة للخلافة العباسية بمعنى أنها لم تكن آنذاك تقوم بوظيفة المدينة – القصبة التي كانت حسب المفهوم الحضري الاسلامي لا بد أن تكون بلد جامع، وأن تقام فيه الحدود، وأن يحله أميراً أو السلطان الأعظم، وأن تجمع اليه الدواوين، وأن تقلد منه الأعمال، وأن تضاف اليه مدن الاقليم.

والواقع أن المدينة كانت، مع الحيرة أثناء حركات التحرير العربية تعدّ وكأنها السواد – سواد العراق، ولم ترد إشارة الى أنها والحيرة مرتبطة ادارياً بالمراكز الحضرية في الجزيرة الفراتية. وقد حافظت على أوضاعها السابقة دون تغيرات حضرية كبيرة خلال عصر الخلافة الراشدة. فكانت امصار البصرة والكوفة والموصل هي الأمصار الرئيسة التي توجهت منها الجيوش الاسلامية نحو بلاد فارس. وقد أورد البلاذري أن دهاقين الانبار سألوا سعد بن أبي وقاص أن يحفر لهم نهراً كانوا في السابق قد سألوا ملك الفرس لكنه لم يلبّ طلبهم في حفره. وأن سعداً كتب الى سعد بن عمرو بن حرام في الانبار أن ينفذ المشروع. فجمع هذا الرجال وحفروا النهر حتى انتهوا به الى جبل شقّ عليهم المضي في الحفر فيه فتركوه فلما تولى الحجاج الثقفي ولاية العراق حشد العمال من كل ناحية قائلاً لقوامه «انظروا الى قيمة ما يأكل رجل من الحفارين في اليوم فإن كان وزنه مثل وزن ما يقلع فلا تمتنعوا من الحفر فانفقوا عليه حتى استتحوه، فسب ذلك الجبل الى الحجاج، بينما نسب النهر الى سعد بن عمرو بن حرام. من هذه الرواية يمكن القول أن:–

أ– الانبار كانت حضرياً وإدارياً مرتبطة بالكوفة التي حصرها سعد بن أبي وقاص واتخذها قاعدة لانطلاق الجيوش العربية. وأن سعداً كان يعين العمال عليها فكان سعد بن عمرو بن حرام عاملاً على الانبار من قبله.

ب– وأن الصفة الزراعية التي اتسمت بها منطقة طوجها هي السمة الاقتصادية الاساسية.

ومحتمل أن هذا الوضع الإداري قد بقي على ما هو عليه إذ أن اتخاذ أبي العباس الانبار قاعدة لدولته قد انبثق بعد أن كان أولاً مقيماً في الكوفة، وهو أمر قد يؤكد لنا: استمرارية ارتباط الانبار إدارياً بمنطقة الكوفة. غير أن انتقاله اليها سنة ١٣٤هـ/ ٧٥١م حسب رواية الواقدي قد أضفى عليها أهمية جديدة إذ اتبع ذلك من انتقال للمؤسسات الإدارية آنذاك مثل بيت المال (وقد ورد

النص عند الطبري بيوت المال) والدواوين الخزائن وتظهر روايات أخرى أن هناك صاحب شرطة في الانبار. وقد تحولت الانبار عند إقامة الخليفة (السلطان الأعظم) مدينة قصبة تتقلد منها الأعمال وتجمع اليها الدواوين وتقام فيها صلاة الجمعة لحلول السلطان الأعظم فيها وبقيت تقوم بهذه الوظيفة من سنة ١٣٤هـ حتى تقريباً سنة ١٣٧هـ، لكنها أخذت تفقد مظاهر المدينة - القصبة بعد انتقال المنصور منها الى هاشمية الكوفة. ومن المحتمل أنها عادت مرة أخرى لتكون إدارياً بعد الكوفة. غير أن الجغرافيين خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين يختلفون في وضعها الإداري - الحضري، فيجعلها ابن حوقل ضمن مدن ديار مصر أي الجزيرة الفراتية ويصفها بأنها (بلد السفاح وكانت داره التي يسكنها عامرة آهلة كثيرة النخل والزروع الجيدة والثمار والأسواق الحسنة على شرقي الفرات فتغيرت وخربت). أما صاحب كتاب حدود العالم الفه في سنة ٣٧٢هـ الذي ربما أخذ معلوماته عن البلخي الذي يرجع تاريخ تأليفه الكتاب القرن الثالث الهجري فإنه جعل الانبار ضمن مدن العراق وقال أنها مدينة بهيجة مزدهرة ذات رخاء ومأهوله بالناس وهي كرسي أمير المؤمنين أبو العباس. ان ملاحظة ابن حوقل السابقة بأن الأنبار تقع شرق الفرات لا يمكن تفسيرها إلاّ أنه ربما يقصد بهذا النهر نهر عيسى أو أن الفرات قد غير مجراه المهم. أما المقدسي فأن جعل الانبار من بين المدن التابعة لمدينة سامراء، فقال عنها بأنها مدينة كبيرة «أول ما نزل المنصور بها وثم داره وقد خفت» وهي اشارة مضطربة وغامضة لا يمكن تعليل سبب ذلك لا سيما وأن المقدسي يعدّ من الجغرافيين العرب الدقيقين في أوصافهم، ومن المحتمل أن يكون وصفه ناقصاً فالمنصور لم يكن أول من نزل الأنبار إنما السفاح، وهناك موضوع آخر له أهميته يتعلق بالواقع الحضري والإداري لمدينة سامراء خلال عصره (القرن الرابع الهجري) فإن سامراء، وكما أشار المقدسي ذاته، لم تعد مدينة عامرة وقال عنها نصاً «والآن قد خربت يسير الرجل الميلين والثلاثة لا يرى عمارة..» ولعل الصواب أن الانبار منذ القرن الرابع الهجري فصاعداً قد أصبحت ضمن منطقة بغداد إدارياً لا سيما بعد أن حلّ الخراب في سامراء. فاعتماداً على بعض روايات ابن الغوطي في الكتاب المنسوب اليه (الحوادث الجامعة) أن الانبار كانت مع هيت ونهر الملك ونهر عيسى بعهدة ديوان واحد يترأسه الصدر محمد بن زعرور في الربع الأول من القرن السابع الهجري وظل الأمر كذلك، الى سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧ عندما أفردت عن بقية المراكز المارة الذكر وأعيد أمرها الى صاحب الديوان ابن المخرمي (فخر الدين أبي سعيد المبارك) بعد عزل منصور بن عباس عن صدريتها، فكانت الإدارة العباسية هي المسؤولة عن تعيين صدرها [الصدر يمثل الوالي أو المحافظ في الوقت الراهن. وتأتي أهميته الإدارية بالدرجة الثالثة بعد الخليفة والوزير]. ومما يجدر ذكره أن عدداً من المراكز التي كانت تقع بالقرب من الانبار صارت في الفترات المتأخرة ضمن منطقة نهر الملك إدارياً التابع الى ريف بغداد من بينها دمما التي تحولت الى قرية كبيرة من أعمال بغداد. والسيلحين أو الصيلحين الواقعة على الطريق الى الأنبار. والفلوجة الفراتية تحولت أيضاً الى قرية كبيرة. والزابوقة التي صارت من قرى بغداد، وغير ذلك.

الهوامش

١- ابن النديم: الفهرست [تحقيق رضا - تجدد] ص١٠٨ - ١٠٩.

٢- الطبري: تاريخ الرسل والملوك [ط/ دار المعارف] ج١ ص ٥٦٠.

٣- ن.م.ج. ج١ ص ٥٥٨، ٥٦٠.

٤- ياقوت الحموي: معجم البلدان [بيروت] ج١ ص٢٥٧.

٥- الطبري: تاريخ ج١ ص٥٥٨.

٦- ن.م.

٧- انظر ابن منظور: لسان العرب (مادة نبر).

٨- الطبري: تاريخ، ج١ ص٦٠٩.

٩- ن.م.ج٢ ص٦٠.

١٠- ن.م.ج٢ ص٥٧.

١١- حمزه بن الحسن الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الارض والانبياء [بيروت] ص٤٨.

حنيفة الدينوري: الاخبار الطوال [تحقيق عبد المنعم عامر/ ط القاهرة ١٩٦٠] ص٤٩.

١٢- ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص١٤٢.

١٣- ن.م ج١ ص٢٥٧.

١٤- حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ص٨٦.

١٥- انظر مقالة (Al-Anbar) في دائرة المعارف الاسلامية (ط/ جديدة) بقلم Streck، د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج٣ ص١٧٤.

١٦- انظر ابن حوقل: صورة الارض ص٣٧٠، المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص٢٩٨.

انظر المستوفي القزويني: نزهت القلوب [ترجمه الى الانجليزيه لي سترنج] p.44.

17- Musil: The Middle Euphrates (New York 1927),P.174, 295.

وقد ترجمه الدكتور صدقي حمدي الى العربية بعنوان (الفرات الأوسط [بغداد ١٩٩٠] ص٣٥٣، كذلك انظر Streck في مقاله (Al-Anbar) د. جواد علي: المفصل ج٣ ص١٧٤.

١٨- انظر موسيل: الفرات الأوسط ص٣٥٣، كذلك Sterck (Al-Anbar)

19- New man: Jews in Babylonia, P.14.

٢٠- لقد عرض البروفسور Streck آراء كل من ماريك وهونجمان في مقالته فكتب ماريك Maricq وهونجمان Honigmann بحثاً في الفرنسية Recherches sur les Res qestae divi saporis (Brussles 1953) PP. 116 - 117.

٢١- انظر الطبري: تاريخ ج٦ ص٣٦٦، ٣٨٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥ ص١٢٧.

٢٢- مقالة (Al-Anbar) في دائرة المعارف الاسلامية ط/جديدة.

٢٣- انظر موسيل: الفرات الأوسط ص٣٥٣.

٢٤- ن.م ص٣٥٧.

٢٥- الطبري: تاريخ ج١ ص٦١٢.

٢٦- البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٧، الطبري: تاريخ ج٣ ص٣٧٤، أبو حنيفة الدينوري: الاخبار ص١١٦.

٢٧- الطبري: تاريخ ج١ ص٦١١ البيروني: القانون المسعودي [القاهرة] ج١ ص ٢٨٧، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٢٥٧، ابن منظور: لسان (مادة نبر)

٢٨- ابن سرابيون (سهراب): عجائب الأقاليم السبعة ص١٢٣.

٢٩- ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ص١٩٩، أبو حنيفة الدينوري: الاخبار ص٦٦-٦٧.

٣٠- ابن حوقل: صورة ص٢٠٥.

٣١- ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥ ص٤٢١.

٣٢- البلاذري: فتوح البلادن ص٢٤٧.

٣٣- ابن حوقل: صورة ٢١٧.

٣٤- الطبري: تاريخ ج٣ ص٤٧٣.

٣٥- البلاذري: فتوح ص٢٤٨.

٣٦- ن.م. ص٢٤٧، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص١٠٧، ياقوت الحموي معجم البلدان ج١ ص٤٥٦، انظر أباحنيفة الدينوري: الاخبار ص١١٦.

٣٧- الطبري: تاريخ ج٣ ص٤٧٤.

٣٨- انظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٧٣، قدامة بن جعفر: الخراج ص٢١٦ - ٢١٧؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٣٤.

٣٩- البلاذري: فتوح ص٢٤٧.

٤٠- الطبري: تاريخ ج١ ص٥٥٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٣٢٩.

٤١- الطبري: تاريخ ج١ ص٦١٢ - ٦١٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٣٣٠.

٤٢- انظر البلاذري: فتوح ص٢٤٧؛ الطبري: تاريخ ج٣ ص٣٧٢.

٤٣- د. جواد علي: المفصل ج٤ ص١١٤.

٤٤- ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٤٧١.

٤٥- ن.م. ج٢ ص٢٣٠.

٤٦- ن.م. ج٣ ص١٢٥.

٤٧- ن.م. ج٥ ص٤٢١.

٤٨- ن.م. ج٤ ص٧٢.

٤٩- الطبري: تاريخ ج٣ ص٣٧٥.

٥٠- انظر: ابن قتيبة الدينوري: عيون الاخبار ج١ ص٤٣ ابن النديم: الفهرست ص٤٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى [نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية] ج٣ ص٨؛ د. جواد علي: الفصل ج٨ ص١١٨.

٥١- انظر مادة (هذرم) عند ابن منظور لسان العرب والزبيدي: تاج العروس: د. جواد علي: المفصل ج٨، ص٦٤٥.

٥٢- الطبري: تاريخ ج٤، ص٢٠٢.

٥٣- ابن الفقيه الهمذاني: مختصر البلدان ص١١٩.

٥٤- ابن النديم: الفهرست ص١٣٢، ١٦٤، ٢١٧.

٥٥- الطبري: تاريخ ج٤، ص٤١، يذكر أبو حنيفة الدينوري أن سعداً أراد اتخاذ الانبار دارهجرة، ص١٢٤.

٥٦- انظر المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٩٣، ١٩٤، الماوردي: الاحكام السلطانية ص١٠٣، د. عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الاسلامية (١٩٨٦) ص٥٩ - ٦٣.

٥٧- البلاذري: فتوح ص٢٧٣ - ٢٧٤.

٥٨- الطبري: تاريخ ج٧، ص٤٧٤، كذلك أبو حنيفة الدينوري: الاخبار ص٣٧٨.

٥٩- ن.م.ج٧ ص٤٨٠.

٦٠- ابن حوقل: صورة ص٢٠٥.

٦١- حدود العالم لمؤلف مجهول (ترجمة من الفارسية الى الانجليزية الأستاذ (Minorsky) .P.141.

٦٢- المقدسي: ص١٢٣.

٦٣- ن.م.

٦٤- الحوادث الجامعة المنسوب لابن الفوطي ص٦٣، ١٠١.

٦٥- انظر ياقوت الحموي: ج٢، ص٤٧١، ابن الأثير: اللباب في معرفة الانساب ج٣، ص٥٠٩.

٦٦- ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج١، ص٥٠.

بحوث باللغة الأجنبية

THE ORIGIN OF THE PHILISTINES AND THEIR MATERIAL CULTURE THROUGH HISTORICAL SOURCES AND ARCHEOLOGICAL FINDS

BY

DR. HAMZEH MAZLOUH MAHASNEH

FACULTY OF ARTS DEPARTMENT OF ARCHEOLOGY, MU'TAH UNIVERSITY, JORDAN

أصل الفلسطينيين ومادتهم الحضارية من خلال المصادر التاريخية والموجودات الأثرية

الدكتور حمزة مزلوه محاسنة
جامعة مؤته - الأردن

ABSTRACT

ملخص

من المعروف أن المنافس الرئيس الذي نهض ضد الاستيطان العبراني في أرض كنعان هم الفلسطينيون (PHILISTINES)، لقد وصل الفلسطينيون من منطقة بحر ايجه واستقروا في كنعان مع مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، محضرين معهم ابتكارات مميزة في مادتهم الحضارية. وقد كانوا القوة الرئيسية بين شعوب البحر التي حصلت على موطئ قدم في منطقة كنعان الساحلية. حيث نجحوا في نهاية المطاق في اضفاء اسمهم على كل منطقة فلسطين حتى اليوم.

بالرغم من أن موضوع أصل الفلسطينيين ومادتهم الحضارية قد تسبب في احداث جدل وتباين في وجهات النظر بين المؤرخين والأثريين المهتمين بدراسات الشرق الأدنى القديم. فإن مصادر دراسة الفلسطينيين (العهد القديم، والمصادر المصرية، و الموجودات الأثرية) قد مكنتنا الى حد كبير من التعرف على حضارة الفلسطينيين بإطاريها المحلي والإقليمي.

يهدف هذا البحث الى استكشاف مدى التطابق بين المصادر التاريخية والموجودات الأثرية وذلك من أجل تتبع أصل الفلسطينيين ومادتهم الحضارية.

I.INTRODUCTION

HISTORICAL BACKGROUND OF THE LAST PHASE OF THE LATE BRONZE PERIOD WHICH PRECEDES THE APPEARANCE OF THE PHILISTINES.

The years from around 1220-1150.B.C. Show the collapse of the Egyptian influence in the levant, the total ruin of the Hittite Empire in Anatolia, with the abandonment of their Capital Hattusha (Bogh azkoy), and a widespread destruction of cities in the Levant, Cyprus, and mainland Greece. The Aegean world, Anatolia and Egypt entered a dark age. In Canaan, however, the Israelites, Philistines, and the Canaanite were fighting for the old Canaanite strongholds and city states.

The battle of Qadesh between Ramesses II and the Hittites in 1286 B.C has to be counted as one of the great battles of the ancient world, not because it was decisive but becuase it was the last time that Egypt and Hatti, Which had dominated the Levant for 350 years, faced each othe in an open trial of strength. For Egypt, the war was a great effort aimed at retaning the commanding position that Egypt had enjoyed in the 15th century B.C. When Syria had not become an Egyptian province, all the strategic gains had been lost by the later 18th-dynasty during the 14th century B.C The power of Hatti had increased, and Lebanon became their southern frontier. So the great power of Hatti was an important source of stability in the East Mediterranean, and the disappearnce of this Power around 1200 B.C. was a major cause of the long dark age that followed.

The peace treaty that followed Qadesh had left the southern Canaan from the Negev in the south to the Kingdom of Byblos in the north, including Beth-Shaan and Damascus, as an Egyptian province. The Prince of the city-states remained as heads of their local

govenments and they came under only limited supervision from the Egyptian officials, such as overseers and inspectors, who were responsible for collecting tribute from these city-states. This tribute was what mainly interested pharaoh, and it became the test of loyalty.

One reason for the Egyptians' weakness was their dependence on foreign mecenaries for their army, which was quite as damaging as the Hittite system of feudal service with its over-powerful barons. In the 14th centruy, Egyptian garrison commaders stationed on the strategic passes through the Carmel range near Taanach, Megiddo and between Galilee and the Shephelah plain, had foreign Indo-European.names. The Practice of employing foreigners persisted to the end of the 13th century B.C, by which time the pressure of new populations on the move had exposed the weakness of the system.

The best troops used by the Egyptian were the Sherden, whose origin is still unknown. Sherden raiders had attacked the Nile Delta before Ramesses II's northern campaign; a stela from Tanis describes Sherden." rebellious of heart and their battle ships in the midst of the sea. Ramesses destroyed warriors of the Great Green (the Mediterranean), and Lower Egypt spends the night sleeping peacefully"(1). From this time on Sherden troops formed part of the army. They fought at Qadesh and their special status, recorded in many texts, shows a potentially dangerous Egyptian dependence on the foreigners.

Ramesses II had troubles with the Hapiru or Apiru. They are pobably Hurrian in origin and were at first connected with the Hurrian peoples. Their name is known to Egypt in the 15th century and much earlier in Mesopotamia. They were already south of Jerusalem in the early 14th century. The Hittites Knew them. Their connection with the Israelites has given rise to a great deal of speculation and controvesy. The Israelites did not refer to themselves as Hapiru, but the name was used by the Egyptians for Asiatic foreigners amongst whom Israelites were included. This is the sense in which it appears at Beth-Shan in Canaan, on a stela of pharaoh Seti I around 1300 B.C. commemorating a

successful campaign against marauders from east of the Jordan(2). The Israe referred to only once by name in Egyptian texts, on a stela of the time of Mernaptah, written after the Libyan campaign of 1220 B.C There the name refers to people rather than to land. So it would appear that at that time the Israelites were still wanderers without a permanent home.

The Hapiru were wandering between the cities of Canaan and sometimes banding together to attack these cities. Their situaion is diffucult to discern archaeologically, and this is also true of the Israelites until they came out of the hill-country of Palestine and Transjordan and began to take over the Canaanite cities, Yet new enemies were preparing to appear in the fertile Levant. The Aramaeans and the Philistines were on the move later in the 13th century. By the death of Ramesses 11 in 1220 B.C. all these forces were waiting to take their roles in establishing their own states(3).

II.The Historical sources

The name of the Philistine does not lead us very far in our examination of the origin of this people. So we will seek for other sources as to find out where did these people come form, and who gave them their name.

A- BIBLICAl SOURCES

The table of nations in Genesis 10:6, 13, 14 attributed the Philistines to the Hamitic origin and connected them with a place called Caphtor, and this connection is definitely stated in Amose 9:7 "Have not I brought up Israel out of the land of Egypt, and the Philistines from Caphtor, and the Syrian from Kir." It is repeated in Jermiah 47:4, where the Philistines are referred to as the remnant of the ('i) of Caphtor. The word ('i) is rendered "island," with marginal rendering sea coast. ('i) does not allow us to guess that Caphtor, as indicated by Jeremiah, was necessarily one of the islands of the sea. Even if the word definitely meant island, its use here would not be conclusive on this point. An

isolated headland might long pass for an island among primitive navigators, and, therefore, such a casual mention should not frustrate our investigation for Caphtor to be a real island.

The patriarchal narratives referred to the Philistines as the dwellers of the Negev under the rule of king Abimelech in Gerar (Gen. 26:1) This reference to the Philistines in a very early period is explained as a simple anachronism (4). Another veiw is that the Philstines in the patriarchal stories were people ethnically similar to the Philistines who were known from the book of Judjes and the book of Samuel. The Most accepted opinion, however, is Macalister's suggestion (5) that these early reference are not simple anachronisms, but rather the account of a biblical historiographer who lived during a period of Philistine dominance.

In samuel 30:14, the young Egyptian servant described the Amalekite raid: "we raided the south of the Cherethites and the property of Judah and the south of the Calebites and burnt Ziklage with fire. " In Ezekiel 25:16, the Philistines and the Cherethites with the remnant of the sea-coast are closely bound together in a common denunciation. In these biblical references that we have quoted, the name of the Cherethites agrees in construction with that of the phlistines. Therefore, we must seek elsewhere for further information.

Now the question why the Hebrews call the homeland of the Philistines Caphtor? The answer that seen to present itself is to the effect that by the time of the Hebrews, Crete had with its marvelous palaces at Knossos passed into traditions. The palce which the Hebrews called Caphtor was no longer tangible land, and whether Caphtor was or was not the same as the island of Crete was to the Hebrews not an important question beside the practical facts that the Philistines were obstinate in their occupation of the most fertile territories of the promised land. So all that the Hebrews can tell us about their enemies is that they came from and obscure traditional land called Caphtor, a place by the sea, and they have nothing more to say.

B- EGYPTIAN SOURCES

The Egyptian sources mentioned a name called Keftiu. It has similarity to the Caphtor of the biblical accounts, and it is specifically under Thutmose **III** that Keftiu first appears as the name of a place or a people. On the great stela in the Cairo Museum in which the King's mighty deeds are summarized in a from of a hymn to Amon is inscribed: "I came and caused thee to smite the west-land and the land of Keftiu and Asi are terrified." The most interesting things is that the name appears in the annals of Thutmose **III** at Karnak (6) connected with maritime enterprise, "The harbors of the king were supplied with all the good thing which he received in Syria, namely ships of Keftiu and Byblos." The most important sources of information are the wall-paintings of the tomb of Senmut, architect of Queen Hatshepsut, and the tomb of Rakhmerva, vizier of Thutmose III. In these wall-paintings we see figures of persons with non-Semitic, European looking faces, attired simply in highly embroidered loin cloths folded around their slender waists, with hair dressed in non-Semitic manner, bearing vessels and other objects of certain definite types. The tomb of Senmut is badly preserved, In the tomb of Rekhmera, however, we see the official standing with five rows of foreigners carrying their gifts, and an inscription explaining the scene as the "reception by the hereditary prince Rekhmera of the tribute of the south country, with the tribute of Punt, the tribute of Retenu and the tribute of Keftiu all brought to Thutmose **III**(7)".

On the island of Crete, wall-paintings have been revealed, enabling us to identify with certainty the sources of the civilization which the messengers and their gifts represent These wall - Paintings represent people with the same facial type, the same methods of dressing hair, bearing vessels identical to the ones which are depicted in the painting of the tomb of Rekhmera. The messengers who are depicted in the Egyptian frescoes are introducing into Egypt some of the Cretan art, art of the Late Minoan **II** and **III** periods, the time of the greatest palace of Knossos, and as they are definitely described in the accompanying hieroglyphs as messenger of the products of Crete if it was not in fact the

island of Crete itself.

The civilizations that had flourished in Crete are divided by the archaeologists into three peiods. Early Minoan, Middle Minoan, and Late Minoan, after the name Minos, The famous legendary Cretan king. Each of these periods is subdivided into three phases indicated by numbers, so we have Early Minoan **I,II,III** and so for the others.

It is not necessary to discuss all the Cretan preriods, the phase that attracts our attention is the Late Minoan III which is contemporaneous with the Late Bronze **IIB** period (1300-1200 B.C) in the Levant. Late Minoan **III** started after the sake of Knossos, and after this episode the Minoan culture began to take root in the eastern lands of the Mediterranean, such as Cyprus and the coastal areas of Asia Minor and Syria (8). We can hardly dissociate this phenomenon from the sach of Knossos. The very Limitations of the area over which the Mycenaean arts has been found are enough to show that its distribution was not a result of peaceful trade-During that time the Hittites in central and western Asia Minor were still strong to prevent foreign peoples from establishing settlement in those areas, and until now there is no single evidence that has been uncovered for the Mycenaean culture in the Hittite heartland.

The spread of the Cretan culture over Southern Asia Minor, Cyprus and north Syria between 1300-1200 B.C. must have been due to the movements of peoples, one event in which was the sack of knossos, and this is true whether those who carried the Cretan art were refugees from Crete or where the conquerors of Crete seeking more land to destroy and occupy (9).

Egypt was weak internally at this time. This weakness was attributed to the reign of Akhenaten and his religious revolution and conflict with the preists of Amon-Re in Thebes (10). Because of this, Egypt became unable to protect her foreign possesions and the nomads of Canaan, the Shaus and Habiru, were pressing and besieging the Canaanite towns. The Empire of the Hittites collapsed and the wohle region of Canaan had been engulfed by a great chaos and disorder.

In this time of confusion, we begin to hear about a number of small nationalities never assigned to any specific place, and what gives these tribes surpassing interest is the greatness of the names they bear. The first mention of these tribes is in the Amarna letters. The king of Alashia (Cyprus) complains that his coasts are being raided by the Lukku who plunder on small town after another.Rib-Addi complains that one Bihura has sent people of the Shasu to his town and killed a great number of Sherden people(11).

These tribes began to make league with the Hittites against Ramesses II, when he tries to recover the Egyptian possessions in Syria around 1340 B.C. Beside Ramesses II fought mercenaries called Sherden. When Merneptah came to the throne, the Libyans revolted against him with allies from the Sea Peoples; they proceeded to invade Egypt. The Philistines do not appear among the names of these allies (12). This is the first time that the term "Sea Peoles" is used in the ancient history. Mernptah recorded his victory over these allies on the walles of the temple of Karnak(13).

Ramesses III came to the throne around 1200 B.C Another Libyan ivasion threatened Egypt in his fifth reigning year. Ramesses III, however, was successful in beating it back. Three years later a massive invasion came to Egypt from the northern borders represented by the Sea People including the Palastu (Philistines). The inscription of Madinet Habu records how the northerners were disturbed and proceeded to move eastward and southward, swamping in turn the land of the Hittites, Carchemish, Arvad, Cyprus and Syria (14). So here we have to imagine a double advance by land and by sea. The landlord march includes tow-wheeled ox carts for women and children; and the sea expedition installed by many galleys. It is clear that the Sea Peoples' invasion is not only a military expedition, but also a migration of wanderers accompanied by their families and searching for a new place to occupy.

As the inscription states, the Sea People advanced by land and by sea to Egypt. But Ramesses III was ready for them. He reinforced his Syrian borders and fortified his harbors. The march of Sea People waves had been successful until their arrival in Egypt.

The Hittites and north Syrians had been so crippled by them that Ramesses took the opportunity to extend the frontier of Egyptian territory northward.

We do not realy need to follows this campaign which does not concern us but it is an indirect indication that the two-fold ravaging of Syria, before and after the decisive victory Rameses III, left it weakened and opened the door for the colonization of its areas by the remnant of these foreigners.

Papyrus Harris contains a record of the reign of Ramesses III, adding very little to the information afforded us by the Madinet Habu reliefs " The Danaiuna are there spoken of as islanders and the Purasati and the Zakkala were made Ashes, while the Washasha were settled in strongholds and bound" (15). From all these tribes, Ramesses III claimed that he took taxes. After the death of Ramesses III, About 1167 B.C. the Sea Peoples began to recover their strength and the situation was strangely reversed. Now Canaan became the battlefield for the philistines and the Egyptians were replaced by the Israelites in fighting these invaders.

From the biblical and the Egyptian sources, it is clear that Crete or its nieghborhood is the probable land of origin of the Philistines, sometimes called Cherethites or Cretans. They are said to come from Caphtor which is more like Keftiu, that denotes a place where the Cretan civilization was dominant. Their culture was derived from Crete; they may fairly be said to have been the people who imported with them to Palestine the traditions of their past life in their original homeland, and we will see this later very clear in the cultural remains that been revealed by the excavations.

III- PHILISTIA

There are no information about the nature of the Philistines, invasion of Canaan, but since they first seized the harbor cities on the southern coast of Canaan, one may assume that they came in ships. That they had a fleet and that their crews dominated the coast is recorded for us in the story of Wen-Amon (16). This is an Egyptian document from the beginning of the eleventh century describing the journey of a priest from the temple of

Amon in Karnak to Byblos in order to purchase lumber for the god's sacred bark. It is interesting to see that another of the Sea Peoples had taken over one of the coastal cities, the Sekkles who settleled at Dor. They had fleet of ships whose business took them to the cities of Phoenicia, Tyre, Sidon and Byblos. There is also another Egyptian document, the Onomasticon of Amenenmope (17), from about the same time, mentioning a list of names: Ashkelon, Ashdod, Gaza, Asher, Sherden, Sikkel and Phileshet. The three main Philistine cities are Mentioned here, the Israelite tribe of Asher which had settled in the plain of Acco and three of the Sea Peoples. It is obvious that the Sherdanu had taken over a part of the Canaanite coast.

Tell Abu-Hawam, an ancient harbor city near Acco excavated by Hamilton (18) shows an archaeological stratum dated to the Late Bronze IIB. This stratum is very rich in Mycenaean and Cypriot imports; it was destroyed at the end of the Late Borhze IIB; around 1200 B. On its ruins was established a new settlement (Stratum IVA) with a unique architecture uuparalleled in Canaan, rectangular houses divided into three or four rooms, It is obvious that these were newcomers, strangers to the country, who lived there only a short time. In the following settlement (Strata IVB-III), which was established there after the destruction of those houses, there is an entirely defferent architecture, the typical Iron IA pillard houses. There was no Philistine ware uncovered at Tell Abu-Hawam, so it is possilble that these were not the Phlistines, and it could be the harbor town of the Sherdanu who were mentioned in the Egyptian Onomasticon. The land of Philistia was limited between the Shihor (Wadi el-Arish) and the other borders of Ekron to the north (Joshua 8:2). It was bounded by the Mediterranean Sea to the west and the foothills of the Judean mountains to the east. It is possible that the Philistine already occupied this coastal area as a military base before their operations against Egypt, and the reliefs of medinet Habu which describe the addvance of the invaders through the lands of Hittites and North Syria make this not impossible. One could assume also that the Philistines reached this area after the battle with Ramesses

III and settled there at first as mercenaries in Egyptian service. This assumption is based upon Papyrus Harris which dates to the reign of Ramesses III and summarizes his activities. After the narrative of the victory, Ramesses adds that he brough many prisoners to Egypt, settled them in fortresses under an oath of allegiance to him, and provided them with food rations. So probably the Egyptians settled them in their fortress in Canaan, and that with the disintegration of the Egyptian authority, the Philistines become the masters of the country. This assumption would explain the situation of Beth-Shan in the Jordan Valley, a city which the Philistines soon controlled. There they carfeully preserved important Egyptian objects installed by an Egyptian garrison in the temples, a garrison which had held the city from the time of Seti. I to the time of Ramesses III, during whose reign the Philistines presumably replaced the native Egyptyian troops(19).

The Philistines were seated on the most rich and fertile region in Canaan and established in their powerful metroplitan cities, Gaza, Ashkelon, and Ashdod. All of these cities existed and served as important seaports earlier in the Late Bronze Age before the Philistines' arrival. The archaeological excavations uncovered thick burnt layers underneath the philistines destroyed and burn these cities and then restored them for their own settlement.

when the Philistines confronted the Israelite tribes in the mid-eleventh century, they were led not only by three coastal cities, but also by two more cities farther east in the Shephelah (Gath and Ekron). We do not know if the founding of these five cities took place all at the same time or whether the Shephelah cities may have been built later. There is no doubt today about the identity of the two cities, Gath and Ekron. In the Shephelah, there are two sites with a Prominent settlement (around 1100 B.C) containing an abundance of Philsitine pottery, Tell Zafit (Tell es-Safi) and Tel Miqne (Khirbet Muqanna). Their identification with Gath and Ekron respectively seems certain now, and this leads to an important assumption concerning their founding. Both of these cities

contain remains of the Canaanite cultrure of the Late Bronze period(21).

We have seen that none of the sites that we mentioned earlier were founded by the Phlistines, the only settlement founded by the Philistines was Tel Qasile, a small harbor town near the mouth of the Yarkon, north of Joppa. This site is excavated by A.Mazar and published in Qedem 12 and 20. In its two earliest strata (XII-XI) was found an abundance of Philistine ware, and the identity of its occupants is confirmed by the first philistine temple of its type to be discovered in Canaan, which we will discuss later.

It is seems that from the beginnig of their occupation on the southern coast of Canaan until the middle of the eleventh century, the Phlistines did not expand their own holdings in the south - west coastal area. However, after that date the Philistines began to Penetrate to the heartland of Palestine, and we will see this clearly when we discuss their conflict with the Israelite.

IV- THE CONFLICT BETWEEN THE HEBREWS AND THE PHILISTINES

The first appearance of the Philistines on the coast of southern Canaan is not recorded in the old Testament directly but indirectly. In the oldest monument of Hebrew speech, the Song of Deborah, the tribe of Dan is referred to as a maritime people who remained in ships, while their brothers bore the brunt of the invasion of Sisera. In the end of the book of Judges the tribe of Dan is obliged to seek a home elsewhere, and now the questions is raised here, why did Dan leave their own rich fertile land in the coastal area? The answer is because of the settlement of the Philistines. So the war between Dan and the Philistines was the first territorial conflict between the Philistines and the Hebrews. The tribe of Dan fought for its existence in the territory adjacent to the border of Philistia. Thus, Dan was forced to leave its inheritance and to move toward the north to Galilee.

Its clear that the Philistines brought with them an efficient confederated organization and highly military technology on sea and land(22). Therefore, Their territory soon became too confining, a fact which led to their expansion into the Shephelah, where they

encountered the Hebrew tribes. This encounter is expressed in clashes that are clearly manifest in the narrative of Samson from the beginning of the eleventh century. At this early stage, there is no doubt that the Philistines had already gained domination over the main part of the caostal area with its trade routes represented by the sea harbors and Via Maris Highway, which connects Egypt with Syria inland and Mesopotamia.

The next stage of the Hebrew-Philistine conflict shows us the disunited hostile tribes of Israel under the pressure of their enemy. This stage of conflict started when the Philistines gathered at a place called Aphek, while the Israelites selected a place called Eben-Ezer. The Philistines were the victors, and the Israelites attempted to turn the battle by fetching their national power (the Ark) from its resting place at Shiloh. But it was captured by the Phililstines (I Sam:4).

In I Samuel: 7 a reconciliation service was held, in which Israel renounced the various strange gods that had been adobted; the Philistines came up to plunder this assembly, but they were driven back by a thunderstorm and the Israelites chased and somte them until they reached a place called Beth-Car. After that the Philistines never again came up to invade Israel. It is noticeable that the author, with all his desire to glorify Samuel, avoids making a military leader of him, while emphasizing his religious functions.

After the battle of Eben-Ezer, the Philistines appear to have penetrated into the hill-country of Ephraim and destroyed Shiloh and its sanctuary(23). This indicates that the Philstines knew that the Israelites brought from Shiloh the Ark, the presence of which in Philistia caused a great disaster and suffering to the Philistines. The excavations uncovered an abundance of Philistine cultural material such as pottery and anthropoid coffins in the Jordan valley, particularly at Beth-Shan(24). and Deir-Alla(25)which is identified by Nelson Glueck(26) as the biblical Succoth. These archaeological facts help one to assume that, after the Philistines sacked Shiloh and its sanctuary, they continued eastward toward the Jordan Valley and occupied its major trade centers Beth-Shan and Deir-Alla. In this way they gained monopoly over the trade routes inland and in the

coastal area of Canaan so as to feed their war machine.

We have seen in the last three paragraphs that the conflict between the Israelites and the Philistines began only in the middle of the eleventh century, and it continued to the beginning of the reign of David. Now these two groups (Israelites and Philistines) were seeking additonal lands. Initially the Philistines had the upper hand because of their superior military tools. During the period of Philistine ascendancy in the second half of the eleventh century, the Israelites borrowed from them certain achievements in the building of military constructions. Reference has already been made to the discovery at Gibeah of Saul (Tell el-Foul) of a substantial fort surrounded by a casemate wall(27). This fort was originally built by the Philistines for their commissioners (I Sam. 10:5:13:3). However, the problem is that no Philistine pottery or any cultural material has been uncovered at this complex. A similar casemate wall to this one was discovered at Ashdod(28) ant at Beth- Shemesh Stratum III(29). Both of them were attributed to the Philistines and dated to the same period, the middle of the elenenth century. These casmate walls at Gibeah and Beth-Shemesh indicate and prove the Philistine expansion into the Shephelah.

The Philistine menace was the great challenge that forced Israel to face up to the question of its presence. This marks the end of the period of the judges and the beginning of the United Hebrew Monarchy which transformed Israel into the dominant force of Canaan. When the monarchy was established in Canaan the political life of the Philistines underwent a similar change. Achish, king of Gath, is mentioned for the first time (I Sam. 21:11). The question here is whether the struggle between Israel and Philistia in the end of 11th century was to a large extent the main factor only in the formation of Sauls, Monarchy in Benjamin and its establishment inside the Israelite area of settlement, or also, in the creation of Philistia's monarchy which had its center at Gath. The authority of King Achish was certainly considerable in peace and in war time, thus explaining why David sought refuge with him while fleeing from Saul.

When David ruled over all Israel, he consolidated the kindom that was founded by Saul, and succeeded in raising the Israelite Kingdom to the status of an importatnt political factor. David inflicted on the Philistines a number of defeats such as in the Vale of Rephaim and in the northern Shephelah. He broke the military, politcial and economic power of the Philistines by annexing large areas north of the Yarkon in the regions of the Shephelah and the Negev(30). However, he was unable to gain control of the large Philistine cities on the southern coast and Gath. Gath remained a royal city even in the time of Solomon (I Kings 2:39), though it had recognized the authority of the Israelite king. David employed troops of mercenaries called Gittites (11 Sam. 15:18). After the deatblows that the Philistines had received from David, their polictical and economic power collapsed. Their decline ecouraged the Egyptians and the Israelite to take over part of Philistine's dominion of the sea and trade routes(31). However, this dose not mean that the Philistines had vanished in this time; they survived to the following periods as a minor power, as we will see later.

V- THE RELIGION OF THE PHILISTINES

We have hints regarding the Philistine religion given to us from the Old Testament. The closing scene of Samson's career took place in a temple of Dagon at Gaza, which must have been a large structure. In this temple sacrifices were offered at festival conducted by the lords of the Philistines (Judges. 16:23). It is not unreasonable to suppose that Samson was destined to be offered in sacrifice at the great feast of rejoicing there described. This was probably an annual festival occuring at a fixed time of the year, and not a special celebration of the capture of Samson, because an interval of some months, during which Samosn's shorn hair grew again, must have taken place between the two events.

There was a temple of Dagon at Ashdod too, which indicates that the deity was a national god of the Philistines, not a local divinity like the Semitic god Baalim. Here there were priests, and a rite of leaping on (or stepping over) the threshold was observed. An

image of the god stood in this temple. There was somewhere a temple of Ashtaroth (Samuel) or of Dagon (Chronicles) Where the trophies of Saul were suspended. It is not clearly said that this temple was in Beth-Shan.

At Ekron there was an oracle of Baal-Zebub, consulted by the Israelite king Ahaziah (2 King 1:2). This one reference is the only mention in Old Testament. He must have had a very prominent position in Old Palestinian life. A statment in Isiah 2:6 shows us that the Philistines, like the Etruscans, were proverbial for skill in soothsaying, and it is not unlikely that the shrine of Baal-Zebub should have been of their principal oracle. It is clear that the Philistines who worked the oracle of Ball-Zebub entered into an old Canaanite inheritance; this is clear from the Semitic etymology of the names, because all the names of the Philistines gods, Ashtaroth, Dagon and Baal-Zebub, are west Semitic. This indicates that the Philistines in Canaan had adopted the language of the Canaanites and assimilated to their culture(32).

Dagon was evidently the head of the pantheon of the Philistines after their settlement in Canaan. We hear of his temples at Gaza, Ashdod and according to the story of the death of Saul, at Beth-Shan. At the temple of Ashdod, there was an image of the god Dagon. Some interesting though obscure particulars are given us regarding it in I Samuel 5:1-5. The Ark captured at Aphek was laid up two nights in the temple. The first night the image of Dagon fell on its face before the Ark and was replaced by the priests of Dagon. The second night he was fallen again and the head of the figure and the palms of its hands were broken off and lay on the threshold.

The recent idea of the modern scholars is that Dagon was of merman from, the upper half man, the lower half fish. According to the story in I Samuel 5, Dagon had a head and hands, so that he must have been at least partly human; also we could observe that exactly the same phrase is used in describing both falls of the idol. The first time it was unbroken and the priests could put it in its place again. The second time it was fallen again, but the projecting parts of it were broken off. In another way, the first fall of the

statue was just as bad as the second except that it was not broken. There is no statement made that on the second occasion of the fallen statue, whatever its from, snapped across in the middle. In both cases, it fell as a whole; this could suggest that what was left standing and intact was not so much any part of the statue itself, as the pedestal. From the statement, "The priests and those who entered the house of Dagon did not tread on the threshold of the temple in Ashdod, in I Samuel 5, is indicated that the temple was open to ordinary worshippers.

Now we deal with the story of the wanderings of the Ark. It would be natural to put the sympol of the deity of the defeated people in the temple of the god of the conquerors, as Mesha, king of Moab, put his religious trophies before Chemosh. So the Ark was deposited in the Ark, and at the same time a plague of mice spread over the philistines' territory and the people began to suffer from the emerods.

After this great suffering, the Philistines sent back the Ark with votive models of their two-fold plague, because they were struck with terror when the Ark of Yahweh was brought among them. Therefore, they believed in the existence and the extra-territorial jurisdiction of the Hebrew deity. The notion of the ransom that the Philistines gave to the Israelites when they returned the Ark is in not a Philistine ritual practice. It was an old Hittite ritual, however, against the plague and disease that attached them as can be seen from the following quotation.

"if the people are dying in the country and if some enemy god has caused that....... they drive up one ram, They twine together blue wool, red wool, yellow wool, black wool and white wool, make it into a crown and crown the ram with it. They drive the ram into the road leading to the enemy and while going so they speak as follows:whatever the god of the enemy land has caused this plague! we have now driven up this crowned ram. to pacify thee. O God! Just as the herd is strong, but keeps peace with the ram, thou, the god who has caused this plague, Keep peace with the Hatti Land"(33).

The Philistine religion never had any attraction for the Hebrews, except in Judges 6:10 which gives an indication of the influence of Phalistine worship. This suggests that in spite of the semitization of the Philistines during the Hebrews monarchy, their cult still remained too exotic to attract the Semites.

The Philistines received their deathblow in the time of king David and their military power vanished even so, their temple and the worship of their deity lasted down to the time of the Maccabees in Ashdod (I. Macc. 10:83-84).

A. DAGON:

Dagon is a very ancient deity of west Semitic origin, whose cult is attested in the west from the Early Bronze Age at Ebla in northern Syria to Gaza of Philistia in the Roman period. He is one of those deities who seldom appears in myth and for this reason, little is known of his character. His name is connected by some scholars with the common North West Semitic word for fish, dagg-dagon (the fish-god). Recently the name has been identified by others with a Semitic root (dgn) having to do with the clouds and rain, and this associates with the fertility deity(34), Evidently. the common Northwest Semitic word for grain (Hebrew Dagan) is derived from his name, and the biblical form of the name reflects Phoenician (Dagon) and not Hebrew Dagan (35).

Dagan also was worshipped widely in the period of the dynasty of Akkad (2300 B.C). His cult was well established in the Khabur River region which was called the "Land of Dagan;" temples of Dagan were erected in Mari, the main city of this region. During the period of the third dynasty of Ur (2100-2000. B.C), the cult of Dagan was introdeuced into Sumer, probably by the west Semites. His cult continued in Mesopotamia until the time of Hammurapi, who called Dagan banija (my Creator). Dagan was popualr among the west Semites then in Mesopotamia; many personal names in the Alalakh and Ugarit texts are compounded with the element Dagan(36). To judge from the biblical sources, the Philistines adopted Dagon as the head of their pantheon(37) and erected temples to him at Gaza, Ashdod and Beth-Shan. However, we

do not know how soon after their arrival in Canaan the Philistines adopted the worship of Dagon.

B. THE RELIGIOUS STRUCTURE:

We know that before the reign of king Solomon, Yahweh had a simple tent, and the Canaaite deities had to be content with their primitive high places, open areas of ground with crude pillar-stones. But Gaza, Ashdod and Beth-Shan have their temples. The story of Samson in Judges 16 gives us an idea about the Philistines' religious structrue: A large crowd of 3000 people (not to be taken literally) on the roof of the temple and the lords and their attendants inside watching the sport of Samosn. If Samson was also inside, those on the roof could not have seen him, because this large crowd would not allow any considerable number to enjoy the sport. So Samson must therefore have been outside the temple, and the lords and their attendants must have been not in the naos of the temple but under the open portico. So in this case the structure of the temple must have a building of the megaron type (see fig. 1-A). What Samson actually did was to seize the wooden pillars of the portico by pushing them off their bases and thus the portico had no other support and the whole complex collapsed. The suggestion here is that only the megaron design would satisfy the story of Samson. The megaron plan was the prototype of the Greek temple in the Aegean world. Also, Solomon adopted the megaron design for his temples, so probably he got his idea from the Philistines or from the homeland of this design of architecture indirectly.

Recent excavations have been carried out by A. Mazar in 1980 and 1985 at Tell Qasile. the only site founded by the philistines, which uncovered foundations of a Philistine temple (see fig. 1-B). In general the temple has the megaron design, except that the Philistine added a horizontal wall running parallel to the portico, which cahnged the portico to an enclosure. Many religious objects were found inside the temple such as small figurines, zoomorphic figures, libation vessels and an iron Knife.The Knife is the only iron objects that has been found in Canaan and attributed to the Philistines(38).

VI - THE CULTURAL REMAINS

A-CERAMIC:

The Philistine pottery in Palestine was discovered by an archaeologist who had worked mainly in the Cretan-Aegean archaeology(39). Mackenzie(40) investigated this pottery during his excavations at Beth-Shemesh. He determined correctly the stratigraphic relationship of the pottery and defined it as Philistine pottery and as related to the culture of the Aegean world.

The ceramic aspects include the forms and the decorations.

Forms: The Philistine pottery classifies into two categories: first, forms of Mycenaen character (see fig. 2) such as the krater with two tilted horizontal handles, the stirrup-jar and the elongated pyxis. Second, forms of local Canaanite character (see fig.3) Such as jugs in different sizes, beer-jug, local pyxis imitation and the pilgrim flask.

Decoration; The decoration covers the upper and middle parts of the surface of the vessel, the shoulder and the central zone. Each of these, usually the central zone, is a frieze of the metopic order: The triglyphs consists of straight or wavy lines, enclosing a vertical row of semi-circles with a dot in each. The metopes somtime contain geometric patterns such as spirals, concentric circles, checker boards or, most characteristically, a bird motif. The bird appears in two positions; mostly the head is turned backwards with a beak thrust under the wing feathers, but sometimes the bird looks straight ahead. In general, this decoration is bichrome (red and black) on white slip. This style of decoration appears on the two categories of forms that I have mentioned above.

The Philistine pottery was infuenced by the Cypriot, Egyptian, and local Canaanite pottery technique, but the dominant influence is that of the Mycenaean as it was derived from the Aegean repertoire(41). The evolution of the decoration can be traced from its initial appearance to the Myc. IIC where it flourished and thrived in its original homeland(42). Examples similar to the forms of figure 2 are known from Mycenae pylos, Rhodes and Tarsus in Cilicia(43). In fact, this pottery represent the hallmark of

philsitine culture made by potters well versed in the Mycenaean tradition(44).

J.Muhly(45) prefers to connect the Philistine pottery with Cyprus and Egypt rather than to the Aegean. He suggests that this kind of pottery is the closest in from and decoration to the LH. IIIC wares from Cyprus rather than to the Mycenaean ware, because in his opinion, it dose not represent something brought from the Greek mainland, nor dose it represent any one homogeneous ceramic tradition.

Philistine pottery is confined mainly to the area of Philistine settlement known from written sources. However, the excavations have shown that it had penetrated farther outside the borders of Philistia, to the Jordan Valley, particularly at Beth-Shan and Deir Alla(46). The appearance of Philistine pottery in areas far remote from Philistine settlements should probably understood as the result of political or commercial activities.

The Philistine pottery appears in a number of sites (see figure 4) in a clear stratigraphic context that provides the basis for two phase of the ware. The first phase followed directly the late Bronze **IIB** (1300-1200 B.C) or occurs after an intermediate Iron **IA** (1200-1000 B.C) The excavation results from Ashdod show that the end of the thirteenth century B.C marks the end of the Mycenaean kingdom and its classical mycenaean ware **IIIB**, followed by the myc. **IIIC** ware which association with the Philistine pottery(47). The same sequence was established by Albright(48) at Tell Beit Mirsim indicating that the Myc. IIIB was followed by the philistine ware. So it is obvious, therefore, that the Philistine pottery does not arrive into Canaan before the twelfth century B.C., figure 2 shows the pottery of the first phase.

The second phase reprsents the period of the disintegration of Philstine pottery, when it became assimilated into the local ceramic tradition; and the pottery, of this phase appears in strata belonging to the eleventh and the tenth centureis. so this pahse corresponds to Israelite of the decline of Philistine power accords with a decrease of Philistine finds in excavation and especially with the disappearance of the pottery's distinctively Philistine traits and its complete assimilation in to the local pottery in the

tenth century B.C; figure 3 shows the pottery of this phase.

Benson(49) has attempted to explain the Philistine pottery as the work of a single potter and dates its appearance about fifty years after the Philistine settlement. All the evidence indicates, however, that the Philistines began manufacturing their unique pottery after they occupied the coastal area of Canaan(50). Until now the excavations in the Philistine sites do not show any gap between the Late Bronze IIb strata and the arrival to the Philistines as Benson suggests. So the occurrence of the Philistine pottery can not dissociated from the appearance of the Philistines themselves.

B- BURIALS:

Some evidence of the Philistine burial customs dose exist. At Tell el-Farah was found a group of tombs which stand out both in contents and plan from others in the same site. Their contents include some pottery vessels with characteristic Philistine decoration, together with many vessels of Late Bronze Age types. The typical weapons appeared to be daggers and spears, the majority of which were bronze; but there was an iron dagger with a bronze hilt and a curved iron Knife(51). Such a knife was also found in the Philistine temple at tell Qasile(52). So we have here the first appearance of iron in Canaan, and the biblical accounts recorded the monopoly of the smelting of this metal by the Philistnes.

The tombs are consistent in plan; they are approached by a long narrow stepped passage, which enters the base of a trapezoidal-shapeed chamber. In the center of the chamber is a sunken passage, while around the sides of the chamber, benches are left to receive the burials. The burial appears to have been extended, lying on their backs. These tombs are in contrast to those found in Canaan, which usually of one or more rounded chambers. This indicates a foreign influence from the Aegean, the Philistine homeland(53). Most of these tombs contain pottery coffins with anthropoidal lids. These coffins are certainly not native to Canaan. In Egypt this kind of burial ranges from the time of Thumose III (1501-1447 B.C) to as late as 600 B.C In Canaan one of the most

striking finds is a cemetery discovered at **Deir el-Balah** which contains a hundred of these clay coffins(54), however, no trace has been found of an associated settlement. Its tombs have great quantity of Cypriot, Mycenaean and Philistine wares. Dothan attributed the whole cemetery and its contents to the Philistines.

In contrast, J.Muhy(55) believes that such coffin burials do not have originated with the Philistines, but must have been borrowed by them from the Egyptians rather than from the Aegean; and it is difficult to connect this burial practice with the Philistines as T. Dothan and others did.

VII- THE END OF THE PHILISTINES

In the first book of Samuel, the name Philistine occurs over one hundred times; in the second book, it occurs 24 times, while in books of kings the name occurs 6 times, These numbers show the comparative insignificance into which the Philistine fell after their conflicts with David. Achish was still the King of the Gath at the beginning of Solomon's reign, and the coastal area was still outside the control of the Israelite. In the period of the Divided Monarchy, Nadab son of Jeroboam, besieged Gibberthon, where he was killed by his successor, Baasha. Then the siege was renewed at the end of Baasha's reign, but the question why this site was made a center of an attach has remained unanswered.

Regarding the southern Kingdom, the Philistine brought gifts and tribute to Jehoshaphat, but they revolted under his son Jehoram. King Uzziah broke the walls of Gath, which had been weakened by the raid of Hazeal of Syria (2 Kings 12:18), as well as the wall of Jabneh and Ashdod. The Philistines revolted in the reign of Ahaz, profiting by the Edomite raid which put pressure upon Judah. They took cities from Judah including Beth-Shemesh, Aijalon, Gederoth, and Timnah, which are not recorded as Philistine property (2 Chorn. 28:18). When Hezekiah came to the throne, he reversed the situation by defeating the Philistines as far as Gaza (2 Kings 18:8).

The Assyrian annals gave us a lot of information concerning the Philistines. Hadad-

Nirari III (812-783 B.C) enumerates the Philistines among the Palestinian states conquered by him (56). Tiglath-Pileser III (745-727) mentioned that the Philistines had attached themselves to the Syrian league against him and for this reason he sacked Gaza and Hanun, its King, fled to Egypt. King Azuri of Ashdod refuesed to pay tribute to Sargon II (722-705 B.B.) and the latter came down and expelled Azuri and established instead of him his brother, Ahimiti(57).

Sennacherib (705-681 B.C) had trouble with the remnant of the Philistine, Rukipti had been succeeded by his son, Sarludain, but this ruler had been deposed and a person called Zidka reigned istead of him Sennacherib found conspiracy in Zidka, so he brought him and his houshold into exile to Assyria, and he took the cities of Beth-Dagon, Joppa and Bene-Berak. The Ekronites had revolted against the Assyrians. Their king Padi had remained a loyal vassal to his overlord, but his turbulent subjects had put him in fetters and sent him to Hezekiah, who cast him into prison. The Ekronites asked for help from North Arabia and Egypt and met Sennacherib in El-Teken; however, the latter defeated them and killed the people of Ekron. Padi was rescued from Jerusalem as a part of the tribute paid by Hezekiah (2 King 18:14). Sennacherib then cut off some territory from Judah and divided it among his vassals, Mitinti, King of Ashdod, Padi, King of Ekron, and Zibel, King of Gaza(58).

Esarhaddon (681-668 B.C) reigned after the assassination of his father Sennacherib. In the lists of king in subjection to him, we find Mitniti, kings of Ashdod, Zilbel, King of Gaza, and Ikansu, King of Ekron. All these Kings survived into the reign of Assurbainpal who came to the throne in 668 B.C(59). Around this date the Assyrian accounts leave us; however, the biblical records continue to talk about the Philistines.

The Philistines tradition still survived in Gaza down to the time of the Maccabean revolt, the temple of Dagon destroyed by Jonathan Maccabaeus (I Macc 10:83, 84). After this time, it is useless to trace the history of the Philistines fruther through the campaigns of Alexander, the war of the Maccabees and the Seleucids, the Roman domination and

the Arab Muslim period, because the record becomes a history of a country rather than a history of people.

VIII- CONCLUSION

The Old Testament, Egyptian records and the archaeological finds are the main sources for our knowledge of Philistine origins, cultrual background, and history. We have seen through this paper the agreement among these sources in tracing the origin of the Philistines to the island of Caphtor-keftiu (Crete) of the Aegean world.

The sites in Palestine containing the Philistine cultural remains are found mainly in the Shephelah and the southern coastal area. However, there is also evidence that Philistine culture spread to other areas of the country, particularly Beth-Shan and Deir Alla in the Jordan Valley, and this should probably be understood as the result of political or commercial activities.

The major excavations have established a clear stratigrahphic sequence through which we can trace the initial appearance, then the flourishing and finally the subsequent assimilation of Philistine material cultrues, a process which spanned the period from 1200-1000 B.C. The most prominent and well-known indicator of Philistine presence is their distinctive ceramic. This ceramic is found in a number of sites in a clear stratigraphic context that provides the basis for two phase of the ware.

The ware of the first phase which have a Mycenaean character appeared around 1200 B.C. and continued down to around 1000 B.C The rise of king David as a military figure ended this phase by annexing Philistia to his kingdom. After this episode, we start to get a new ware which is classified as a second phase; it represent the period of the disintegration of Philistine pottery when it become assimilated into the local ceramic tradition. The biblical sources of the decline of Philistine power accord with a decrease of Philistine finds in excavation during this phase.

Relating to the Philistine religion, neither the historical sources nor the archaeological finds give us any indication that the Philistines worshipped an Aegean deity, and this

1982a. Tel. Miqne (Ekron). Israel Exploration journal 33:127-29.

1982b. The Philistines and Their Material Culture. Yale University Pess, Israel Exploration Society; New Haven, London, Jerusalem.

1985. The Philistines Reconsidered, PP. 165-176 in Biblical Archaeology Today. Jerusalem: Israel Exploration Society.

Faulkner, R. O. 1980. Egypt: From the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses III, PP. 217-251 in The Cambridge Ancient History, eds. I. E, S. Edwards, C. J. Gadd, N. G. Hammond and E. Sollberger, 3rd ed., Vol.2, Part 2A Cambridge: Cambridge University.

Franken, H. J. 1969. Excavations at Tell Deir-Alla: A Straigigraphical and A nalytical Study of the Early Iron Age pottery. Leiden: E. J. Brill.

Gardiner, R. 1947. Ancient Egyptian Onomastica. Oxford University press.

Glueck, N. 1946. The River Jordan. New York: McGraw-Hill Book Company.

Goetze, A. 1969. Ritual Against Pestilence, P. 347 in Ancient Near Eastern Texts: Relating to the Old Testament. Princeton University.

Grant, E. and Wright, G.E. 1939 Ain Shemesh Excavations. vol .V. Baltimore: J.H. Furst Company.

Hamilton, R. W. 1934. Excavations at Tell Abu-Hawam. The Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine 6:7-70.

Hankey, V. 1966. Late Mycenaean Pottery at Beth-Shan. American Journal of Archaeoloty 70:169-171.

1967. Mycenaean Pottery in the Middle East. Annual of the British Schools at Atnes 62:107-47.

Hayes, J. H. 1984. Introduction to the Bible. Philadelphia: The Westminster Press.

Holy Bible. 1978. Nashville, Tenn.: The Gideons Internatioal.

Kenyon, K. M 1979. Archaeology in The Holy Land. London: Ernest Benn Limited; New York: W. W Norton and Company, Inc.

Kitchen, K.A. 1958. Ramessid Inscriptions, Vol. II. 2. University of Californian press, Berkeley-Los Angeles-London.

Lichtheim, M. 1976. Ancient Egyptian Literature. vol.2. University of California press, Berkeley - Los Angles - London.

Macalister, R. A. 1914. The philistines, Their History and Civilization. London: Humphery Milfrod and Oxford University press.

Mackenzie, D. 1911. Excavations at Ain Shmemsh. Palestine Exploration Fund, 84-90.

Malamat, A. 1971. The Egyptian Decline in Canaan and the Sea Peoples, PP. 23-28 in The World History of the Jewish People , Vol. 3, Judges, ed. B. Mazar, Tel Aviv: Jewish History Publication Ltd.

Mazar, A 1980. Excavations at Tell Qasile, The Philistine Sanctuary: Architecture and Cult Objects, Qedem 12.

1985. Excavations at Tell Qasile, Qedem 20.

proved that they adopted that local deities, which is indicated clearly in the biblical sources. However, the Philistines continue to use their original Aegean religious structure, which is called the Megaron. This type of religious architecture agrees with the story of Samson completely. The temple that has been uncovered at Tell Qasile in coastal Palestine by A. Mazar follows the same architectural design of the Megaron.

الهوامش

1- K. Kitchen, Remesside Inscriptions, Vol.II, Oxford, 1958, P. 290.

2- N. Sandars, The Sea Peoples, Warriors of the Ancient Mediterranean, London, Thames and Hudson, 1985, P. 53.

3- F. W. Albright, Syria, the Philistines, and Phoenicia, in The Cambridge ancient History, Vol, 2, part 2A, First Paper Back Edition, Cambridge, 1980, P. 531.

4- B. Mazar, The Philistines and Their Wars with Israel, in The World History of the Jewish People, Vol.3, Tel Aviv, Jewish History Publication, 1971, p. 164.

5- R. Macalister, The Philistines, Their History and Civilization, London, Humphrey Milford and Oxford University press, 1914, p. 39.

6- J. Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol, III-IV, Chicago, Chicago University Press, 1927, p.250.

7- N. Davies, The Tomb of Rekh-mi-Re at Thebes, New York, Metropolitan Museum of Art, 1943, P.10.

8- R. Macalister, The Philistines, Their History and Civilization, London, Humphrey Milford and Oxford University press, 1914, P.25.

9- B. Betancourt, The End of the Greek Bronze Age, Antiquity, 1976, Vol. 50. P.40.

10- A. Malamat, The Egyptian Decline in Canaan and the Sea Peoples in The World History of the Jewish Peoples, Vol. 3, Tel Aviv, Jewish History Publications, 1971, P.23.
R. Faulkner, Egypt. From the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses III, in The Cambridge Anceint History, Vol. 2, Part 2A, First Paper Back Edition, Cambridge, 1980, P.217.

11- N. Sanders, The Sea Peoples, Warriors of the Ancient Mediterranean, London, Thames and Hudson, 1985, P. 43.

12- D. O'connor, et al. Anceint Egypt, A Social History, Cambridge, Cambridge University press, 1983, p. 272.

13- R. Faulkner, Egypt From the Inception of the Nineteeth Dynasty to the Death of Ramesses III, in The Cambridge Ancient History, Vol, 2, Part 2A, First Paper Back Edition, Cambridge, 1980, P.233.

14- J. Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. III-IV, Chicago University press, 1927, P. 241.

15- M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, Vol. 2, Berkeley, Los Angeles, London, University of California Press 1976, P. 189.

16- Ibid, P. 224.

17- R. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, Oxford, 1947, P.24.

18- R. Hamilton, Excavations at Tell Abu-Hawam, The Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine, 1934, Vol,6, P.23-40.

19- G. E. Wright, An Evidence for the Philistine Story, The Biblical Archaeologist., 1966, Vol, 29, P.72.

20- K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, London, Ernest Benn Limited, 1979, P.215.

T. Dothan, The Philistines and Their material Culture, Yale, University Press, 1982b, P. 296.

21- T. Dothan, Tel Miqne (Ekron), Israel Exploration Journal, 1982a, Vol. 33, P.127.

Y. Aharoni, The Archaeology of the Land of Israel, From the Prehistoric Beginning to the End of the First Temple Period, Philadelphia, The Westminister Press, 1982, P. 186.

22- J. Hayes, Introduction to the Bible, Philadelphia, the Westminister Press, 1984, P. 101.

23-B. Mazar, The Philistines and the Rise of Israel, Proceedings of the Israel Academy of Science and Humanities, 1971, Vol.I, P.167.

24 - V. Hankey, Late Mycenaean Pottery at Beth-Shan, American Journal of Archaeology, 1966, Vol.70, P.169.

25 - H. Franken, Excavations at Tell Deir Alla: A Stratigraphical and Analytical Study of the Early Iron

Age Pottery, Leiden, E. J. Brill, 1969, P.190.

26 - N. Glueck, The River Jordan, New York, Mc Graw Hill Book Company, 1946, P. 150.

27 - B. Mazar, The Philistines and the Rise of Israel, Proceedings of the Israil Academy of Sciences and Humanities, 1964, Vol. I, P.6.

28 - M. Dothan, Notes and News: Tel Ashdod, Israel Exploration Journal, 1968, Vol. 18,p. 253.

29 - E. Grant, and G.E. Wright, Ain Shemesh Excavations, Baltimore. J.H. Furst Company, Vol.V, 1939, 23.

30 - Y. Aharoni, The Land of the Bible: A Historical Geography, Philadelphia, The Westminester Press, 1979, P. 293.

31 - B. Mazar, The Philistines and Their Wars with Israel in The World History of the Jewish People, Tel Aviv, Jewish History Publications Ltd, 1971, Vol.3,P.179.

32 - Ibid, P. 166.

33 - A. Goetz, Ritual Against Pestilence, in Ancient Near Eastern Texts: Relating to the Old Testament. Princeton, Princeton Universith Press, ed. James Pritchard, 1969,p. 347.

34 - P. Mc Carter, I Samuel: A New Translation with Introduction, Notes and Commentary, New York, Doubledaly and Company Inc, 1980, P. 123.

35 - J. Roberts, The Earliest Semitic Pantheon, Baltimore, Johns Hopkins, 1972, P. 18-19.

36 - P. Artzi, Some Unrecognized Syrian Amarna letters, Journal of Near Eastern Studies, 1968, Vol. 27, P. 164.

37 - A. Mazar, Excavations at Tell Qasile, Qedem, 1985, Vol. 20, p. 130.

38 - Ibid, P. 7.

39 - F. Welch, The Influence of the Aegean Civilization of South Palestine, Palestine Exploration Fund Quarterly Statemment, 1900, p. 342.

40 - D. Mackenzie, Excavations at Ain Shemesh, Palestine Exploration Fund, 1911, P. 84.

41- V. Hankey, Mycenaean Pottery in the Middle East, Annual of the British School at Athens, 1967, Vol, 62, P. 133.

42- G.E Wright, Philistine Coffins and Mercenaries, The Biblical Archaeologist, 1959,vol.22, P. 267.

43- R. Amiran, Ancient Potttery of the Holy Land, Jerusalem Massada press Ltd. 1969, P.267.

Y. Aharoni, The Archaeology of the Land of Israel: From the Prehistoric Beginnings to the end of the First Temple Period, Philadephia, The Westminister press, 1982, P. 183.

44- V. Besborough, The End of the Mycenaean Civilization and the Dark Age, in The Cambridge Ancient History, eds. E.S. Edwards et al, Cambridge, Cambridge Unversity press, 3rd Edition, Vol. 2 Part 2B, 1980, P. 676.

45- J. Muhly, Book Review: The Philistines and Their material Culture, American Journal of Archaeology, 1983, Vol 87, P. 560.

46- H. Franken, Excavation at Tell Deir Alla: A Stratigraphical and Analytical Study of the Early Iron Age Pottery, Leiden, E.J. Brill, 1969, P. 190.

47- M. Dothan, Notes and News: Tel Ashdod, Israel Exploration Journal, 1968, Vol. 18,p. 253.

48- W. F. Albright, The Excavation of Tell Beit Mirsim III, Annual of the American Schools of Oriental Research, 1943, Vol. 22-23, P. 36.

49- J. Benson, A problem in Orientalizing Cretan Birds: Mycenaean of Philistine Prototypes, Journal of Near Eastern Studies, 1961, Vol. 25, P. 73-80.

50- K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, London, Ernest Benn Limited, New York, W. W. Norton and Company, 1979, P. 215.

51- Ibid, P. 220.

52- A. Mazar, Excavtions at Tell Qasila, Qedem, 1985, Vol. 20, P.7.

53- Y. Aharoni, The Land of the Bible: A Historical Geography, Philadelphia, The Westminister Press, 1979, P. 267.

B. mazar, The Philistines and Their Wars with Israel, in The World History of the Jewish People, Tel Aviv, Jewish Histroy Publications, 1971, Vol. 3, p.171.

G.E. Wright, Philistines Coffins and Mercenaries, The Biblical Archaeologist, 1959, Vol. 22, P.56.

54- T. Dothan, Anthropoid Clay Coffins from a Late Bronze Age Cemetery Near Deir el-Balah, Israel Exploration Journal, 1972, Vol. 22, P.62.

55- J. Muhly, Book Review: The Philistines and Their Material Culture, American Journal of

Archaeology, 1983, Vol. 87, P.560.

56- H. Tadmore, Philisitia under Assyrian Rule, The Biblical Archaeologist, 1966, Vol.29, P.87.

57- J, Pritcahrd, Ancient Near Eastern Texts: Realting to the Old Testament, 3rd ed, princeton University Press, P. 284.

58-Ibid, P.289.

59- H. Tadmor, Philistia Under the Assyrian Rule, The Biblical Archaeologist, 1966, Vol. 29, P. 100.

IX. BIBLIOGRAPHY

Aharoni, Y. 1979. The Land of the Bible: A Historical Geography. Philadelhia: The Westminster press.

1982 The Archaeology of the Land of Israel: From the Prehistoric Beginning to the End of the First Temple period.Philadelphia: The Westminster Pess.

Albright, W.F. 1943 The Excavation of Tell Beit Mirsim **III**. Annual of the American Schools of Oriental Research, 22-23.

1980. Syria, The Philistines, and Phoenicia, PP. 507-536 in The Cambridge Ancient and History , eds. I.E. S. Edwards, C. J. Gadd, M. G. Hammond and E. Sollberger, 3rd, ed. , Vol. 2, part 2A.Cambridge: Cambridge University. First Paperback Edition.

Amiran, R. 1969. Ancient pottery of the Holy Land. Jerusalem: Massada Press Ltd.

Artzi, P. 1968. Some Unrecognized Syrian Amaran Letters. Journal of Near Eastern Studies 27:163-71.

Benson, J.L. 1961. A Problem in Orientalizing Cretan Birds: Mycenaean or Philistine Prototypes? Journal of Near Eastern Studies. 20:73-84.

Besborough, V.R. 1980. The End of the Mycenaean Civilization and the Dark Age, PP.648 - 648-712 in The Cambridge Ancient History, eds. I. E.S. Edwards, C.J, Gadd, N,G. Hammond and E. Sollberger, 3rd ed, Vol. 2, part 2B. Cambridge: Cambridge University.

Betancourt, B. 1976. The End of the Greek Bronze Age. Antiquity 50:40-47.

Breasted, J.H. 1927. Ancient Records of Egypt. Vol. III-IV. Chicago: Chicago University Press.

Davies, N. 1943 The Tomb of Rekh - mi- Re at Thebes. Metropolitan Museum of Art.

Dothan, M. 1968. Notes and News: Tel Ashdod. Israel Exploration journal 18:253-54.

Dothan, T. 1927. Anthropoid Clay Coffins from a Late Bronze Age Cemetery Near Deir el-Balah. Israel Exploration Journal 22:65-72.

Mazar, B. 1964. The philistine and the Rise of Israel. Prodeedings of the Israel Academy of Science and Humanities 1:1-22.

1971. The Philistines and Their Wars with Israel, PP. 164-179 in The World History of the Jewish People, vol. 3, Tel Aviv: Jewish History publications Ltd.

McCarter, P. K. 1980. I Samuel: A New Translation with Introduction, Notes and Commentary. New York: Doubleday and Company, Inc.

Muhly. J. D. 1983. Book Review: The Philistines and Their Material Culture. American Journal of Archaeology 87:559-561.

O'Connor, D., et al. 1983. Anceint Egypt, A Social History. Cambridge: Cambridge University press.

Pritchard, J. B. 1969. Ancient Near Eastern Texts: Relating to the Old Testament. 3rd ed. Princeton: Princeton University press.

Roberts, J.M. 1972. The Earliest Semitic Pantheon. Baltimore: Johns Hopkins.

Sandars, N.K. 1985. The Sea Peoples, Warriors of the Ancient Mediterranean. London: Thames and Hudson.

Tadmor, H. 1966. Philistia Under Assyrian Rule. The Biblical Archaeologist 29:86-102.

Welch, F. B. 1900. The Influence of the Aegean Civilization on South Palestine. Palestine Exploration Fund Quarterly Statement 342-350.

Wright, G.E. 1959. Philistines Coffins and Mercenaries. The Biblical Archaeologist. 22:54-66.

1966. An Evidence for the Philistine Story. The Biblical Archaeologist 29:70-86.

السيرة العلمية لمؤرخين عرب

سليمان موسى

ولد في قرية الرفيد (محافظة اربد) سنة ١٩٢٠ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في المدارس الاردنية، ومن خلال دراسات خاصة (دبلوم من بريطانيا). مارس مهنة التعليم مدة اربع سنوات، وعمل في شركة بترول العراق، في بلدة المفرق، بضع سنوات، ثم التحق بخدمة الحكومة الاردنية من سنة ١٩٥٧ الى أن أحيل على التقاعد سنة ١٩٨٤، وكان عمله في وزارة الاعلام وبعدها في وزارة الثقافة. ثم عمل مستشاراً ثقافياً في أمانة عمان الكبرى لمدة أربع سنوات.

في أثناء خدمته الحكومية عمل على اصدار كتاب (الاردن) السنوي لمدة ثلاث سنوات، وتولى تحرير اربعة أجزاء من سلسلة (الوثائق الاردنية) وعمل رئيس تحرير لمجلة (أفكار) مدة عامين، ورئيس تحرير مجلة (رسالة الاردن) لمدة خمس سنوات.

اشترك في مؤتمرات ثقافية عديدة، ومثّل الاردن في الفرع العربي للوثائق والارشيف، وفي لجنة الثقافة العربية التابعة لجامعة الدول العربية، واشترك في مؤتمرات وزراء الثقافة العرب.

يجيد اللغة الانكليزية ويكتب بها. اضافة الى لغته الأم العربية. عمل في ميدان الكتابة والتأليف والترجمة، وله أكثر من ثلاثين كتاباً مطبوعاً: وكتب مئات الأبحاث والدراسات باللغتين العربية والانكليزية.

من أهم كتبه:

- تاريخ الاردن في القرن العشرين (نشر في طبعتين).
- إمارة شرقي الأردن ١٩٢١ - ١٩٤٦، ونال عليه جائزة الملك عبدالله.
- الحركة العربية ١٩٠٨ - ١٩٢٤ (ثلاث طبعات).
- دور الاردن في حرب ١٩٤٨ (أيام لا تُنسى).
- لورنس والعرب: وجهة نظر عربية (ظهر في طبعتين) وترجم الى اللغة الانكليزية (ثلاث طبعات) والفرنسية، ثم الى اللغة اليابانية (اربع طبعات).
- صور من البطولة (طبعتان).
- صفحات مطوية.
- أعلام من الاردن: الجزء الأول (١٩٨٦) والجزء الثاني (١٩٩٣)
- وجوه وملامح: الجزء الأول (١٩٨٠) والجزء الثاني (١٩٩٤).
- مجموعة قصص قصيرة (ذلك المجهول).
- الثورة العربية (الحرب في الحجاز ١٩١٦ - ١٩١٨).
- المراسلات التاريخية (١٩١٤ - ١٩٢٤) في ثلاثة أجزاء.
- حائز على وسام الاستقلال (١٩٧١)، وجائزة الدولة التقديرية (١٩٩٠).

الدكتور: حسن أحمد يحيى

الدرجة العلمية: استاذ مساعد – حائز شروط الاستاذية.

الاختصاص:

١– الاختصاص العام: الامبراطورية العثمانية.

٢– الاختصاص الدقيق: ادارة واقتصاد.

الجامعة التي تخرج فيها: رانس، II فرنسا– Rennes IÍ.

سنة التخرج: ١٨٨٦.

عنوان رسالة الماجستير: الإدارة العثمانية في بلاد الشام.

عنوان رسالة الدكتوراه: العلاقات الإدارية والاقتصادية بين الامبراطورية العثمانية وولاياتها في بلاد الشام ١٨٠٤ – ١٨٦٤.

الجامعة التي يدرس فيها حالياً أو محل العمل: الجامعة اللبنانية – كلية الآداب – الفرع الثالث طرابلس.

رقم الهاتف في الجامعة التي يدرس فيها أو محل العمل: ٤٤١٨٠٨.

العنوان الثابت للمراسلة: الجامعة اللبنانية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الفرع الثالث – طرابس – القبة.

رقم الهاتف الثابت للاتصال: ٤٤١٨٠٨.

عنوان السكن ورقم الهاتف: طرابلس – الميناء – شارع الزراعة – ملك الربيع – الطابق الخامس. تلفون: ٦١١٠١٣٧ + ٦١٣٤٣٣.

النشاط العلمي

١ – الكتب المشتركة التي ساهم في نشرها

أ – العلاقات الإدارية بين ولاية طرابلس وولايات دمشق وحلب وصيدا في القرن الثامن عشر.

ب– كتابة المنهج البحث التاريخي بالاشتراك مع الاستاذ عبد اللطيف الحارس.

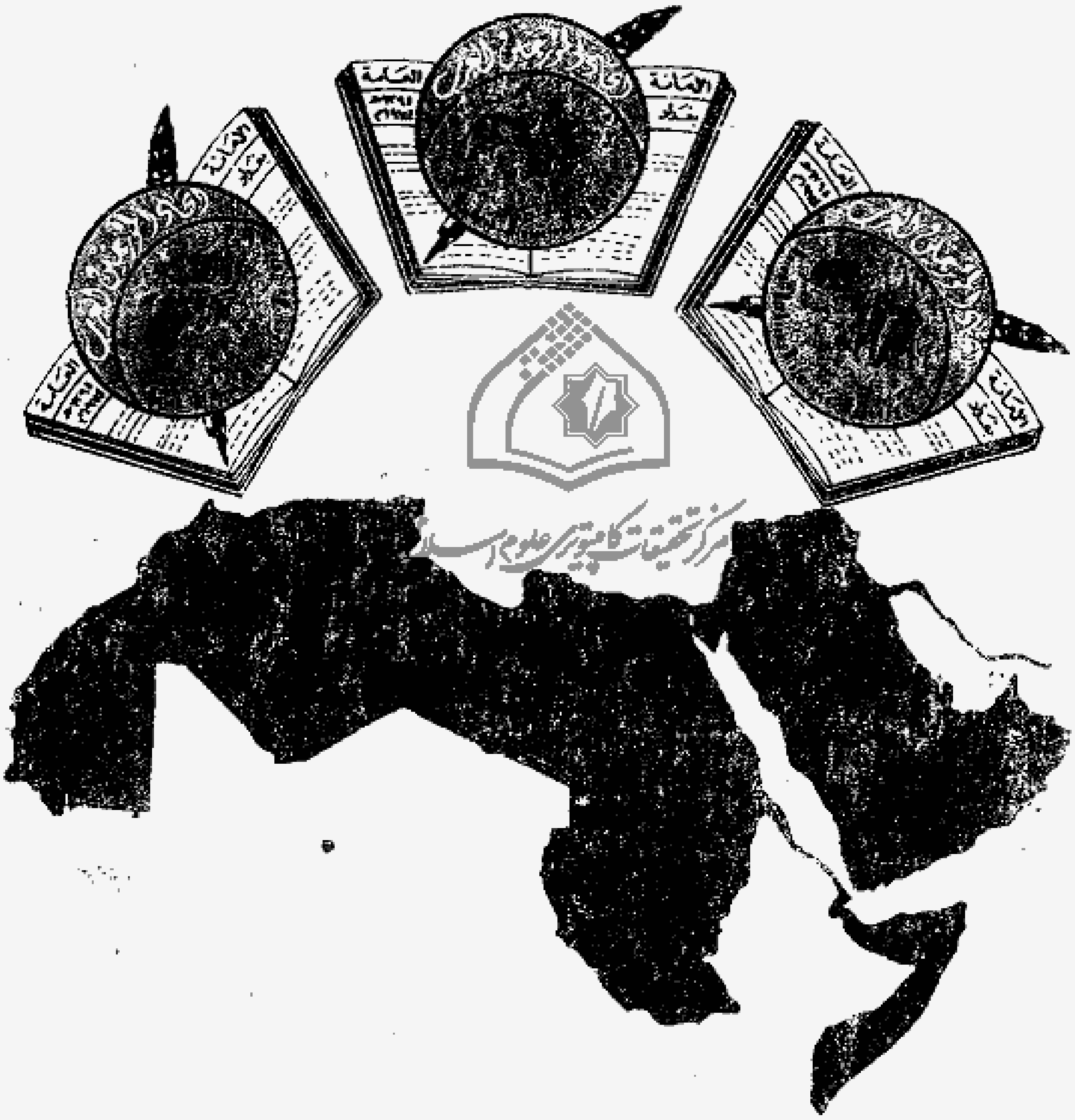
جـ – Les relation internatioeles d' ayrés les crieses égyptenros 1833 - 1840.

د– انعكاسات النواحي الإدارية والاقتصادية على النواحي الاجتماعية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر.

هـ– نظام الملك في الامبراطورية العثمانية.

د. حسن أحمد يحيى

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS



Office of the General Secretary
Iraq - Baghdad - P.O. Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad